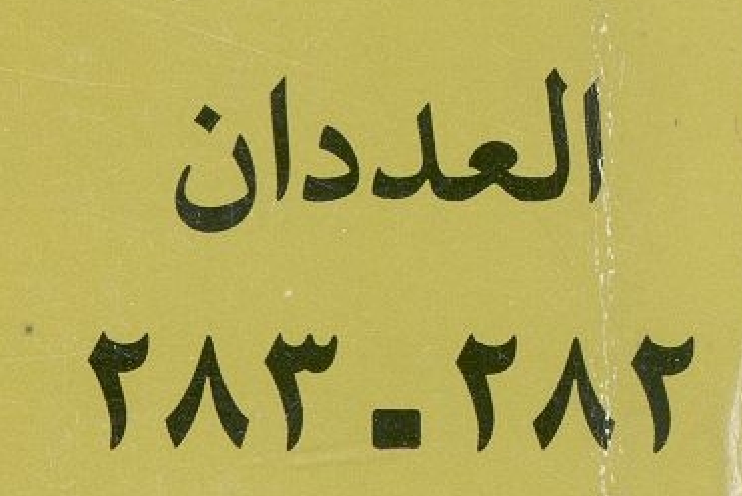




شارع دوران

تأليف : آرمان سالاكرو

ترجمة : نورالدين خضور

مراجعة : د. نادية كامل

اقتسام الظهيرة

تأليف: بول كلوديل

ترجمة وتقديم : محمود قاسم

مراجعة : د. عبدالغفار مكاوي

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

نوفمبر ١٩٩٦

العددان
٢٨٢ ـ ٢٨٣
نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٤)



شارع دوران

تأليف : آرمان سالاكرو

ترجمة : نورالدين خضور

مراجعة : د. نادية كامل

اقتسام الظهيرة

تأليف: بول كلوديل

ترجمة وتقديم : محمود قاسم

مراجعة : د. عبدالغفار مكاوي

سلسلة شهرية تصدر عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

المراسلات :

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة. الكويت 13100

شارع دوران

تـألـيــــف : آرمـان سالاكـــرو
ترجمـــــــة : نـــورالدين خضــــور
مراجعــــة : د. ناديـــة كامـــــل

العنوان الأصلي للمسرحية

Boulevard Durand

مقدمة المترجم

ولد آرمان سـالاكرو في روان عام ١٨٩٩ ، إلا أنه أمضى طفـولته وصباه في الهافر التي أتاها عام ١٩٠٢ .

وقد أتاحت له دراسته للبيانو والتأليف الموسيقي على يد ليون دوفي التعرف على شقيق هـذا الأخير، وهو المصور راؤول دوفي، الـذي نمّى لدى سـالاكرو إحساسه وتذوقه لفن التصوير. وبعد شهـادة الثانوية العامة ارتحل سالاكرو، الذي كان يعشق الآداب والفنون، إلى باريس ليبدأ دراسة الطب .

إن مروره العابر في المستشفيات ترك لديه انطباعا عميق الجذور، وقد باشر من ثـم دراسة الفلسفة والحقـوق في الوقت الـذي كان يجري فيه استطـلاعات صحفية لجريدتي الأومانيته والانترناسيونال .

في عام ١٩٢٢ قرر الزواج، وقد صادق المصورين ماسون، وخوان جري، وميرو، والأدباء ميشيل لاريس وتريستان تزارا وأنطونين آرتو وماكس جاكوب، وبدءاً من عام ١٩٢٣ تحول سالاكرو نحو المسرح، ولقد لفتت محاولاته الأولى ذات الصبغة السيريالية الانتباه دون أن تلاقي إقبالا واسعاً من الجمهور.

وبحلول عام ١٩٣٠ حقق أرباحاً طائلة في ميدان الدعاية : لقد كان يحشر أخباراً متفرقـة مختلفة للدعايـة في صفحات الجرائد، كما مارس أيضا الـدعاية الإذاعيـة (قصـائد صغيرة ملحنة) الأمـر الـذي أتـاح لـه أن يواصـل مسيرتـه المسرحيـة دون تنـازلات منه لإرضـاء أذواق الجمهـور، وهكـذا قدم إلينـا عـام

١٩٣١ مسرحيته القوية جداً: «أطلس أوتيل "Atlas - Hotel"حيث يتداخل الفعل والحلم، ثم وعلى التوالي «مجهولة آراس L'Inconnue d'arras» (١٩٣٥)، «ورجل كسائر الناس» (١٩٣٦)، و«الأرض كروية» (١٩٣٨)، وكوميديا مرحة «على سبيل المزاح Histoire de rire» (١٩٣٩)، «وليالي الغضب» (١٩٤٦)، «وأرخبيل لونوار» (١٩٤٧) «والله كان يعلمه» (١٩٥٠).

في عام ١٩٤٩ انتخب آرمان سالاكرو عضوا في أكاديمية جونكور (Goncourt) ومنذ ذلك الحين أثرى مسرحه بأكثر من مسرحية منها على سبيل المثال: «شارع دوران Boulevard Durand» المستوحاة من القصة الحقيقية لنقابي من مدينة الهافر حيث أمضى المؤلف صباه.

ومن الجدير بالذكر أن سالاكرو قد تعلق منذ طفولته بالقضايا الاجتماعية، فقد أثرت حادثة النقابي دوران على نفسيته تأثيراً استمر طوال الحياة.

هزل وهجاء وميتافيزيقيا

يتمتع آرامان سالاكرو بروح الدعابة، وخصوصا بالهزل، والمواقف والتعليقات المتناقضة، في مسرحية (على سبيل المزاح) يظهر لنا العشيق هزيلا بينما يتألق الزوج.

ومن جانب آخر، فهو أديب ملتزم ينتقد بشكل لاذع المجتمع البرجوازي، ويناضل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية.

بيد أن أهمية أعماله تتجاوز تجاوزا كبيرا إغراءات الهزل والهجاء أو الاتهام. إن سالاكرو يفكر أبدا في لغز الألم والسر المأساوي للحياة والموت والوضع

البشري، وتستحـوذ عليه فكـرة الزمـن الـذي لا رجعة فيـه، والأفعال التـي لايمكن التكفير عنها «الماضي هو جهنم الحقيقية، فلا أمل في التحرر منه أبدا هكذا يقول في «المسعـورون» (١٩٣٤)، «إن الإنسان يخلق دائما أشياء أبـدية» (مجهولـة آراس)، وفي مسرحيته «اتجاه ممنوع» تعـاش الحياة بالمقلـوب من الموت إلى الولادة، وفي «مجهولة آراس» تتراءى للبطل كل حياته التي يتقبلها كقدر بين اللحظة التي يطلق فيها رصاصة في قلبه واللحظة التي يفارق فيها الحياة.

وبالتالي فإن الهزل تتبدل ملامحه، فالضحك يغدو دوارا، والتأملات القلقة تتمازج بشكل غريب مع الواقعية والهزل، وإن كـان سالاكرو من دعاة الحتمية الماديـة المتشددة إلاّ أنـه مـدين للقلـق الميتـافيـزيقي بعمـق مسرحـه وطابعـه التراجيدي.

مقدمة المؤلف

كنت في العاشرة مـن عمري، وكان والداي يقطنان في الهافـر أمام السجن عندما سمعـت بقضية دوران. لقد بدأت الأمور على شكل خبر متـواضع من عشرة أسطـر نشرتـه الصحـف المحليـة الصـادرة في ١٠ سبتمبر تحت عنـوان «مطـاردة دمويـة» ومفـاده أن شجارا حـدث بين سكـارى على رصيف المينـاء انتهى بمقتل أحـدهم. ولم يكن القتيل سـوى عامل صرعه زمـلاؤه الفحامون المضربون لعـدم تضامنـه معهم في إضرابهم. وبعـد بضعة أيـام وأمام دهشـة الجميع، صـدر قرار اتهام بحـق أمين النقابـة جول دوران، وفي المنـزل تابعنـا القضية وجلسـات محكمة الجنـايات، إذ أن والدي وأصـدقاءه كـانوا مقتنعين ليس ببراءة جول دوران فحسب بل بأن الأمر لا يعدو كونه مؤامرة. وإني لمقتنع أن كل حياتي قد تأثرت بهذا الخطأ القضائي الفاحش الذي عشته في طفولتي، وما كـان يمكنني أن أنساه. إن تجربتي هـذه مع لؤم البشر وطيبتهم كـانت لي دائما وبشكل لا شعوري تقريبا معياراً أقيس عليه كل الأحداث التي تطالعني في مجرى حياتي، وقد عقدت العزم على أن أتكلـم عن هذه القضية ذات يوم، وفي أواخر حياتي وفيت بوعدي.

الواقع أن «شارع دوران» ليست بالكوميديا ولا بالدراما. إنها واقعة تاريخية لم أعطها أي طـابع روائي. لقد تتبعـت بمساعدة الـوثائق التي وجـدتها اليوم ذاكرتي الطفوليـة، فضلا عن أني قد تعـرفت إلى بعض أشخاص هـذه القصة الذين طالما ترددت أسماؤهم على مسامعي في فترة صباي.

ففي عام ١٩٠٨ انتخب والـدي مستشارا بلديا للمدينة مع مـرشح قائمته رونـه كوتي، وهـو محام شـاب سيدافـع عن جـول دوران، كما سيـدافع أحـد مساعدي العمدة السيـد جانكين عن الأخوين بواييـه، وكان والدي يتحدث في المنزل عـن مدير الأمـن بكل احترام، ثـم إن رئيس رابطة «حقـوق الإنسان والمواطن» الـذي شهد لصـالح دوران أصبح مـن أصدقـائي في أواخر الحرب العالمية الثانية. وقد تعرفـت في فترة لاحقة إلى الشخص الذي أطلق عليه اسم المندوب.

لقد غيّرت بعـض الأسماء، صحيح أن قضية دوران أقـل شهرة مـن قضية دريفوس، إلا أن هذا لم يمنعها من أن تدخـل التاريخ، كما هو الحال بالنسبة لكل شخصياتها، لقـد غيرت أسماء الشهود واسم الضحية لأن بنـاته الثلاث مازلـن على قيد الحياة، أما زوجتـه التي أدعوهـا مدام كابرون فقـد وقعت على عريضة العفو عن جول دوران.

وكي أظهر كم كنت حريصا على متـابعة موضوعي دون اللجوء إلى أي نوع من الأبحاث الأدبية أو المسرحية أورد هنا بعض الرسائل التي بعثها جول دوران بعد اعتقـاله إلى والديـه وخليلته جوليـا، إضافة إلى رسـائله بعد الحكـم عليه بالموت على المقصلة.

٢٣ سبتمبر(أيلول) ١٩١٠

عزيزتي جوليا،

أضع نفسي مكانك، إنه مؤلم بالنسبـة لك أن تريني في السجن، لكن أقول لك إني واثق مسبقا أنه سيخلى سبيلي وأنه سيتسنى لي أن أعانقكم جميعا. . .

٢٩ سبتمبر(أيلول) ١٩١٠

عزيزتي جوليا،

تأكدوا أن صحتي بخير وأن براءتي ستكون أكثر نصاعة كلما تأخر إعلانها. . . أخيرا لدي أمل أننا سنلتقي قريبا، لأنه سيكون هناك حل في الأيام المقبلة.

أول أكتوبر(تشرين الأول) ١٩١٠

عزيزتي جوليا

أخبرك أنني كتبت إلى المحامي كوتي لكي يأتي لزيارتي. لقد مضت فترة طويلة لم أستدع فيها للتحقيق. مادام أبي وأمي سيزورانني بعد ظهر هذا اليوم فأنا لا أجد شيئا كثيرا أقوله لك الآن، تقولين إنك تنوين العمل، يا ليتك تستطيعين صرف النظر عن هذا الأمر فأكون سعيدا جدا. لا أريدك أن ترهقي نفسك على الإطلاق! إن كان لابد من ذلك اشتغلي بالخياطة في المنزل، هذا يكفي! أنت بحاجة للراحة، لم يمض وقت طويل على مغادرتي المنزل لتجدي نفسك مضطرة للعمل، أنت بحاجة للراحة. لا تخافي، سأعوض الوقت الضائع. أنت تعلمين أننا نكسب في الشتاء مالاً أكثر في مهنتنا.

الاثنين ١٠ أكتوبر(تشرين الأول)١٩١٠

بالنسبة للوقت الحاضر أقول لك إن ضجري قد خف، يمكنني أن أتسلى مع رفيقيّ بوابيه، وهما مثلي ضحية الظلم، نعم إنهما مثلي ويعلمان حق العلم

أن الذين يتهمونـنـا سلوكهم مخز، فنحن رؤساء الورديـات استطعنا أن نقيّمهم خصوصا أثناء العمل.

أحب أن أخبرك أني كتبـت إلى السيد كوتي لأنقـل إليه بعض المعلـومات. آمل دائما أن يأتي قريبا اليوم السعيد الذي يظهر لذوي الضمائر من الناس أننا ـ نحن الـذين نحـب أن نحيا في بيئـة نزيهة ـ ضحايـا إفادات كـاذبة... إن صاحب الضمير يتعذب. ولقد تعذب المسيح بدوره كي ينشر تعاليمه: «أحبوا بعضكم بعضا».

٢٠ أكتوبر(تشرين الأول) ١٩١٠

شيء بسيط أقولـه لك: إن مدير السجـن أخبرني أنك التمست عربـة من أجلي.

أرفض ذلك كل الرفض. إني رجل يتعرض في الوقت الحاضر للظلم، فأنا أقول بصوت عال إن ما يتهمونني به محض افتراء، إن ضميري نظيف وسيبقى كذلك دائما.

إذن فسوف أذهب رافع الرأس وأعود كـذلك، لكن دون عربة. إني أحترم النظام مادام يطبـق عليّ وعلى غيري. فنحن العمال الذين لا نكسـب قوتنا إلا بمشقة علينـا ألاّ نبدد المال، علينا أن نحـافظ عليه بعنـاية، لأن الحياة مـريرة جدا بالنسبة للـذي ليس لديه في الوقت الراهـن شيء يعيش منه سوى ضميره واستقـامته. أصر إذن على أن يبقـى هذا المال في حـوزتك. لا تنسـى أننا قـد فقدنـا مبلغا كافيا مـن المال خلال هذيـن الشهرين في السجن الـذي نتحمله ظلماً.

٢٦ أكتوبر(تشرين الأول) ١٩١٠

أجل لقد تعذب المسيح، يمكننا أن نؤمن بذلك، بالأخص في زمنه لو أنه تكلم عن النقابة، إني مقتنع أنهم ما كانوا ترددوا طويلا في اتخاذ القرار بصلبه.

الأجدر بنا أن نعتمد على الشباب، يلزمنا الكثير الكثير من الوقت لنتوصل إلى أن يدرك الناس ويفهموا أن حياتنا على هذه الأرض قصيرة الأمد، لذا فالأولى بهم أن يتحابوا بشكل أفضل بكثير.

(إلى والده)

٢٠ أكتوبر(تشرين الأول) ١٩١٠

تشجع، إن إخلاء سبيل ابنك الذي يحبك أصبح قاب قوسين، لديك إلى جانبك أشخاص يحبونك، وولدك يعترف تماماً أنه السبب في طردك من عملك، لكن هل خطر على بالك أبداً أن رئيسك، بعد كل الخدمات التي قدمتها إليه، سوف يحمّلك جريرة ما نسب إليّ. فليكن، أنت بحاجة للراحة، واهتف معي «عاشت النقابة».

١٦ نوفمبر(تشرين الثاني) ١٩١٠

إن المدعين علينا قد اقتادوني والأغلال في يدي، لكن عليهم أن يحترسوا، إذ سيتحقق لمحكمة الجنايات أن اتهاماتهم ملفقة وأنهم متحاملون على النقابة.

٢٨ نوفمبر(تشرين الثاني) ١٩١٠

(بعد صدور حكم الإعدام)

والداي العزيزان

بعد حالة الانهيار العصبي التي استمرت لدي لبضعة أيام، بدأت أستعيد قـواي لأني مقتنع ببراءتي. لقـد انتصر المدّعـون علي، بيـد أن محاميّ كـوتي في حوزته كل ما يمكنه أن يثبت أني ضحية اتهامات ملفقة. . . حتماً لدي الأمل في أن يوضع في مكاني أولئـك الذين يمتهنون الكذب، ثم إنـه لا يحق للعدالة أن تدينني، أقول ذلك بمـلء فمي، قد يتعللـون بأن الأمر مجرد خطـأ، لكن الناس مسئولون إزاء خطأ من هذا النوع. إنهم لم يحاولوا أن يتحروا صدق أقوال المدعين عليّ.

ليس التحامل من شيم هيئة المحلفين بل هو الضمير.

إن الحكم الذي صدر علي اعتباطي.

إنه تحامل على قضية النقابة، ومع ذلك فإنه يحق لأرباب العمل أن ينتسبوا للنقابة! لماذا لا يحق لنانحن العمال أن ننتظم في نقابة؟

سأكتب لمحامـيّ، هذا أمر مزعـج حقاً، فجميـع مدخراتنـا ستتلاشى. لا عليك، فقـد ينجدنـا بعض المحسنين ممن يعـرفون وضعنـا، ويعلمون أني ضحية افتراءات حقيرة. علينا أن نتحلى بالشجاعـة، وألا نتخاذل، وبخاصة أنكم تعلمون كلكـم براءتي التي أثبتها الشقيقان بواييه. . .

لك سلامي يا جوليا الحبيبة، ابقي قوية، سيعود إليك حبيبك جول، إنها

مسـألة وقـت، ولسوف يكـون الانتصار أجمل. لكـن أؤكد لـك أني تعرضـت للعبة قذرة، هيا، سأعود.

سلامي إلى كل أصدقائي، إلى أمي، إلى أبي الغالي.

ابقوا متحدين ومتحابين. سـلامي لك يا جوليا، فأنا أغلـب الوقت أفكر فيك...

إنه لأمر مؤسف، ولكن كان يجب أن أكون حراً الآن.

الاثنين ٥ ديسمبر(كانون الأول) ١٩١٠

والدايّ الغاليان

من بعيد جدا أكتب إليكما، ولكم أشعـر بالأسى إذ أقول لكما إن ابنكما قد انتزع منكما في أواخر أيامكما، في هذه المرحلة التـي كنت قد صممت أن أكون لكما نعم السنـد. ليس البشر دائما عادلين، إلا أنهم لا يفعلـون ذلك عامـدين متعمدين.

أحسب أن ليفيك مبتهج للحكم الذي صدر عليّ.

وبعد، لقد أخلي سبيل الشقيقين بواييه. بـريئان سلما من العقاب! وكأني بمتهميّ قد اكتفوا بي ضحية.

والدايّ العزيزان

تـأكدا أني لسـت مجرماً. ستتضـح لكما الحقيقة فيما بعـد، إني متأكـد أنها ستتضح، لكن للأسف بعد فوات الأوان...

بعد صدور الحكم عليه لم يحتمل عقل جول دوران الظلم. إليكم ما يقوله قرار محكمة التمييز بتاريخ ٢٨ فبرايـر(شباط) ١٩١١: «يقول التقرير الصادر

في ٢٦ ينايـر (كانون الثاني) عـام ١٩١١ عن رئيس أطباء مستشفـى الأمراض العصبية في الكـاترمـار إن دوران في حالـة ذهول مـزمنة، مصحـوبة بنـوبات انفعاليـة عنيفة، من وقـت لآخر وأنه لم يطـرأ أي تحسن على حالتـه ، بحيث يجب اعتبارها غير قابلة للشفاء».

لقد هـزت قضية دوران جماهير العمال في فرنسـا والخارج، وفي ٩ أغسطس ١٩١٢ ألغت محكمـة التمييز حكم محكمة روّان. بيـدأن براءة دوران لم يعترف بها رسميًا بعد. وهھنـا وثيقة وجدتها في أرشيف المحـافظة، وهي تتعلق بـوالد دوران الذي حاول الانتحار في محطة قطار روان، مساء صدور الحكم.

الهافر، ٢٤ أكتوبر(تشرين الأول) ١٩١٣

السيد جينستال

عمدة الهافر

السيد العمدة

نقترح عليـك أن تدشـن يوم الأحـد القادم ـــ الواقـع في ٢ نوفمبر(تشريـن الثاني)ـ ضريحا تخليدا لذكرى والد جول دوران، يدور عليه ما يلي:

«جوستاف دوران، ٥٨ عاما

إن الأحزان والشقـاء التي عانى منهـا من جرّاء حكم الإعـدام الصادر على ابنه البرىء قد أوصلته إلى القبر». هذا الصباح قـــال لنا مسئول المقبـرة إنه لا يستطيع تحقيق رغبتنـاما لم نأته بـإذن من رؤسائه. كما طلب منـا أن نحذف كلمة بريء.

وقد خاطبت في هذا الشأن السيد جانكين فقال إنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً دون إذنك.

أظنك ترى، سيدي العمدة، أن لا شيء مخلاً بالأمن في أن يدون على قبر والد دوران المرحوم بعض العبارات الصادقة، ونحن نعتمد عليك في أن تطمئن السيد جانكين والسيد مسئول المقبرة.

وتفضل سيدي العمدة بقبول فائق احترامي.

التوقيع ج. ديشيردار

الهافر، ٢٥ أكتوبر(تشرين الأول) ١٩١٣

السيد...

جوابا على الرسالة التي وجهها إليّ السيد ديشيردار، لي الشرف في أن أقول لك إني لا أرى مانعا في أن يدوّن على ضريح السيد دوران النص التالي:

«إن الأحزان والشقاء التي عانى منها من جراء حكم الإعدام الصادر على ابنه البريء قد أوصلته إلى القبر».

وتفضل...

لقد غيّرت أيضا اسم شركة السفن. إنها لا تزال موجودة، لكن أساليبها الاستثمارية تطورت كثيرا خلال خمسين عاما... بل يمكنني أن أقول إن الفحم نفسه قد تلاشى من على أرصفة الهافر الذي تحول إلى ميناء بترول.

أخيرا فإن الشخصيات البرجوازية، شخصيات «التل» متخيلة. لكنها ليست وهمية. لقد أردت أن أظهر إلى جانب مصاعب العمل مصاعب أرباب

العمل، وأن الموت يحوّم أيضاً حول التجار الذين كـانوا يعرفون كيف يضحون بأنفسهم في سبيل الفكرة التي يكونـونها عن واجبهم. ووراء اسمي بوجنهارت وسيامان لا يمكـن أن نذكر أي اسم حقيقـي، إن لم يكن كافة الأسماء تقـريبا وقتئذ. لـن أشير في هذا الشـأن إلا إلى مرجـع لشاعـر جعل مـن نفسه طـوال أربعين عاما مـؤرخا لمدينة الهافر، وهو جـوليان جيلومار. إليكـم بضعة أسطر مأخوذة من كتابه «روح الهافر وملامحها منذ نشأتها». .

«لقد تحدثت عن شلة برجوازيـة في نهاية القرن الماضي. فالطبقة الراقية أي البرجوازيـة الكبيرة كانـت تشكل في الهافر طبقـة مغلقة جـدا من ذريـة كبار أصحاب السفـن، وكبار التجـار الذين راهنـوا بنجاح على القـرصنة، وتجارة الرقيـق الأسود وصيـد الحيتان، واستجـرار المواد شديـدة الطلب، لقـد كانـوا يمتلكـون ثروات ضخمـة وطيدة الأركـان، رغـم تقلبات المضـاربة على البـن والبهار والصدف والقطن. . .

ثم إن منـازلهم التي كانت عبـارة عن قصور صغيرة حقيقية وسـط حدائق غنـاء تشهد على متـانة الثـروة الموروثـة والمنماة، مشكلة خلفيـة جميلة ألا وهـي الهضبة التي تشرف على المدينة من أولها إلى آخرها.

إن رجالات المال هؤلاء كانوا يبدون في معظمهم نوعاً من اللامبالاة المتعالية إزاء كل من لا يدانيهم ثراء، بل إن بعضهم كان يتناسى فيمايبدو أنه لولا ثروة والده لما تمكـن من أن يصبـح على ما هو عليـه، ومن جانـب آخر فـإن هؤلاء التجار المعتزين بمنازلهم والقساة في أغلـب الأحيان على عمالهم، كانوا يلتزمون في العلاقات التجارية تصلباً فريداً من نوعه، كان مصدر قوة صفقات البن، والقطـن، والصوف، والشهـرة العالميـة للمـوقع. فعنـدمـا لايتوقـع صاحـب

السفن، أو التاجر، أو صاحب المصرف الذي يمر بصعوبات مالية، أي تعويم عائلي وسري، فإنه ينتحر أحياناً في المكتب الذي طالما عمل فيه».

متى، كيف، من سيمثل هذه المسرحيـــة، في أي بلـد، أمام أي جمهور؟ لا أعلم شيئا حتى الآن. إنها للمرة الأولى في حياتي الأدبية، أشعر أني كتبت ما كنت أرغب تماما في كتابته، وأني أنهي هذا الكتاب وأنا مرتاح الفكر.

رب قائل يقول إن بطل هذه القصة لا يظهر ذكاء فريدا. إنها هذا ما يجعله أعظم في نظري. إن طيبته الشديدة هي التي تؤثر في، ولئن كانت هذه الطيبة تجعل من جول دوران مسيحاً مصلوباً، فإن ذلك لا يقلقني، وأنا لم أحاول أن أتجنب هذه العقبة. في المعركة لا تتعدد الخيارات.

يمكننا أن نتساءل عن جدوى هذه المعركة وجدوى آلام جول دوران، إن الألم يتجلى لي دائما في جو وتلوين عبثيين، فباستشهاد جول أو عدمه كان الفحم سيتلاشى من على أرصفة الهافر. لكن إلى أي فضائح قد تقود بعض الأنانيات؟ كيف يؤدي الكذب إلى الجريمة؟ كم المحاباة آثمة! هذا ما تلفت نظرنا إليه قضية دوران التي مضى عليها زمن، وأيضا إلى أن هناك موقفا وحيدا جديرا بالإنسان أمام الحقيقة وهو أن يفتح عينيه وأن يقول هذه الحقيقة.

٢ فبراير(شباط) ١٩٦٠

إني إذ أختتم اليوم، الأحد ٣٠ سبتمبر(أيلول) ١٩٦١، جولتي في توركوان، والهافر وروان، أصبحت أعلم الآن من مثّل هذه المسرحية أول مرة، وأمام أي جمهور، وبعد كم من المغامرات التي سأرويها في يوم جد قريب بكل دقة، لأنها تنطوي على عبرة طريفة عندما نتوق للضحك.

بعد صدور الكتاب والانتهاء من أعمال الطباعة، ما كنت أتوقع تلك الضجة الكبيرة، فالمسرحية ـ أي مسرحية ـ لا تثير اهتمام نقاد الأدب، والنقاد المسرحيون ينتظرون العرض. لذا فقد فوجئت بالمقالات الطويلة التي خصصتها صحف اليمين واليسار لمسرحية «شارع دوران»، ولقد تلقيت خطابات غير متوقعة حقاً. وفي سبيل إطلاع القارىء على نوعية هذه الخطابات أقدم له أحدها كعينة، وهو موجه من الأستاذ روبير دوبري.

٢ يونيو(حزيران) ١٩٦٠

السيد سالاكرو

أسمح لنفسي أن أكتب إليك هذه الرسالة دون سابق معرفة. لقد سمعت عندما كنت شابا بما قيل عن دوران، ومحاكمته، وبراءته. إن ذكريات كهذه لا تمحى ولقد احتفظت بها في داخلي وهاهي مسرحيتك تعرض لتلك المأساة، فإذا بي أشعر برغبة شديدة في أن أعبر لك عن تقديري وإعجابي بالموضوع الذي اخترته وبموهبتك الأدبية الفذة.

روبيردوبري

وكنت قد أرسلت نسخة من «شارع دوران» إلى السيد رئيس الجمهورية، فجاءتني رسالة من أمانة سره الخاصة تشير إلى استلام النسخة، وتخبرني أن سيادته سيشكرني بنفسه لاحقا.

كان سروري كبيراً، لكن رئيس الجمهورية سافر إلى الولايات المتحدة، ومن ثم إلى بريطانيا، ولدى عودته ذكرت الصحف أنه سيستريح الأحد والاثنين والثلاثاء في كولومبي لي دوزيكليز. ويوم الأربعاء وجدت في بريدي

مغلفا مكتوبا عليه بخط اليد: السيد آرمان سالاكرو، من أكاديمية جونكور. . . وإذ نظرت إلى ختم البريد تبين لي أن الرسالة قادمة من كولومبي لي دوزيكليز. . . فضضت الرسالة فإذا هي مرسلة من رئيس الجمهورية وبخط يده. ولكم أدهشني رجل الدولة هذا الذي يستريح وهو يقرأ كتاب أديب لا يعرفه، أديب ليس كاتبا رسميا إنما يريده أن يعرف وبخط يده أنه قرأ كتابه.

وفي نفس الأسبوع جاءتني رسالة أخرى من مصدر آخر وقد أثارتني بدورها:

«اتحاد نقابات العمال

في الهافر ومنطقة ساركل فرانكلين.

الهافر

السيد آرمان سالاكرو

خلال جلستها الأخيرة قامت اللجنة التنفيذية لاتحاد نقابات العمال في الهافر ومنطقة ساركل فرانكلين بتقييم كتابك «شارع دوران» ولئن أبدى البعض بعض التحفظات إلا أن كل الأعضاء الذين قرأوا عملك باهتمام بالغ قد امتدحوا بإجماع صدقه ونزاهته.

ولقد قرر الأعضاء أن يوجهوا إليك هذه الرسالة تعبيراً عن التقدير والشكر على كتابك الذي يعرّف الجمهور العريض بقضية اتخذتها الطبقة العمالية منذ خمسين عاماً رمزاً لها في كفاحها من أجل حقها في الحياة.

ونحن نتمنى أن تترك هذه المسرحية صفحات الكتاب إلى خشبة المسرح لتنال النجاح الذي تستحقه. . .».

أظن أنه لو جاءتني رسالــة من ورثة دوران ، أظن لو أن هؤلاء أقنعوني أني لم أحسن عرض قضيــة دوران ، وأن عمال الهافر لم يتعرفوا في مؤلفــي على آبائهم ، أظن بصــدق أني كنت أوقفــت محاولاتي من أجــل عرض« شــارع دوران» على خشبة المسرح .

بيد أن الطـريق كــان يبدو لي وقتها ســالكا ، وذلك بعــد أن تلقيت رســالة رئيس الجمهورية ورسالة ورثة دوران .

وهنا أذكــر أني بقيت لسنــوات أبحث عن وثــائق من أيــام دوران ، وأحاول الاتصال بأشخــاص عاصروه . كنت أسأل هــل ولد ابن جوليــا وجول دوران؟ هــل كان صبيــا أم بنتا؟ مــاذا حل بــه أو حل بها؟ لا أحــد كان بمقــدوره أن يجيبني . ومن هنا كان هذا الرد في المسرحية على لسان جوليا :

«جوليا : ابنه . ابنه . قد يكون بنتا!»

وذات يوم وإذ كنــت في سويسرا استلمت هذه الــرسالة وكانــت في الأصل موجهة إليّ على عنواني في الهافر :

١٠ يناير(كانون الثاني)١٩٦١

سيدي

لابد لي أولاً مــن أن أعرفك بنفسي : إني ابنــة جول دوران . لطالما شــاهدت والدتي ـ رحمها الله ـ تجهش بالبكــاء ، وأنت تدرك يا سيدي أن حياتها وحياتي قد تحطمتا . في صبــاي لم أشهد إلا الأحزان والدموع ، وما كنــت أسمع إلا نتفا من أحاديث .

إن جارة لنا لطيفة هي التي أخبرتني أني ابنة جول دوران الذي حكم عليه بالإعدام، فيما بعد فإن جدتي هي التي روت لي كل شيء عندما أصبحت صبية.

إني من مواليد ١٤ مارس (آذار) ١٩١١، شارع رينيار، مسكن ١٤. في هذا المكان أتى والدي لزيارتي، لكن للأسف كانت بوادر الجنون تلوح عليه.

أؤكد لك أن كتابك رائع، وعلى الرغم من أني لم أعرف والدي، فإنه يؤثر فيّ ويؤلمني كثيرا عندما أفكر كم قاسى وتعذب.

تأكد يا سيدي أنه لا من باب المنفعة ولا من باب التباهي أوجه إليك هذه الرسالة، بل فقط كي تعلم أن الطفل الذي كان يفترض به أن يولد في كتابك هو أنا، ابنة جوليا وجول دوران، طبعاً إن والدتي قد سمتني جوليبت تخليدا لذكرى والدي، لدي دفتر عائلة والدتي.

وتفضل يا سيدي بقبول فائق احترامي.

كان كتابي يقرأ بشكل خاص في الهافر، وروّان. وقد حضرت إليّ إحدى بنات من أدعوه بكابرون. كما التقيت أيضا شابا أخبرني أنه ابن الشرطي الذي كان يرافق جول دوران أثناء محاكمته. وذلك الشرطي قد أثر فيه جول دوران، والمحاكمة، والحكم بحيث حدّث ابنه عن كل ذلك بعد عشرين عاما. أخيرا، وخلال العروض الأولى تقدمت إليّ سيدة عجوز بيضاء الشعر، قالت لي إنها عرفت جول دوران، حيث كانت جارة له، وإني في مسرحيتي اختصرت النهاية، فجول دوران، لدى خروجه من السجن، جاء إلى الهافر حيث استقبل في المحطة من قبل كافة النقابات. إن لديها صورا عن وصول

جول دوران بقبعته المستديرة بين والده ووالدته، لكنه بدءاً من اليوم التالي ألقى بأثاث المنزل من النافذة، كما ازدادت نوباته، فكان لابد من نقله إلى مستشفى الأمراض النفسية.

هذا ومما أخبرتني به السيدة العجوز أن جول دوران خلال إحدى نوباته خنق بكلتا يديه حماماته التي كان يحبها كثيرا.

مازلت لا أعتبر نص «شارع دوران» نهائياً، فأنا خلال التدريبات على المسرحية أغير النص: إني أحذف، أبدّل، أحاول التخفيف. وهكذا دمجت في مشهد واحد (المشهد الثاني عشر) المشهدين القديمين: الثاني عشر والثالث عشر. كنت أود أن أحذف أكثر من ذلك، بيد أن المخرج أندريه رايباز كان يعارض كافة الاقتطاعات التي أقترحها.

إن قام يوما ما بعرض هذه المسرحية في باريس، فأنا آمل خلال التدريبات الجديدةأن أقوم بهذا العمل الضروري، والذي لا يمكن القيام به إلا لحظة خروج النص من الكتاب إلى أضواء المسرح، لحظة يتوقف المؤلف عن الإصغاء إلى صوته وكأنه في حلم، فيسمعه يتردد بين شخصيات تتحرك فجأة أمامه بحضورها المذهل.

وهنا أورد إليكم مقتطفات مما قالته الصحف الباريسية غداة الإعادة النهائية للمسرحية في الهافر:

في هذه المسرحية تبرزغنائية مصدرها الرؤية الداخلية والفهم الجواني، وتدعمها الرغبة الشديدة في التواصل مع الجمهور، لا عن طريق السهولة والاسترضاء أو التملق، بل بمخاطبة القلب والفهم.

لقد بقي المسرح الشعبي حلما لفترة طويلة، والبعض مازال ينكر إمكانية تحققه. لكن تواجدنا بين جمهور الهافر أكد لنا أن الحلم قد غدا حقيقة. ورغم قوة الذكريات، فإن «شارع دوران» ربما لم تكن بالنسبة للكثيرين سوى شارع من شوارع الهافر. بفضل سالاكرو ورايباز أصبح هذا الاسم يوحي الآن بالتلاقي بين كتاب وجمهور وعى أخيرا تاريخه.

آندريه ألتير

(تيموناناج كريتيان)

«بعيدا عن أن تبدو تبسيطية سخيفة أو ديماغوجية، فإن هذه السلسلة من الصور المؤثرة والحوارات العنيفة تفتت الأكباد.

من يدري إن كانت الأزمات الاجتماعية لا تشكل «في الوقت الحاضر» أفضل مادة مسرحية». (لوموند)

«عمل عظيم وحديث» (الأومانيته)

«أمسية عظيمة ورائعة» (الأورور)

«قلب سالاكرو. إنه إنما يستمر في الخفقان طوال هذه اللوحات الأربع عشرة، الأمر الذي يؤدي بالمسرحي إلى التخلي عن كثير من الفن كي يمجد الكثير من الحقيقة. وما يميز «شارع دوران» عن أي ميلودراماطبيعية*» هو صدق الوقائع. علينا أن نردد ذلك فنفهم لماذا لم يتردد سالاكرو في أن يواري أسلوبه الخاص خلف سذاجة وبراءة رسائل دوران».

لاكروا

---

* نسبة إلى المذهب الطبيعي.

«لقد شـاهدت في الهافر مسرحية «شـارع دوران» لمؤلفها آرمان سـالاكرو، هذه المسرحيـة التي يحوّم حولها منذ وقـت طويل وبحذر أشهـر مخرجينا، وإني واللـه مسرور جدا لحذرهـم، لأنه أتـاح لفـرقة حـديثـة من فـرقنا المسرحيـة، ولآندريه رايباز الذي يديرها، والـذي أخرج المسرحية أن يتصديا لعمل شعبي بحت، بسيط، وقاس، عمل قام بإنجـازه وبكل ثقة المسرحي سالاكرو، وهو يذكّـرنا بأن ممـارسة الفن المسرحـي تتضمن أيضـا الحق في التأثير فينا بـواسطة مشاعر كبيرة وطيبة».

(الفيجارو ليتريز)

الشخصيـــات

حسب تسلسل ظهورها على المسرح

القسم الأول

تمهيـــد

رجل

عامل أول

عامل ثان

عامل ثالث

كابرون

جول دوران

دوران الأب

جوليا : خليلة جول

المشهد الأول

عامل أول

جاستون بواييه

دولافيل

عامل رابع

عامل خامس

صاحب الحانة

المشهد الثاني

الشاب

الفتاة

لوك دوسيامان

أوليفييه بوجنهارت

إليزابيث دوسيا مان (ليز) زوجة لوك وشقيقة أوليفييه

روسيل

العمدة

مدير المدرسة

زوجة مدير المدرسة

كبير الخدم في الفندق

المشهد الثالث

والدة دوران

لويس بواييه

عامل (يلهث)

زوجة كابرون

المشهد الرابع

تاجر

تاجر آخر

المشهد الخامس

عامل مضرب أول

عامل مضرب ثان

عامل مضرب ثالث

عامل مضرب رابع

عامل مضرب خامس

عامل مضرب سادس

البقال

زوجة البقال

الجزار

زوجة الجزار

البرجوازي

زوجة البرجوازي

المشهد السادس

عاملان

المندوب

المشهد السابع

مضرب أول

مضرب ثان

مضرب ثالث

مضرب رابع

رجل أمن أول

رجل أمن ثان

رجل أمن ثالث

رئيس الأمن

القسم الثاني

المشهدان الثامن والتاسع

قاضي التحقيق

شرطي

أرجنتان (فحام)

ليفاك (فحام)

موران (فحام)

فحام آخر

المشهد العاشر

البحار

الصبي

شرطي أول

شرطي ثان

المشهدان الحادي عشر والثاني عشر

رئيس المحكمة

الآنسة لوساج

المحامي

المدعي العام

مساعدان (صامتان)

جنديان (صامتان)

الطبيب فوفال

المشهد الثالث عشر

حارس السجن

رسول

رسول ثان

مدير السجن

مدير مستشفى الأمراض العصبية

تدور الأحداث في الهافر، ثم في روّان، بين عامي ١٩١٠ ـ ١٩١٢ .

القســـم الأول

تمهيـــــد

(وسط الديكور المظلم للميناء يتقدم. . .)

رجل : قبل الحرب الكبرى بالتحديد شهـد رجال ونساء المأساة التي ستعرض أمامكـم لكنهم أصروا على إغلاق أعينهم وسـد آذانهم كي يعيشـوا في سـلام مـع ضمائرهم بـل إن بعضهم تظـاهر بـالنوم. لعلهـم كانـوا نائمين حقيقـة، يعيشون هكذا في أمان تام.

اليوم سيبعث من ماتوا. . .

(حول الـرجال عمال فحم يـرتدون سراويل مـن المخمل الأسـود، وسترات من الكتـان الأسـود وأغطية للـرأس، ويلفـون حبالاً حـول وسطهم الـذي نرى فيـه كلابـات حديدية للإمساك بـالأكياس من على الرصيف. أضواء خضراء وحمراء. منارة بيضاء تدور. صفارات سفن).

عامل أول : (مقـاطعـا الـرجـل). . . كـي ينطـرحـوا مـرة ثـانيـة في الساقية؟

عامل ثان : كي يسقط الله المطر على وجوهنا أيام العواصف؟

عامل ثالث : هذا سينظفنا.

عامل رابع : (كابرون) لقد سبق لي أن قضيت نحبي على أرض هذا الشارع، مهشم الرأس بأعقاب الأحذية، وتريدهم أن يعيدوا المجزرة مرة أخرى؟

العامل الأول : إني، (إلا عندما أكون مخمورا كالحمار)، لم أعلم أبدا ماذا جئت أفعل على وجه البسيطة، وتريدني أن أعيد الكرة؟

جول دوران : ألكي تخبرني عما يمكن أن تجديه صرخات ألم رجل وحيد محبوس في سجن قصي؟

الرجل : إنها لن تجدي شيئا، ما لم يسمعها كافة البشر. لكنها عندما تسمع . . .

العامل الأول : حثالة القوم وحدهم يسمعون تلك الصرخات، وهم إن سمعوها ابتهجوا! بل إنهم لهذا السبب يجعلوننا نصرخ! أما الآخرون، مرهفو الشعور الطيبون، فإنهم يسدون آذانهم.

والد دوران : (مخاطبا ابنه) أجل، يا بني، للمرة الثانية لن يقبل الخنازير أن يروا شيئاً، أن يسمعوا شيئاً.

جوليا : (امرأة شابة) ليسوا جميعا، يا جول، ليسوا جميعا!

جول : إذن، فسوف يقولون: «إنها حكاية عفا عليها الدهر» والمرء لا يبخل بشفقته ولا ببصيرته على جرائم الماضي فلكم يحب الناس العدل عندما ينظرون في جرائم الماضي! لكنني أعلم صمتهم أمام الآلام الراهنة التي يظنون أنهم أبرياء منها إذ يشيحون برؤوسهم عنها.

الرجل : وعليه فإن قصتك يا دوران، التي كانت حية، تعود إلى الحياة كل يوم وكل ساعة، في سائر أنحاء العالم، في حلل جديدة، في مدن أخرى، ومع وجوه جديدة. إن الذين عرفوك، منذ خمسين عاما، قادوك إلى الموت. وهاهم اليوم يمجدونك في المدينة حيث تعذبت، ثمة شارع يحمل اسمك «شارع دوران». إنهم يمجدون ذكراك في الوقت الذي يقودون فيه أناسا آخرين إلى الموت، أناسا سيمجد أبناؤنا بدورهم ذكراهم.

جول : أواه! تبدو لي المخلوقات الحية عالقة في شبكة مترامية من الوحشية . . .

الرجل : ونفس المصيبة تواصل طريقها بخطى وئيدة، ثابتة وكأنها لا نهاية للبؤس أبدا.

جوليا : لا! لا! يا جول، وحده حبنا لن يموت أبدا.

(الأنوار تغير المشهد)

المشهد الأول

(صوت صفارة سفينة. أنوار حمراء وخضراء تضيء. تسمع أصوات معدنية متواترة. نحن على رصيف الميناء، في الليـل، صفير حاد يمزق سكون الليل. وفي ضوء عمـود نور طـويل جدا، على يسـار المشهد، يخرج عمال مـن سفينة كانـوا يفرغون حمولتهـا، عن طريق السلـم. العمل انتهى. دولافيـل، رئيس عمال التفريغ، يراقب الخروج).

العامل الأول : (مخاطبا الثاني) اقترب، فأنا عطشان.

العامل الثاني : (وهو جاستون بواييه، من النقابة) لحظة، بحق السماء! أريد أن أنظر إلى ساعتي.

(يخرج ساعته ويضعها في دائرة الضوء) إنها الثامنة وعشر دقائق، يا سيد دولافيل!

دولافيل : لا أعجب لـذلك، فقد مضـت عشر دقائق وأنـا أصفر لكم إيذانا بانتهاء العمل.

جاستون بواييه : أنت تصفـر من مكتبك، أليس كـذلك، إيذانا بـانتهاء العمل. لذا نواصل نحن العمل في العنابر.

دولافيل : إنك لسـت في مكانـك هنا، مـن الخير لك أن تشتري حانوتا صغيرا، وتعمل لحسابك الخاص. (مخاطبا العمال الـذين خـرجوا) عنـدكم عمـل غـدا الساعـة السادسـة صباحا.

العامل الثالث : (كابرون) غدا الأحد!

دولافيل : أظن ذلك سيحرمك من الذهاب إلى الكنيسة ومن تناول القربان.

جاستون بواييه : (بجفاء) كلا، لكن يوم الأحد، الأجر مضاعف.

دولافيل : أيتعبك أكثر أن تعمل يوم الأحد؟ وكيف تعرف أنه الأحد؟ بواسطة التقويم؟

حسنا، غيّر التقويم، فيصبح غدا الاثنين. ثم، أتظن السفينة تعرف إن كان ذلك الأحد أو الاثنين؟ عليها أن تغادر «السفينة»، ينبغي لك ــ أنت الذي ولدت على رصيف الميناء ـ أن تعلم أن المد لا ينتظر.

جاستون بواييه : ولا النقابة، وهي تطالب . . .

دولافيل : اصغ إلي، يا جاستون، إن كان لديك سرير، غدا صباحاً، ابق فيه ونم حتى ساعة متأخرة.

لن أحتاج إليك غدا، لن أحتاجك أبدا بعد الآن، في مجموعتي.

أنت تتكلم كثيرا، وأنا لا أحب الخطباء (يخاطب كابرون) وأنت أبلغت من العمر حداً يسمح لك أن تعرف وحدك ما يتوجب عليك عمله؟ أو يلزمك أنت أيضا نقابة تعلمك كيف تسير؟

العامل الرابع : وأنت أيضا، كفى كلاما، إنك تشعرني بالعطش.

العامل الخامس : بكل هذه القذارة التي تدخل أفواهنا . . .

العامل الأول : هذا لا ينتهي أبدا! حتى عندما تكون نائما، فأنت تحلم به حينما تستلقي في سريرك، تراك بدلا من أن تفكر في أي شيء آخر، تستمر في ابتلاع الفحم.

(دولافيل قد ابتعد)

العامل الرابع : القذرون! سنعمل غدا!

جاستون بواييه : إن منحونا أجرا مضاعفا. وإلا فعن طريق النقابة...

كابرون : أنا سيد نفسي. لا أحد سيأمرني.

جاستون بواييه : ولا النقابة أيضا؟

كابرون : تأمرني عندما يروق لي أن تأمرني، وعندما لا يروق لي ذلك، أنام!

العامل الأول : (مخاطبا بواييه) في باريس كانوا يستعدون لنسف مكتب الرئيس وبعد أن استعدوا لذلك، وفي اللحظة التي كانوا سينسفون فيها كل شيء، حضر رجال الشرطة بسراويلهم الحمراء، أما رفاقك ـ إنهم لا يزالون يبحثون عن رفاقك ـ لا أحد يعلم مقرهم! لعلك تعرفه أنت يا جاستون؟

(ضحكات. تظهر حانة مائلة للخضرة، يقف صاحب الحانة أمام بابه).

جاستون بواييه : في مواجهة البنادق، على المرء أحيانا أن يعرف كيف ينتظر...

العامل الرابع : ماذا ينتظر؟

جاستون بوابيه : . . . ينتظر اليوم الذي ستقرر فيه الطبقة العاملة عدم الانتظار.

كابرون : ستخبرنا يومئذ ألاّ نفوّت المشهد.

صاحب الحانة : هل انتهيتم من العمل، أيها الشبان؟

كابرون : كلا! عندنا عمل غداً!

صاحب الحانة : عظيم! النقود ستأتي إذاً! لنحتفل بذلك!

جاستون بوابيه : لا، أيها الشباب! هناك اجتماع هذا المساء في قاعة فرانكلين، الساعة التاسعة.

العامل الأول : يا له من مهذار!

العامل الثاني : لقد انتهى يومنا.

العامل الخامس : نقولها لك مرة أخرى، هذا الأمر لا يعنينا في شيء.

صاحب الحانة : الدورة الأولى من الأقداح على حساب المحل.

جاستون بوابيه : ألم تشرب بما فيه الكفاية وسط هباب الفحم، منذ هذا الصباح؟ لقد كرع كل منا أربعة ليترات. ما عدنا نطيق الشراب.

صاحب الحانة : ما دخلك أنت أيها المتدين؟ ألا تريد أن يعيش الناس؟

جاستون بوابيه : أو تظن أن خمرك تجعلهم يعيشون؟

صاحب الحانة : بل قل إنها مسمومة. هيا ادخلوا أيها الشباب!

(تختفي واجهة الحانة. ينتقل صاحب الحانة خلف مشربه الذي اصطفت فوقه أكواب المشروب الخضراء المترعة).

العامل الأول : (مخاطبا بوابيه) اصغ إلي، سأخبرك بشيء حسن، إنما اصغ إلي جيدا...

كابرون : (مخاطبا بوابيه) ألن، ألن تدخل؟

جاستون بوابيه : لا، هناك اجتماع في قاعة فرانكلين.

العامل الخامس : (بلطف)هيا ادخل، المشروب على حساب صاحب الحانة.

جاستون بوابيه : حاولوا أن تأتوا هذا المساء، إنما في كافة الأحوال سأحضر غدا صباحا.

(يغادر في عتمة الليل)

كابرون : لا عليك، اعتمد علينا!

صاحب الحانة : نقابته، إنما هي من أجل سرقة أموالكم!

العامل الأول : كان الأولى بنا أن نضربه.

صاحب الحانة : وكأني بكم بحاجة إلى أن أشرح لكم...

العامل الرابع : . . تشرح لنا ماذا؟

صاحب الحانة : ما علينا، ألم يترك المدرسة في الثانية عشرة من عمره؟

العامل الرابع : يا معلم، املأ الأقداح، إنها دورتي.

كابرون : اجعل دورتي مع دورته. كأسان دفعة واحدة! إننا رجال! هاك نقودي. إنها من عرق جبيني!

العامل الرابع : (يكرع الكأسين الواحدة إثر الأخرى)

هذا يلطف أجواء المعدة!

العامل الأول : إذن فسيبدأ التنغيم(*) فتروي لنا مرة أخرى حكاية شارلوت.

(العامل الرابع ينظر إلى الأول. صمت)

العامل الرابع : (غاضبا) ماذا قلت؟

صاحب الحانة : (مخاطبا الأول) دعه يتكلم على راحته. لا تستبق الأمور. . .

العامل الخامس : (مقاطعا) إنها دورتي الآن، يا معلم.

العامل الأول : (مخاطبا الرابع) نخبك! هيا ارو لنا بسرعة حكاية شارلوت، لنذهب وننام. (يخاطب الخامس) ألا تعلم بعد بحكاية سكرته الشديدة؟ لله كم كان مخموراً، أليس كذلك يا معلم؟ لم أر مثيلا لها بعد ذلك!

صاحب الحانة : حفلة حقيقية! وكأنك في السيرك!

---

* أي ستنفك عقدة لسانك.

العامل الرابع : قذر! قذر! (يبكي)

كابرون : (يرن نقوده على المشرب) املأ الأقداح، يا معلم!

العامل الأول : سكـــران، أجـــل سكران! في بعض الليـالي - إنه أمـــر لا يصدق - يتــراءى لي مشهـــــدك، فأستيقـــظ لفرط ما أضحك.

العامل الخامس : من هي شارلوت هذه؟

صاحب الحانة : خادمة عنـد السيد العمدة. كانت تريـد الزواج به(*) عنـدها قـام العمدة إكـراما لخادمتـه بإدخـاله في شرطـة المحافظة.

العامل الخامس : (إلى الرابع)أكنت شرطياً؟(**)

صاحب الحانة : (ضاحكا) هو الذي كان يـراقب الحي، في بزته الرسمية وقبعته العسكرية.

العامل الرابع : اللعنة عليكم جميعا، ألن تتركوني وشأني؟

العامل الخامس : أحضر دورة أخـرى مـن المشروب، يا معلـم! (يخاطـب الرابع) وبعد؟

كابرون : وبعد؟ أقول لك إني سأنام هنا!

* بالعامل الرابع.
** الكلمة الفرنسية تنطوي على التحقير.

صاحب الحانة : كلا. لديك منزل، عد إلى زوجتك وأطفالك.

كابرون : أقول إني مازلت سيد نفسي. (يلقي بعض القطع النقدية على المشرب) أعطيني كأسين، لي وحدي فقط. من يأمرني لم يولد بعد!

العامل الرابع : الكل كانوا يسكرونني كيلا أكتب عنهم تقارير!

صاحب الحانة : ما كانوا يسكرونك، كانوا يقدمون إليك المقبل.(*)

العامل الرابع : .. من غير أن يسألوني قط عن لون عملتي!

صاحب الحانة : (مخاطبا كابرون وقد راح يتمدد على المقعد المنجد) ليس فوق المقعد! تحته! فلا تشغل مكانا.

(يتمدد كابرون على أرض الحانة)

العامل الرابع : لقد شربت في تلك الليلة فوق طاقتي!

العامل الأول : (إلى الخامس) أو تعرف أين وجدناه! في الجدول! وأزرار بزته تلمع تحت عمود النور. ثم إنه يشخر مثل صفارة سفينة.

العامل الرابع : أوغاد! أوغاد!

صاحب الحانة : (مقهقها) عندها وضعناه في عربة جر، القبعة العسكرية على وجهه، وطفنا به في الحي كله، من شارع إلى شارع، حتى باب مفوض الشرطة.

العامل الخامس : في عربة جر؟ الشرطي؟ مثل كومة من القمامة؟ ها! ها!

العامل الأول : أما نحن فكنا نسير خلف العربة، نضرب على حلل حتى وصلنا، يا ليتك شاهدت وجه مفوض الشرطة!

---

* مشروب فاتح للشهية يؤخذ قبيل الطعام.

العامل الرابع : (يبعد الكؤوس بعصبية) هذا المساء، وجهك أنت الذي سأهتم به.

صاحب الحانة : كفى. حان وقت الإغلاق.

العامل الرابع : (إلى صاحب الحانة) قبل ذلك، اخرج من خلف مشربك، أيها الحمار!

(الأول والثاني يمسكان بالرابع)

العامل الخامس : وماذا حل بشارلوت؟

العامل الأول : بسبب العربة تزوجت غيره.

العامل الرابع : (لصاحب الحانة) هذا المساء ليست شارلوت هي التي ستمنعني من أن أكسر رأسك (ثم يتهالك وهو يجهش بالبكاء)

العامل الأول : كأساً أخيرة، يا معلم.

صاحب الحانة : أرني نقودك.

العامل الأول : (ما عاد لديه نقود) مادام غداً الأحد فالأجرة مضاعفة...

صاحب الحانة : إذن تأتي غدا فتشرب مضاعفا. أما هذا المساء فأنا أغلق المحل.

العامل الخامس : (الأول) أتثق بالأجر المضاعف؟

صاحب الحانة : سيرفضون ذلك، لا لسبب إلا لإزعاج النقابة.

العامل الأول : أتعني أننا بلا نقابة، كنا سنحصل على الأجر المضاعف؟

صاحب الحانة : هيا سأغلق.

العامل الأول : أو تلقي بنا خارجا، تحت المطر؟

صاحب الحانة : هناك عربات مغطاة، على الرصيف.

العامل الرابع : (وقد جلس) وعندما رأيت شارلوت، فيما بعد كانت تبكي، كانت خجلة. (بهدوء) دعني أصفعه.

العامل الأول : غداً! غداً! هيا اذهب للنوم.

(يخرجون)

كابرون : (وقد أيقظه صاحب الحانة) ماذا أفعل هنا؟

صاحب الحانة : عندما تعلم ذلك، أخبرني، وريثما يتم ذلك، تفضل من غير مطرود.

كابرون : ماذا أفعل هنا بحق السماء؟

صاحب الحانة : سواء أكنت هنا أم في مكان آخر.. . أولاً لك زوجة، لك أولاد، عد إلى منزلك.

كابرون : (ينهض) إلى منزلي؟ ماذا عساي أفعل هناك؟

صاحب الحانة : حسناً، نم في الحي، على الأرصفة مكان يسع الكل.

(يبقى كابرون وحده. الحانة التي نرى واجهتها ثانية تبتعد وتنطفىء على مهل).

كابرون : (في الخارج) إنها تمطر مثل بقرة تبول!

(الثلاثة الآخرون قد تمددوا على الأرض، وراحوا يستعدون للنوم).

العامل الرابع : كان ينبغي أن أصفعه.

العامل الأول : اصمت يا أبا العربة! بإمكانك أن تجعلنا نصاب بنزلة صدرية!

العامل الخامس : لو كان بإمكاننا أن نصاب بنزلة صدرية، لمتنا منذ سنوات.

كابرون : (وقد جاء إليهم) افسح قليلا، فأتمدد.

العامل الخامس : لعنة الله على هذه الحياة!

العامل الأول : وكأني بنا قتلنا أبانا وأمنا!

العامل الرابع : حتماً ليس أنا، لم يكن لي أبداً أب وأم. لقد أتيت إلى الدنيا وحدي. ذات يوم، إذ كنت صغيراً، تلقيت ركلة في مؤخرتي. على هذه الحال صادفت نفسي وأنا أفرك إليتي.

العامل الأول : وشارلوتك؟

العامل الرابع : اسكت إنك تحرك الرماد.

العامل الخامس : وعندما نفكر أن هؤلاء الإنكليز الأوغاد يمكنهم أن يحتفظوا بفحمهم عندهم.

(على الصوت المدروس لصفارة سفينة يعزف لحن الفالس الشهير «الأرملة المرحة». الأضواء تغير الديكور)

المشهد الثاني

(في الهافر، ٢٣ أغسطس(آب) ١٩١٠ . في منزل عائلة بوجنهارت . فيلا كبيرة على التل . بعد الظهر. شمس جميلة، أزهار، أشجار، يرى البحر من بعيد عندما نسمع الموسيقى يخيل إلينا أحيانا أننا نرى أناساً يرقصون . تقيم أسرة بوجنهارت حفلا راقصاً في الحديقة يخصص ريعه لمكافحة تعاطي المسكرات . نحن في الحديقة الشتوية التي تمتد عبر شرفة إلى الحديقة الصيفية . يدخل لوك وأوليفييه) .

لوك : لا تظنني قمت بمكاشفتك من باب التخاذل أو الميل لاستدرار العطف . لا أحسبني جبانا وأنا أكره استدرار العطف . لقد أطلعتك على قرار نهائي . . .

أوليفييه : نهائي! نهائي!

لوك : ولا أريد أن أشارك أحدا في مسئولية هذا القرار. صدقني، ما كنت أخبرتك بشيء، لو لم أكن بحاجة إليك . . .

أوليفييه : بعد قرار مثل هذا ماذا عساك تحتاج؟

لوك : أحتاج إليك من أجل الإجراءات الأخيرة عقب موتي، بعد غد، في لندن .

أوليفييه : لكن يا لوك من المستحيل أن . . .

(تدخل إليزابيث، وهي امرأة شابة جميلة جدا وفارغة الرأس. إنها زوجة لوك، وشقيقة أوليفييه).

ليز : وهذان السيدان يتسامران وحدهما! إنها الطامة الكبرى! بين أخي وزوجي أراني محظوظة جداً! إنكما لسمجان!

أوليفييه : عزيزتي ليز...

ليز : أتتركاني هكذا وسط هذه الغوغاء! عندما طلبتما مني أن أنظم هذا الحفل الخيري لصالح مبراتكما التي تكافح تعاطي المسكرات...

لوك : إنها مبرات أنت رئيستها، يا ليز...

ليز : إني أقدم استقالتي (حركة من أوليفييه) حسناً تعال شاهد أناقة مدعوينا. صحيح إنهم يتبرعون، لكنها سوق عكاظ، لقد تناول تاجر من حي سان فرانسوا يدي ليضع فيها قطعة نقود من فئة المئة قرش «أيضا من أجل مبرتك، ولي الفضل، أنا صاحب الحانة، أن أعطيك نقودي، أليس كذلك؟ لكني من أجل عينيك الجميلتين مستعد أن أدفع أكثر من ذلك» وأضاف: «وأنا الذي أتيت كي أبتهج وأتسلى، أضف إلى هذا أن السيد روسيل يتبعني مثل التوتو(*). (تخاطب زوجها) أقسم أنك دفعت له نقوداً كي يحرمني من الرقص مع مدعويك. لتخال نفسك نازلاً من قطار أو واصلاً إلى محطة.

---

* التوتو: كلب.

لوك : روسيل ليس لي. إنه لأوليفييه.

أوليفييه : إنه ممتاز، روسيل هذا.

ليز : أجل، بوجهه الذي يشبه شاهد زور!

أوليفييه : كلا والله! إنه ليس ساذجاً.

ليز : لقد كان كذلك حتماً. لأنه علاوة على ذلك له وجه شاهد زور كاثوليكي. فشاهدو الزور الكاثوليكيون لهم خسة في نظرتهم ورخاوة في فمهم.. أما عندنا فالأشخاص السيئون يخفون نواياهم بشكل أفضل. إن فيهم تصلبا، والبروتستانتي ليس أبدا جد حقير. إنها هذا التهاون، هذا الخمول، هذا التملق، وهذه الدماثة...

لوك : أريد أن أستشير أخاك في أمر، ياليز. فهل لك أن تتركينا خمس دقائق أخرى؟

ليز : صوتك حزين، يا لوك.

لوك : لماذا هو حزين، يا هل ترى؟ ما رأيتك أبداً على هذا القدر من الجمال...

(يدخل روسيل)

روسيل : يطلبونك، يا سيدتي (يحيي أوليفييه) مرحباً سيدي الرئيس (مخاطباً لوك) وحفلك الخيري سوق عكاظ.

ليز : هذا ما كنت أقوله لخمس دقائق مضت (تخاطب الرجلين) اسمعا إن لم تلحقا بي كلاكما بعد خمس دقائق

فسوف أرقص مع بائع خمر حي سان فرانسوا، وأقبض منه عشرة فرنكات، مثل فتيات حيه.

روسيل : حقا؟ أترقصين مقابل عشرة فرنكات؟

ليز : نعم واتبعني، يا عزيزي روسيل كي تقدم تقريرك.

روسيل : (مذهولا) أي تقرير؟

(تقهقه ضاحكة. يخرجان)

لوك : حقاً إن وجهه كدر.

أوليفييه : إنه يتناسب مع عمله. أن يجعل ثمانمئة عامل مرفأ، ثلاثة أرباعهم مخمورون قبل مباشرة العمل، يعملون أيام يكون ذلك ضروريا...

لوك : (يقهقه) أتركك على الأرض مع همومك الغريبة! منذ أن اتخذت قراري فإن كل شيء يبدو لي تافها! وبعبارة أخرى أنا في حالة انسلاخ، الهموم الصغيرة اليومية ما عادت تعلق بجلدي. إني أشعر بنفسي خفيفا. وكأني أخيرا في آخر يوم لي، سأدرك السعادة الحقيقية على الأرض.

أوليفييه : لكن قبل استسلامك للكارثة، هل أنت متأكد أنك تفحصت جميع المخارج؟

لوك : لماذا هذا الهذر؟ أتريد حقا أن أؤكد لك أن جميع المخارج مغلقة في وجهي، مغلقة تماما؟ إذا، إليك ما أنتظره منك...

أوليفييه : (بعصبيته) إننا نعيش كابوسا! لا يمكنني أن أدعك تسير إلى الموت دون أن أمنعك...

لوك : (مقاطعاً) لو كنت مكاني لاتخذت القرار الذي اتخذته.

أوليفييه : اسمع، يا لوك...

لوك : انظر في عيني، يا أوليفييه! لو كنت مكاني لاتخذت القرار الذي اتخذته. (ينكس أوليفييه رأسه) علينا ألاّ نغش، وكفى كلاما في هذا الموضوع.

أوليفييه : لكن أصدقاءنا...

لوك : الكارثة تتجاوز مخاوف أصدقائنا.

أوليفييه : لكن هب أن كل أصدقائنا...

لوك : لو أنهم جميعا ـ وأنا أعلم أن أحداً لن يتأخر ـ جاءوا لنجدتي لما عدلت عن قراري، ولفضلت أن أفقدهم. عندما يعرف كل شيء فلن يدهش موتي أحد، ولسوف يحبذون كتماني.

أتراني أول شخص في هذه المدينة، ومن بين كبار أثريائها، أشهر إفلاسه من المقبرة؟ سأغادر اليوم على السفينة الذاهبة إلى ساوث هامبتون. وغدا أكون في فندق براونز، الغرفة ١٧ التي حجزتها أمس برقيا.

مساء الاثنين سأنام. تعال ظهر يوم الثلاثاء. ستجدني قد توفيت بالجلطة. تعال برفقة الكاهن، فهو يرغب منذ أمد في زيارة لندن. سيساعدك في إجراءات الدفن، وربما جنبنا تشريح الجثة. لا جدوى من قول الحقيقة لليز، فقد تسبب لها الأسى... لا داعي لذلك، فقلبها رهيف.

(تدخل ليز والعمدة، يتبعهما روسيل)

ليز : (لزوجها) يا بن عمي، لقد تفضل السيد العمدة بالمجيء ليزيد بحضوره من رونق حفلنا، وهو يرغب في تحيتك.

العمدة : أجل، دعني أهنئك، يا سيد دي سيمنز، دون أن أنسى السيدة زوجتك، على الدعم الذي تقدمه إلى مبراتنا التي تكافح تعاطي المسكرات، أنت والسيد بوجنهارت.

روسيل : يعلم السيد العمدة أنه في سان فرانسوا، في الجزيرة توجد حانة، ليس في أسفل كل بيت فحسب بل في الطوابق...

ليز : بالنسبة لي، إن صعدت السلالم فسيكون ذلك كيلا أشرب هذا الافسنتين ذا الرائحة القوية...

العمدة : إن عمل هؤلاء الرجال شاق جدا، يا سيدتي، وهم قلما يمتلكون وسائل لهو في منازلهم البائسة.

ليز : لكن ألن يستطيعوا، بما سيدخرونه من مال عندما يقلعون عن الخمر، أن يجعلوا منازلهم أكثر إيناسا؟

العمدة : أعرف هؤلاء الرجال يا سيدتي، إن لهم عذرهم.

روسيل : أنا أيضا أعرفهم، ثلاثة أرباعهم بهائم...

العمدة : هل من السهل يا سيدي أن ينجو المرء من بهيمية الفاقة؟

روسيل : ... عندما لا يكونون مجرمين فارين!

العمدة : (كي يغير مجرى الحديث، برقة بالغة) أجل، حتى إنهم ليسوا بناخبين، كما ترى يا سيد روسيل.

أوليفييه : سيدي العمدة، إني واثق من إنسانيتك بحيث لن يتبادر إلى ذهني أنك تـدافع عن هؤلاء الناس، الـذين يبدو أن الله قد تخلّى عنهم، لأسباب انتخابية .

روسيل : وبخاصة أننـا نعلم كيف يقترع الذين مـازال لديهم حق الاقتراع، يوم الانتخاب للمرشح الـذي يدفع أكثر! إنهم يـأتون في طـابور يتقـدمهم رئيـس يضع في يـد الناخـب القسيمة ومئة قرش في آن واحد.

العمدة : أعلم، أعلـم، بل إني أعلم، مثلك تقـريبا، من يـدفع إليهم كي يقترعوا ضدي .

أوليفييه : لا، يـا سيـدي العمـدة، ليس ضـدك، بـل مـن أجـل مرشحنا .

روسيل : إن تفريغ الفحم وسط هباب لـزج يضطر العامل المجهد لابتلاعه، إنه عمل شـاق. والسيد الرئيس(*) كـان أول من أقر بذلك وأول من سعـى إلى تجريب آلة أوتوماتيكية ستـوفر علينـا ١٥٠ رجـلاً دفعـة واحدة. لـذا فنحـن سنضطر، يا سيدي العمدة إلى طلـب معونة الشرطة من أجل هذه الآلة التي يريد العمال تحطيمها .

العمدة : لعلهم مازالـوا بحاجة إلى الطعام، أولئك الذيـن ستأخذ آلتكم مكانهم؟

أوليفييه : سيدي العمدة، أنـت تدير مؤسسة خـاصة تصنع الأرز الـذي يأتينـا مـن الهند الصينيـة. وأعلـم أنك بعـد أن تستخـدم عمالك طـوال الأسبوع تفكـر فيهـم أيضا يـوم الأحد، وفي أسرهـم وأولادهـم . . .

---

* أي أوليفييه .

العمدة : نعم وهذا الاهتمام بسعادتهم يشعرني براحة كبيرة.

أوليفييه : (بجفاء) إني لن أطيق مثل هذا الاهتمام!

العمدة : لا أفهم.

أوليفييه : قد أصاب بدوار؟

العمدة : أي دوار؟

أوليفييه : عندما تكون الريح طيبة، لا أشكر الريح. عندما تؤخر العاصفة سفني لا تبدو لي بجمال لـوحة رومانسية. فهي ليست جميلـة ولا قبيحة. وأنا لا أطلب مـن عمالي صورة يوم زفافهم.

روسيل : علينا أن ننقـل أطنانـاً من البضـائع، وأن نستلم ونـوزع أطناناً أخرى من الفحم. عندنا مواقيت يجب احترامها، هناك معـدلات يجب التقيد بها ونحـن لسنا مسئـولين إلا أمام أرقام.

أوليفييه : وإذا ما بـرز لأرقامـي المصفوفـة ـ منتصبـة في أعمدتها ـ عيون وأنوف وأفواه ونظرة، فبـدت لي فجأة في هيئة رجل له روح... فإن مع هذه الحرارة الإنسانيـة التي تتولد من جمعهـم وطـرحهـم، ستتراقــص في رأسي وتحرقنـي مثـل شياطين لوحة «الجحيم» لبروجيل.

روسيل : إذا ما توقفنا عن النظـر إلى عمالنا على أنهم آلات، حولتنا حوادث العمل إلى مجرمين أرباحهم ملطخة بالدماء. في كل إنسان، عـاملاً كان أم رب عمل، قـدر وآلة. وهذه

الآلة، يا ليتك تعلم الطريقة التي تجبرنا بها المنافسة على استخدامها ومعاملتها! مثل كومة حديد! أجل يا سيدي العمدة، مثل كومة حديد. ثم إنه إذا ما نشبت الحرب غدا بين ألمانيا وفرنسا، فهل يسأل القائد جنوده كم ولدا لدى كل منهم، وكم يحبون زوجاتهم؟ في رأسه فكرة واحدة، لا غير. أن يربح المعركة بجنوده ومدافعه و إذا بجنوده يغدون أرقاما، آليات، مدافع.

العمدة : لكن، يا سيد روسيل، دعني أقل لك إن أحداً لا يبكي من أجل موت مدفع.

لوك : لماذا نبكي الأموات؟ إنهم ما عادوا في خطر. الأولى بنا أن نخاف على الأحياء.

أوليفييه : أصبت يا لوك، فنحن لم نخلق لنكون سعداء، بل لنحاول أن نفوز، ونحن نتقلب بين الرعب والأمل، بخلاصنا الفردي.

العمدة : لماذا إذن هذا التصميم العنيد على تنمية شركتك على صعيد، ربما عالمي، لكنه لن يكون بمقدوره أن يكون شاملاً و أبدياً؟

أوليفييه : لقد خلقني الله في هذا البلد وهذه المدينة، ووضعني بنجاحاتي البحرية في مركز قدره لي فلا يمكنني أن أرفضه. مادام الله يطلب مني أن أشغل هذا المكان فأنا مسئول، دون أي تحفظ مهما كان نوعه، عن تنمية شركاتي من أجل عظمة بلدي وازدهار مدينتي.

العمدة : وهذا ما نشكرك عليه كل الشكر، يا سيدي الرئيس، كما نشكر السيد والسيدة دي سيمنز على هذا الحفل الظريف معتذرين لكم عن هذا الحديث الذي لا يتناسب كثيرا مع رقصات فالس حالمة.

ليز : أعشق الاستماع إلى الأحاديث التي لا أفهمها. إني أسر بها مثل طفلة أجلست يوم عيد ميلادها إلى مائدة الكبار. (تحيات) سأرافقك، يا سيدي العمدة، واتبعني يا عزيزي روسيل.

(يخرجون)

أوليفييه : لم يثر هذا البكاء الخبيث أعصابي أبدا مثل هذه المرة.

لوك : (بمرح) لقد أضحكني اليوم.

أوليفييه : كيف تريدني أن أضحك، أنا الذي سأبقى وحدي؟ كم ستكون الآن ساعات وسنوات حياتي بطيئة. لكن كيف، بحق السماء، تركت نفسك تعلق في مثل هذا الإعصار.

لوك : إن الإعصار الذي يهم بابتلاعي سيبتلع آخرين. لقد أثيرت هذه الزوبعة، في الجهة المقابلة، على الطرف الآخر من البحيرة. هبوط الأسعار مصطنع، إن بورصتنا هي التي نالوا منها ويريدون تحطيمها. بعد القطن سيأتي دور البن. لست سوى الضحية الأولى. ستشاهد أنت الآخرين. قبل مضي خمس سنوات ستكون نيويورك الرابحة. لن يشترى بعد الآن، ولن يباع عندنا كل بن

وقطن العـالم، بل عنـدهم فتغـدو بورصتنـا متحفا. أن ألقـي في حفرة لاقـرار لها بـائنة إليـزابيـث، لن يفيـد في شيء. احتفظ أيضا بمجوهراتها التـي ورثتها عن أمك. لديك بنت، لتكن لها فيها بعد. لا تسلم مأمور التفليس إلا المجوهرات التي اشتريتها بنفسي.

أوليفييه : دون أن أستطيع أن أمد إليك يد المساعدة!

لوك : احتفـظ بهذه الجملـة فـاعطهـا إلى بحـار أو إلى أحــد صيادينا، يـوم عاصفة. هم أيضا لا يمكنهـم أحيانا أن ينجدوا بعضهم بعضا أو بـالأحرى إنهم يمدون أيديهم، لكن ما عاد بمقدور الأيدي أن تتشابك. لقد كافحت، ليس مـن أجلي، فأنا كنت ثـريا كما تعلم، بحيـث كان بمقدوري أن أعيش دون أن أفعل شيئـا، لكن ثمة فكرة كانت تـدفعني، فكرتي عن أهمية موقعنـا، وبورصتنا في العـالم. لقـد راهنـت، لقـد ابتلعتنـي الـزوبعـة، لقـد خسرت، لا يهم موت رجل، كان بإمكاني أن أفوز، وهذا الفـوز الذي يفلـت مني، أمـا كان حـريا أن يبرر جميـع المخاطر التي ركبتها.

أوليفييه : أما تخشى أن يستنكر الله هذا الانتحار؟

لوك : أتراني أستطيـع أن أفعل شيئـا آخر. لقـد عشت على هـذه الأرض في مهنة معقدة وصعبـة، كلها مخاطر، مهنة مـا كان بوسعـي أن أرفضها. يجب أن أضـع حدا للمغـامرة. منـذ

هنيهة تكلم أحدهم عن حوادث العمل، ولقد كان على حق. لكن ما يجوز على عمالنا يجوز علينا. بل إنه مبررنا الوحيد. مثل أدنى عامل أموت في حادث عمل. وهذا لا علاقة له بالإنسان وبروحه. لو شاء الله أن أستمر، ألا تظن أنه كان يسر لي ذلك. في غرفة الفندق في لندن، لن يموت سوى تاجر مفلس، لن يستطيع الله أن يلومني على انتحار غير موجود. ليست الروح التي وهبني إياها التي أتمنى قتلها، إني أترك التجارة فحسب.

(يبتعدان. صخب، يندفع شاب وفتاة داخلين، في أيديهما قضيبا ديابولو(*)، ويتبعهما مدير الثانوية وزوجته)

الشاب : (يشير إلى نقطة في السماء) من هنا، يا سيدي المدير، انظر، هاهو. .

زوجة مدير المدرسة : (محيية) مرحباً أيها السادة.

الفتاة : يابن عمي لوك، ألا أجد عندك منظارا.

مدير المدرسة : إني مذهول. (يحيي) أعتذر، أيها السادة، من اندفاعي، تحت تأثير الاستغراب. . .

الشاب : إنه ابن عمي!

مدير المدرسة : هناك، في السماء، وحده في السماء؟

(*) ديا بولو: لعبة من ألعاب الأولاد تتألف من بكرة قوامها؛ مخروطان متقابلان بر أسيهما؛، ومن قضيبين موصولين بخيط يشد تحت البكرة لقذفها والتقاطها.

زوجة مدير المدرسة : وفوق الماء! رباه، إنه علاوة على ذلك معرض للغرق!

مدير المدرسة : لقد توقعت صحف هذا الصباح محاولته.

الشاب : أمس، في منزل جدي، قال: «إن كان الجو جميلا غدا، فسوف أحاول القفز من فوق مصب النهر».

مدير المدرسة : إلا أن هـذا الفتى لا يفقـه كلمـة لاتينية واحـدة. لحن! عجمة! إضافة إلى عدم مبالاة بـالأخطاء! وها هو يظهر رباطة جأش عظيمة.

(تدخل ليز، يتبعها روسيل)

ليز : إن هوبار رائع.

مدير المدرسة : هذا أمر بسيط للغاية، إنه إيكاروس، إيكاروس(*)!

زوجة مدير المدرسة : إيكاروس! إذن فسيموت.

مدير المدرسة : كلا! إنه إيكاروس منتصراً!

(صيحات : «عاش لا تام!» ومقاطع من نشيد المارسيلييز)

أوليفييه : (لليز) أمازال السيد العمدة بيننا؟

ليز : لقـد انسـل خـارجـا منـذ هنيهـة، لكـي يـرأس اجتماع الطيران.

أوليفييه : كان يسعدني أن أقدم إليه صديقنا وهو في السماء!

* ايكاروس: ابن ديدالوس، المهندس اليوناني باني متاهة جزيرة كريت، وقد فر معه من هذه المتاهة بواسطة جناحين معلقين بـواسطة الشمع، لكنه اقترب كثيراً من الشمس فـذاب الشمع وانفصل الجناحان فسقط في البحر.

زوجة مدير المدرسة : (بإعجاب) رباه، كيف لا يخاف، وهو وحده في الأعالي؟

ليز : أوه! إني أعرفه! هو خائف! وإلا لما ذهب!

زوجة مدير المدرسة : (التي لم تفهم) حقا إنه لفتى غريب الأطوار!

مدير المدرسة : لم يكن يحب فيرجيل(*)، ولا يفهم هوراس(**)، وسيزار(***) كان يضجره، وأنا اليوم مستعد أن أتخلى عن كل لاتينيتي لأكون مكانه.

زوجة مدير المدرسة : أنت، لكنك لا تحب أن تخاف، لأنك عندما تخاف، تخاف!

ليز : قال هوبار أمس إنه فشل العام الماضي في عبور المانش، لكنه سينجح في ذلك هذا العام.

زوجة مدير المدرسة : عبور المانش؟

الفتاة : ولسوف ينجح!

زوجة مدير المدرسة : من فرنسا إلى بريطانيا عبر الغيوم؟

مدير المدرسة : إننا على أبواب بدع مدهشة.

روسيل : وهاهي أولاها، بدءاً من الآن ستكون الحروب مستحيلة.

زوجة مدير المدرسة : سيكون ذلك بالأحرى أمرا حسنا.

---

* فيرجيل: شاعر لاتيني صاحب الإنياذة.
** هوراس: شاعر لاتيني.
*** سيزار: يوليوس قيصر صاحب كتاب (تعليقات على حروب الغال).

روسيل : كيف تريد الآن أن تجمع جيشا؟ في الليل فوق المعسكر، ستـأتي طـائرة فتلقي بقنبلـة، فيصبـح المعسكـر في خبر كان.

زوجة مدير المدرسة : يا للبشاعة!

روسيل : بما أن الألمان سيمتلكـــون بــدورهــــم، ذات يـــوم، طائرات. . .

الفتاة : لا، لا أظن!

زوجة مدير المدرسة : ارضخي للأمـر الواقع، يا آنستي، فالتجســس موجود، للأسف!

روسيل : وبالتـالي فهم أيضـا سيتمكنون مـن تدمير معسكـراتنا. وعندما يصبح بمقدور الفرقـاء أن يدمروا بعضهم بعضاً تدميراً متعـادلاً وكامـلاً، تغدو الحرب مستحيلـة. هذه الطائرة التي تمر في الجو وعلى متنها ابن عم الرئيس، هي السلام يعبر.

الشاب : وبعد، ماذا عن الألزاس واللورين؟

الفتاة : بيتر على حق، ماذا عن الألزاس واللورين؟

زوجة مدير المدرسة : (تزعق) إنها تسقط. تسقط!

الفتاة : (تخرج) لا، إنها تبتعد.

مدير المدرسة : لا تزال تتوهج في الشمس.

(يخرج الشاب ومدير المدرسة وزوجته)

أوليفييه : (يقود لـوك من ذراعـه) ألا يجعلك المستقبـل تحجم عـن فعلتك؟

لوك : المستقبل؟ لكن المستقبل غير موجود. المستقبل قد أصبح ماضي أولادنا. (يخرجان)

روسيل : (مخاطبا ليز التي كانت تهم بالخروج) سيدتي، هل يمكنني أن أطلب منك معروفا كبيرا؟

ليز : بكل تأكيد، يا عزيزي السيد روسيل.

روسيل : ومساندتك.

ليز : مساندتي؟

روسيل : أليس مفروضا أن يرافق قسك هنا عمك، وزير التجارة؟

ليز : بلاشك.

روسيل : إني في حالة اضطراب نفسي شديد، أرغب في أن أكلم قسك في شأنها. ما عدت أطيق الاعتراف الكاثوليكي وأرغب أن أطلب منه أن يسمح لي أن أصلي في المعبد يوم الأحد.

ليز : أن تصلي معنا (تقهقه) لكن ذلك مستحيل.

روسيل : سيدتي، أراك تجهلين عنادي.

ليز : لكنك لا تعرف قسنا. إنه يحمل كل شيء على محمل الجد. إني لأخشى أن يثبط من عزمك.

روسيل : ستكون المرة الأولى، يا سيدتي، التي يثبط فيها عزمي.

ليز : كيف أشرح لك. أما زلت كاثوليكيا؟

روسيل : قليلا جدا، ومنذ بضع ساعات ما عدت كاثوليكيا البتة.

ليز : هذا لا يمنع أنك اعترفت فيما مضى؟

روسيل : أجل . . .

ليز : حسنا، إني كل يوم، تقريبا كل يوم، أرتعش عندما أفكر، لو كنت كاثوليكية، في أنه قد يكون خوري، وأني قد أضطر إلى الاعتراف لرجل من هذا القبيل! رجل ربما لم يرتكب إثما أبدا، حتى إني أتصور أنني يمكن أن أغير عقيدتي أنا أيضا. كلا. ربماأفعل مثل سيسيل . . .

روسيل : سيسيل؟

ليز : ابنة دوفال لافاله التي تأخذ القطار إلى باريس، فتذهب إلى أب يسوعي جليل القدر، شديد الفضول، فيما يبدو، لكنه متفهم جدا.

(تسمع مقطوعة «الأرملة المرحة»).

روسيل : هل تسمحين لي برقصة الفالس القادمة؟

ليز : أتجيد رقصة الفالس؟ يا عزيزي إنك تثير إعجابي. ذات يوم سأتنكر فأذهب لأرى كيف تقود عمال أخي، على أرصفة المرفأ.

(يعود الجميع من الشرفة)

الشاب : لقد اختفت.

مدير المدرسة : لقد اختفت من السماء مثل نجمة عند طلوع النهار.

زوجة مدير المدرسة : إننا أخذنا أربع أوراق من يانصيبكم الخيري، لكني، وكأن الأمر متعمدا، لا أربح أبدا!

رئيس الخدم : السيد الوزير ينزل من السيارة مع السيد القس.

الفتاة : تعال، سأعرفك بهما.

الشاب : نعم، يا دولي.

(يخرجان بسرعة)

مدير المدرسة : سيسعدنا جدا أن نقدم آيات الاحترام إلى السيد الوزير وأن نشكر قسك على الاهتمام البالغ الذي يبديه في تعامله مع ثانويتنا.

ليز : (تخاطب الرجلين) ستتبعانني.... حسنا، تعال يا عزيزي روسيل، القس هنا!

(تنفجر ضاحكة، تخرج ليز وروسيل ومدير المدرسة وزوجته)

لوك : (لأوليفييه) ليتك تذهب وتحييهما نيابة عني.

أوليفييه : كلا، يا صديقي، إن العم رونيه لن يتفهم غيابك.

لوك : هيا إذن نسلم على هذا الرجل العزيز. إن حزنه سيكون صادقا جدا يوم الثلاثاء، لاسيما أن كارثتي المالية ستخلق له مصاعب سياسية لن يتمكن من حلها.

أوليفييه : (مشيرا إلى ليز الخارجة) وليز، ماذا عن ليز؟

لوك : إن وضعها كأرملة شابة حزينة سيستهويها.

أوليفييه : أنت إذن منسلخ عن ليز أيضا، أنت الذي...

لوك : نعم، أنا الذي...

... حتى أمس كانت حرية أن تجعلني أصرخ من الغيرة، لو رغبت في ذلك، لكن اليوم... في أي عزلة يدخل الرجل الذي اتخذ القرار الذي اتخذت. هل حدث لك أحيانا أن نظرت عبر زجاج إلى حفلة من غير أن تسمع الموسيقى؟ كل هؤلاء الراقصين الذين يدورون

في صمت ما عاد لهم من معنى. إنهم مضحكون يشعرونك بغرابة عقيمة! وبالتالي، ما عدت، اعتبارا من هذه الليلة، أسمع موسيقى الحياة. إني أنظر إليكم جميعا وأنتم ترقصون في صمت رهيب.

أوليفييه : لكن ماذا لو تغيرت البورصة غداً؟

لوك : إن الذين في الجهة المقابلة لم يلعبوا لعبتهم من أجل إخافتي فحسب، بل من أجل القضاء عليّ.

أوليفييه : لكن هب أن البورصة ارتفعت غدا بشكل مفاجىء.

لوك : سيخيب أملي كثيرا.

أوليفييه : سيخيب أملك؟

لوك : أن أعود، فأنزل ثانية، وأفتح حقائبي، وأبدأ مرة أخرى، فأعتاد مجددا على العقيم، والتافه، والذي لا يدوم.

أوليفييه : لكن ماذا عساك تفعل؟

لوك : طبعا سأذعن، لكن بأسف شديد. لا تظنني قد انسخلت في بداية الأمر بسهولة. لقد خبرت يأس الناس الطائشين. فانتظرت ساعة بعد ساعة هذه المعجزة التي مازلت تأملها من أجلي. بيد أن تلك الأرقام التي أقلقتني جداً، تبدو لي الآن في غاية التفاهة... إن دعاني الله إلى البقاء فسوف أبقى، وأعدك أن أطلع ظهر يوم الاثنين في لندن على أسعار البورصة هناك. قبل أن أرحل هذا المساء سأتعشى مع ليز، في مطعم من مطاعم المرفأ. أطلب إليك أن تأتي معنا، أن تكون هناك.

أوليفييه : أتعلم ليز أنك مسافر إلى لندن؟

لوك : ليس بعد.

أوليفييه : في سبيل إراحة أعصابي أرغب أن أمتطي جوادي وأطلق له العنان. . .

لوك : بالمناسبة، حاول الاحتفاظ بلا بلويت. لا أريد أن أتصوره وابن دوفال لافاله على ظهره. إن هذا الغر سيشتريه مهما كان ثمنه، إذا ما طرح للبيع. وبعد، لم لا ؟ أن يمتلك جوادي؟ انتقامه! وهذا الأبله سيكون في غاية السعادة. إنك ترى بأي شيء يسر الناس في هذه الدنيا.

أوليفييه : لكن قبل أن تصبح أخي، كنت صديقي، لقد بلغنا الثالثة من عمرنا، فالعاشرة، ثم الخامسة عشرة، وأحدنا بجانب الآخر.

لوك : حاول قدر إمكانك أن تأخذ جميع مستخدمي عندك. ما كان لهم أي علاقة بأرباحي، فليس من العدل أن يدفعوا ثمن خيبتي.

أوليفييه : لوك!

لوك : هيا نسلم على العم رونيه.

أوليفييه : لوك!

لوك : لا تبتئس، بالله عليك، أنت أيضا ستموت ذات يوم.

أوليفييه : يا صديقي العزيز، لو تعلم كم أنا معجب بك!

(يتعانقان. نسمع أصوات الفالس، أضواء)

المشهد الثالث

(العصـر. يظهر الفنـاء حيث تقطـن أسرة دوران. فناء داخلي، تحف بـه منازل بائسة. في وسط الديكور ينفتح مطبخ ـ السيد والسيدة دوران ـ متواضع ونظيف. السيدة دوران تقوم بغزل جوارب بالصنـارة، جوليا خليلة جول تغزل شالا صـوفيا بـالصنارة المعقوفـة (الكروشيه) السيـد دوران يقرأ صحيفـة وهو جالس قرب موقد الطعام. جول يمشي وهو يتكلم).

جول : نحـن في نظرهـم لسنـا سـوى أرقام، تتجسـد آلامنـا في دفاترهم على شكل عمليـات طرح وجمع. سيان عندهم بؤسنا. مـادام ميزانهم التجاري في حالـةجيدة، دون أن يفقدوا قرشا واحدا من أرباحهم. نحن نطالب بحقنا في الحياة وهم يتعللون بألف حجة وحجة.

(صمت)

الأم : العب الدومينو مع والدك لتريح فكرك.

الأب : لا أرغب في اللعب.

(صمت)

جوليا : إذن هيا بنا يا جول نطعم الحمام.

جول : لماذا هذا الكـلام الذي لا معنـى له؟ تعلمين جيـدا أنه لم يحن بعد وقت إطعام الحمام!

(صمت)

الأب : وحمامك الزاجل: من الذي تريد أن تراسله بواسطته؟

جول : أريد أن أراسل كل كائن حي، الطبيعة، كل الأرض، والسماء. هذه الحيوانات الصغيرة التي لا تخشى أن تطير حتى الموت، كي تبلغ هدفها، والتي تعلم بالغريزة ما يجب عليها عمله..

الأب : والتي يمكنها أن تنقل رسائل سرية إبّان الثورات!

جول : (بدهشة) ماذا تقول؟

الأب : هذا ما قيل لي.

جول : من قال لك ذلك أبله.

الأب : ربما نعم، وربما لا.

الأم : ما جدوى النزاع؟ إنه عنيد مثل الحمار!

جول : أمي على حق إننا لسنا متفقين حول الأحداث، إذن دعنا نغير مجرى الحديث.

الأم : لكن قبل أن تشغل نفسك بما لا يعنيك، عليك الاهتمام بنفسك وأسرتك، ودع الآخرين يتدبرون أنفسهم وحدهم!

جول : أهذا ما تتعلمينه عندما تذهبين إلى الكنيسة يوم الأحد؟

الأم : تخطىء في عدم الإصغاء إلي. إني عجوز وأعلم ما أقول: عندما يكون المرء فقيرا، فإنه ينقطع انقطاعا تاما عن الآخرين.

جول : حسنا! أنا سأظهر نفسي!

الأم : ستظهر نفسك! ستظهر نفسك! لمن؟ وما جدوى ذلك؟ لا تنس يا جول أننا فقراء. ستظهر نفسك! ها أنت تظهر نفسك أكثر من اللازم! لكن بالله عليك لا تلحق بنا العار! لقد عاش أبوك طيلة حياته شريفا.

جول : العار الحقيقي يلحق بنا فقط عندما لا نقوم بواجبنا. وفي نظري أن المرء الذي لا يكافح في سبيل التقدم ليس بالإنسان الشريف.

الأب : وماذا يكون؟

جول : بهيمة أو انتهازيا! والانتهازيون ليسوا بين أرباب العمل فحسب، بل بين العمال أيضا.

الأب : (بعصبية) ألي أنا تقول هذا؟

جول : أقول هذا لكل الناس ولي أنا أولاً، لي أنا خصوصا عندما أرغب في أن أطأطىء رأسي، فأقبل مالا يقبل.

الأم : لا أظنكما على كل حال ستتشاجران؟ (تخاطب جول) إذن فأنت أخو البشر جميعا، لكن أما عدت تعرف والدك؟

الأب : مادمت تتحدث عن الانتهازية فاعلم أني قد أفقد عملي. بسببك.

جول : بسببي؟

الأم : أنت من يثني عليه الرؤساء منذ ثلاثة وعشرين عاماً؟!

الأب : (للأم) ما كنت أريد أن أقول لك ذلك، والله. . .

الأم : لا تغضب يا عزيزي فأنت عجوز.

الأب : لقد طلبني اليوم الرئيس الأعلى إلى مكتبه الفخم، وقال لي: «أنت معنا هنا منذ ثلاثة وعشرين عاما، إنك مجد في عملك، وكنا ننوي أن نعين ابنك وكيلا خارجيا لنا. . .».

الأم : (بانفعال) وكيل خارجي! أتسمع يا جول؟ دائما في أبهى حلة، وتلبس ياقة بيضاء، وسيد نفسك تقريبا ـ إضافة إلى ثقة رؤسائك في المرفأ ـ تشرف على عمليات الوصول والتحميل. وكيل خارجي، أنت! ما كنت لأجرؤ على التفكير في ذلك. (تخاطب زوجها) وهل شكرت أولئك السادة؟ لأنك ستقبل يا جول، وبعد يا جوليا، مادام لا يستمع إلا لك، قولي شيئا. . .

جول : (لوالده) وماذا أضاف أولئك السادة؟

الأب : «إننا مازلنا نثق بك. . .»

الأم : أنت ترى يا ولدي، أن الأوان لم يفت بعد كثيرا.

الأب : «. . . لكنك لن تحتفظ بهذه الثقة إلا إذا تمكنت من تهدئة ثائرة ابنك. إن الحديث يكثر عنه منذ بعض الوقت. . .»

جول : منذ أن عُينت أنا سكرتيراً لنقابة عمال فحم المرفأ؟

الأم : ابني أنا على رأس هذه الشلة من العابثين. أجل إنهم لشلة عابثين!

جول : وان لم تتمكن من. . . . تهدئة ثائرتي؟

الأب : عندها «قد يظنون أني أتبنّى أفكارك»، وأضاف: «وأذكّرك يا سيد دوران، أننا نظاميون ومنطقيون، ونحن لا نحب كثيرا من يبغي مقاسمتنا ثرواتنا».

جول : الذي يتقاسم ! أجل هكذا يدعوني الذين يذهبون إلى الكنيسة يوم الأحد. ولماذا تراهم يذهبون إلى الكنيسة؟ كي يتقاسموا مع الآخرين آلامهم، على حد زعمهم. وعليه ماذا يعيبون عليّ. أنا الذي لا أسعى كي أخفف هذه الآلام، إلا إلى جعل الأغنياء يتقاسمون ثرواتهم مع الفقراء؟ تلك هي القسمة التي أطلبها والتي يمنعونها عني. . .

الأم : لكنك لست كاهنا. لا أحد يطلب منك أن تعظ الناس بدلاً من رجال الدين.

جوليا : (تخاطب الأب برقة بالغة) لما مرضت منذ سنتين، هل رئيسك الأعلى، في مكتبه الفخم، هو الذي ساعدك؟

الأب : لا، إنه جول، وأنا لا أنسى ذلك.

الأم : (لجوليا) ألاتعرفين إذاً إلى أين يريد أولئك السفلة المجرمون أن يوصلوه؟

الأب : (لجوليا) تعرفين أننا نحبك. لم يكن جول محظوظا مع زوجته الأولى، وحالما نعلم أين ذهبت، فسوف يطلقها ابننا ليتزوجك، ونحن نعتبرك هنا مثل كنتنا. . .

الأم : إن زوجي كان ليفضل وضعا أكثر شرعية. (للأب الذي يعترض) نعم، كنت لتفضل، لقد قلت لي ذلك! وبخاصة أن هناك طفلا على الطريق. (تثور ثائرتها، لجول) ألا تقبل أيها الأحمق أن تكون وكيلا خارجيا فيصبح ولدك مهندسا! علماً بأن والدك بدأ حياته عاملا عاديا! هذا هو التقدم، في نظري.

جوليا : (مبتسمة)ابنه، ابنه، ربما كان بنتا؟

جول : سأحبها بنفس القدر.

الأب : وأنا أيضا، إن الله لم يرزقني ببنت، سواك يا جوليا، منذ سكنت معنا. (يقرع الباب) ادخل.

(يدخل عاملان : الشقيقان بواييه وهما جاستون ولويس)

لويس : مرحباً.

جاستون : هل جئنا في وقت غير مناسب؟

لويس : لقد كلفنا بالمجيء إلى جول، فلبينا الطلب بسرعة.

الأب : اجلسا

لويس : لا داعي لذلك...

جاستون : نريد فقط أن نقول له (لجول) إنهم بحاجة إليك على رصيف الشحن.

الأم : على الرصيف؟ في هذه الساعة! لماذا؟

جول : مهلا، يا أمي، إنهما سيخبراننا بالأمر.

لويس : هاك إذاً - المعذرة، لابد لنا من إخبارك بما جرى: في الساعة الخامسة أوقفت عمال دولافيل عن العمل، الساعة الخامسة هي وقت انتهاء العمل. إلا أن السفينة «البروفانس»، كما تعلم، يجب أن تقلع هذا المساء. لذا فقد انتهزت الفرصة. وطالبت - باسم النقابة - بأجر مضاعف عن الساعات الإضافية.

جول : حسناً فعلت.

لويس : عندها طردني.

الأم : ماذا كنت أقول!

جول : دولافيل؟

لويس : نعم.

جاستون : (مبتسما) بيد أن جميع الرفاق استئناف العمل.

جول : (مبتهجاً) آه!

جاستون : عندها ذهب يستطلع رأي روسيل في الأمر.

لويس : هاتفيا.

جاستون : (صائحا بفرح) للمرة الأولى رضيت الشركة أن تدفع أجرا مضاعفا!

جول : الواحد في سبيل الكل، والكل في سبيل الواحد! عاشت النقابة! يا جوليا! يا جوليا! أرى انفراجا كبيرا من الضوء في السماء... لقد آن الأوان!

جاستون : إلا أن دولافيل لم يشأ، يا جول، أن يعيد لويس إلى العمل...

الأم : أو يدهشك ذلك؟

جاستون : عندها نظر لويس إلى الرفاق، والرفاق رفضوا استئناف العمل دون أخي. إنهم الآن واقفون على رصيف الشحن، وقد عقدوا أيديهم على صدورهم.

لويس : عليك أن تحضر.

الأم : (للأب المغلوب على أمره) لا شأن لك في ذلك، يا عزيزي!

جول : (للويس) إما أن يعيدوك إلى العمل (مخاطبا جاستون) وإما الإضراب الشامل.

الأب : أتود أن تدعو إلى الإضراب؟

الأم : أنت الذي كنت خوّافا في صغرك! وحسن التربية!

جول : لقد فهم الرفاق. إنهم مستعدون. علينا أن نستغل الاستفزاز.

الأب : أتريد أن تقف في وجه دولافيل؟

جاستون : وكأنه الرئيس الأوحد!

لويس : إنه مجرد نكرة، دولافيل هذا!

جاستون : روسيل هو الذي يصدر الأوامر.

الأبَ : (مذعورا) لكن خلف السيد روسيل يقف كل رجالات البورصة والتل.

جول : رجالات التل! رجالات التل! إنهم أبناء وأحفاد تجار رقيق! لقد أثروا على شواطىء افريقية من بيع السود. والآن بعد أن تحرر أشقاؤنا السود، غدونا نحن، معذبي الأرض، المسحوقين الجائعين...

الأم : لم ينقصك شيء أبداً عندنا.

جول : يريدون خنقنا..

الأم : هذا ليس صحيحا! إنهم يقدمون لك وظيفة وكيل خارجي!

جول : وأترك الرفاق الذين يختنقون وسط هباب الفحم، فلا يخرجون منه أبداً، إلاّ على رؤوس الأشهاد!

جاستون : أنت تدركين تماما أن ذلك صحيح يا سيدة دوران.

الأم : بدلا من كل هذا النزاع، لو أنكم تغيرون فقط مهنتكم!

جول : يرفضون أن يمنحونا عشرين فلسا زيادة، وفي اليوم نفسه، يقررون أن يعطوا مئة ألف فرنك، أتسمعين، مئة ألف فرنك كجائزة لسباق طائرات في السماء، ليلعبوا النطيطة فوق البحر!

الأم : هم أحرار في أموالهم. هل يمنعوننا من إنفاق أموالنا كما نحب ونشتهي؟

جول : في المستقبل، أقول لك، لن يكون هناك سوى مصارعات سيوف، وهي مصارعات كان الواحد يقتل فيها الآخر على مرأى من الجمهور، سيدهش الناس من أن بشراً يدعون أنفسهم أرباب عمل تركوا بشرا آخرين يدعونهم بالعمال يموتون جوعا، وذلك باسم مبدأ يرددونه مثل الببغاء: «كلكم إخوة، كلكم إخوة». إننا ذاهبون إلى رصيف الشحن.

الأم : أرجوك يا جوليا رافقيه!

جول : لكننا ثلاثتنا يا أمي، ثلاثة رجال هادئين.

(قرع على الباب. صمت. ينظرون إلى بعضهم بعضا. تتوجه جوليا إلى الباب وتفتحه).

عامل : (يلهث) لقد قال لي لويس إني سأجدكم جميعا هنا. (يحيي الأب والأم) المعذرة. لقد ركضت يا جول، إنهم قد تراجعوا. الرؤساء جثوا على الأرض في الوحل! لقد أعدت يا لويس إلى العمل. بيد أن الرفاق أجابوا: «المشكلة أن لويس، يا سيد دولافيل، قد ذهب. إننا ذاهبون إليه الآن، لنعود به... غدا صباحا، في المرة القادمة يجب أن تقولوا نعم في الحال». يا ليتك شاهدت وجه دولافيل، وحده على رصيف الشحن، وسفينته أمامه!

(يحتضن جول جوليا)

الأم : إذن ليس هناك إضراب؟ جوليا، أشعلي الغاز، وأنت (لزوجها) افتح زجاجة خمر التفاح، مادام ليس هناك إضراب.

جول : ليحضر الجميع غدا في الساعة المحددة تماما. وأنت أولاً يا لويس، دعنا نظهر لهم أننا قوة منظمة، وأن نقابتنا كلمتها واحدة، وهي تحترم هذه الكلمة.

الأم : هذا عهدي بك يا جول!

الأب : تناولوا بعض الشراب، فأنتم لابد تشعرون بالعطش جميعا، لفرط ما تتكلمون.

جاستون : شكرا يا سيد دوران.

العامل : بكل سرور.

الأم : وأنت، ألن تشرب مع الجميع، ما دمت قد اطمأن بالك أخيراً؟

جول : نعم يا أمي، كالعادة...

جوليا : (بلهجة عقاب رقيق) جول، إكراما لوالدتك.

جول : أيها الأصدقاء، اشربوا خمر والدي، حتما إنها لذيذة وهو يقدمها لكم عن طيب خاطر. أما أنا فقد أقسمت ألا أشرب إلا الماء القراح مادام الرفاق يسكرون في الحانات المتواجدة في أماكن العمل. إن سادة التل يعلمون أني لا أشرب إلا الماء ويسخرون مني لهذا السبب، فيما يبدو، لكنهم مستعدون أن يدفعوا الكثير لمن يجعلني أشرب أول كأس أفسنتين. إن كوب مائي يخيفهم.

الأم : بودي لو كنت مسرورة مثلك يا بني، لكني لا أستطيع.

جول : غدا مساء اجتماع في قاعة فرانكلين لإعداد مسودة مطالبنا: فرنك لكل ساعة عمل، أجر مضاعف يوم الأحد، إغلاق الحانات، حمام بعد العمل. . .

الأب : حمام؟!

جاستون : نحن نطلب ذلك.

جول : نخطر الشركة، وإن رفضت نضرب إلى أن يتم الاعتراف بحقوقنا. لكنهم يقولون لنا يا والدي: «يجب أن تقلع السفن» لهم ذلك، لكن من جهة أخرى يجب أن يعيش الرجال، أليس كذلك؟ ما جدوى السفن في البحر إذا خلت الأرض من الأحياء؟ في طريق العودة، عرّجوا على الرصيف وتأكدوا أن لا أحد يعمل.

العامل : كل الرفاق انصرفوا.

جول : (للعامل) رافقهما. وإلى الغد على الرصيف، ساعة بدء العمل سأكون هناك.

الآخران : إلى الغد يا جول. (للآخرين) نرجو المعذرة.

(تحيات. خروج. صمت. يشرب جول كوباً آخر من الماء)

الأب : أوتظن أن أصحاب الشركة سيتركونك؟

جول : يدهشني لو أرسلوا إليّ أزهارا.

الأم : أو تظن أن جميع عمال المرفأ سيطيعونك؟

جول : أجل ما لم يكونوا مخمورين.

الأب : إذاً فهم سيسكرونهم

الأم : (لجول) أما أنت فتنتشي بالكلام!

(تدخل السيدة كابرون حاملة طفلاً بين ذراعيها. إنها تسكن في نفس المبنى).

السيدة كابرون : أرجو المعذرة. جئت أستطلع الأمر. (لجول) ماذا يجري على رصيف الشحن؟

الأم : (بسرعة) لا شيء على الإطلاق.

السيدة كابرون : سمعت من الابن مسنيل أنهم يعتزمون الإضراب عن العمل.

جول : كلا. ستقرر ذلك النقابة غدا.

السيدة كابرون : (تجلس بإعياء) لقد خرجت أترقب عودة زوجي. آه يا سيد جول! ألا يمكنهم إغلاق الحانات يوم قبض الأجور؟

الأم : الذنب ليس على الحانة، بل على من يذهب إليها.

السيدة كابرون : (تنهض) إني صاعدة إلى مسكننا. إن كان لابد من الإضراب، فليكن! لكن كيف سيتدبر أمره من لا يملك شيئا، والذي كف البقال عن التعامل معه؟

كابرون : (من النافذة، وقد رأى زوجته) أنت، أمازلت هنا؟!

السيدة كابرون : وأنت، من أين أنت قادم؟ (للآخرين) أنا صاعدة إلى بيتنا. مادام يمشي مثل السرطان فهو حتما لا يزال سكران!

كابرون : (داخلا من الباب) السلام على الجميع.

السيدة كابرون : هيا بنا إلى مسكننا.

كابرون : دعيني ألتقط أنفاسي قليلا. (لجول) وبعد، هل هناك عمل غدا أم لا؟

السيدة كابرون : قبل العودة سأذهب لأحضر بعض الخبز، أعطني نقودا.

كابرون : وهاتي أيضا بعض الحلوى للأولاد. ستدفعين غدا...

السيدة كابرون : بماذا؟

كابرون : لا تشغلي بالك بهذا الأمر! لقد قال لنا دولافيل إنه سيعطينا هذه الليلة ثلاثة أضعاف.

السيدة كابرون : والله إن حصل إضراب وعملت، أصغ إلي جيدا، لألقينك في البحر وأنت مخمور هكذا ولن أحتاج إلى مساعدة من أحد.

كابرون : عندما لا أعمل تعاملني بخشونة، وعندما أريد أن أعمل لاتقبل.

السيدة كابرون : وأولادك الثلاثة الذين يتضورون جوعا.

كابرون : من ذا الذي أنجبهم هؤلاء الأولاد الثلاثة؟ أنا أم أنت؟ مادمت أنجبتهم فعليك الاعتناء بهم.

السيدة كابرون : كفى، دعنا نصعد إلى مسكننا.

كابرون : ها هي ذي المتعة التي أجدها عندما أعود إلى المنزل، فقر! فقر!

جوليا : سأمر بعد قليل على المخبز من أجلك يا سيدة كابرون، فأصعد إليك بخبزك.

كابرون : يا للمرأة اللطيفة!

السيدة كابرون : ألا تخرجن! أرجو المعذرة، فأنا إنما أتيت أستطلع الأنباء.

(يخرجان. صمت)

الأم : عندما يكون الزوج سكيرا، يجب على المرأة ألا تنجب أطفالا.

الأب : أو من أجل رجال من هذا النوع ترفض الوظيفة المعروضة عليك؟

جول : عندما أنظر إلى رجل مثل كابرون فكأنما أرى نفسي.

الأم : ما هذا الهذر؟

جول : أرى نفسي مكانه، أراه في حين أنظر إلى نفسي. الصدفة وحدها هي التي أتاحت لي ألاّ أكون تعيساً مثله. كابرون؟ إني لأفهمه وكأنه أخي.

الأم : هذا العربيد أخوك؟ حقا لا اعتبار عندك لعائلتك.

جول : أن أضع نفسي مكان الآخرين، أن أصبح الآخرين! أن أكون الآخر! لذا فإن هباب الفحم يعوق تنفسي، هنا وفي كل مكان، ليل نهار.

جوليا : والله يا أمي أظن أن جول على حق.

الأم : ما دمت توافقينه الرأي، فما بقي لي إلا أن أصمت. يا زوجي، لقد كبرنا في السن، أنا وأنت. وفي هذه الأيام تقر الموضة أن الشبان هم وحدهم الذين يفهمون ويتحكمون في كل شيء.

الأب : هيا إلى الفراش، فقد تأخر الوقت.

جوليا : أنا ذاهبة مع جول لإطعام الحمام.

جول : تصبحون على خير (معانقات. يخرج جول وجوليا إلى الفناء، يطفىء الأب والأم المصباح، يتوارى مطبخ أسرة دوران في الظلام، يجلس وجوليا على مقعد في الفناء، نجوم في السماء). كيف تريدينني أن أشرح لوالدي اللذين يحبانني أني كنت دائما ولدا تعيسا. ما كنت أؤمن بالله، وماكنت التقيت بعد بالناس. كنت وحيدا، وحيداً، أتسمعين يا جوليا، لا أفهم شيئا البتة. هل حدث لك أن حلمت أمام الأمواج التي تصل إلى الشاطىء؟ هكذا كنت أرى كل جيل يأتي، خلال خمسين عاما، فينبسط، الواحد إثر الآخر على شاطىء العصور، ثم يزول. وأنا اليوم ما عاد

يخيفني كوني مجرد رذاذة محيط. افهميني يا جوليا، ما دمنا كلانا سنقوم قريبا على تربية طفلنا حتى لو أني ولدت غنيا، فلن أستطيع أن أظل غنيا، لأني أعلم الآن عن أي بؤس يخرج هذا المال. إن رفضنا مشاركة الآخرين عذابهم يعني قبولنا بهذاالعذاب، وتبريرنا له، ويجعلنا مسئولين عنه.

لا، ماعدت أعيش وحدي، عندما ترأست النقابة كانوا ثلاثين. نحن الآن أربعمائة. وغداً يصبح جميع الرفاق نقابيين. سنكون ثمانمائة. وروسيل هذا الوغد، لا، إنه ليس وغداً، إنه أعمى وأصم، سيتوجب عليه أن يذعن، أو يكون الإضراب! منذ عام حدث أربعة عشر إضرابا في جميع المنظمات، إلا عند عمال الفحم، وقد نجح الأربعة عشر. ولسوف ننجح بدورنا، عليك أن تفهمي يا جوليا، حتى تساعديني، لأني حتى لو كنت وسط الرفاق ـ أحيانا، خلال طرفة عين ـ أعود إلى وحدتي، فأنا مازلت أشعر بنفسي وحيداً بالقدر الذي كنته لما كنت صبياً تائهاً أمام زبد الأمواج، والخوف يخنقني.

جوليا : أحبك يا جول... من كل جوارحي.

جول : أتؤيدينني في أمر الإضراب؟

جوليا : طبعا. وقل لي إن طفلنا سيكون سعيداً.

جول : بكل تأكيد يا حبيبتي.

جوليا : ما أجمل الليل!

جول : ملىء بالنجوم المجهولة! كم من أناشيد أمل خرجت من صدور رجال نحو كل هذه الأنوار! لكن في أي صمت انطفأ كل ذلك الأمل. اعتباراً من الآن فإن ما يحظى باهتمامي هو الإنسان الذي أستطيع أن ألمس يده، الذي أستطيع أن أمسك بيده، الذي بوسعي أن أقول له: «تشجع أيها الصديق! غداً نحيا معا، ونكون أقل تعاسة!».

جوليا : أتسمع الحمام الذي يطالب؟

جول : نعم، هم أيضا يطالبون بالحياة مطالبة كبيرة ليس من السهل تهدئتها. إن أذعنت الشركة، وفرنا علينا إضرابا. إني أفضل بالأحرى... الإضراب شاق جدا عندما يكون لدى المرء زوجة وأولاد... لكن لا يمكن للشركة ألاّ تذعن أمام اتحادنا. آه! يا جوليا، إني مستعد أن أهب حياتي من أجل سعادة الآخرين!

المشهد الرابع

(الشارع بسياج مطلي بلون أحمر أمام البحر. أوليفييه يرتدي ثيابا سوداء، ويضع قبعة مرتفعة ويمسك بعصا ذات قبضة فضية. روسيل يرتدي ثياباً رمادية، ويضع قبعة مستديرة، ويمسك بعصا ذات رأس منحن. إنهما في طريقهما إلى البورصة، من حين إلى آخر يلتقيان بتجار، بسماسرة، فيتبادلان معهم تحيات مجاملة).

أوليفييه : كنت أظن يا روسيل أنك وضعت أشخاصاً يعملون لحسابك، داخل نقابة عمال فحم المرفأ هذه؟

روسيل : قد فعلت ذلك يا سيدي الرئيس.

أوليفييه : كيف تفسر لي إذاً التصويت بالإجماع على هذا الإضراب؟

روسيل : لأني، أنا أيضا، مقتنع بضرورته...

أوليفييه : ماذا؟

روسيل : ... من أجل تحطيمه يا سيدي الرئيس، وفي الوقت نفسه تحطيم هذه النقابة الفتية المشاغبة جدا. إن إضراب فحم إبان الصيف لا يمكن أن ينجح. لو كنا في الشتاء لقام السكان ضدنا. إن أيام البرد الشديد لا تزال بعيدة.

(تاجران بقبعتين مرتفعتين. تحيات مجاملة)

تاجر : طاب يومك، يا عزيزي بوجنهارت!

أوليفييه : طاب يومك يا عزيزي دولاموت!

روسيل : (متابعاً حديثه) غدا تقول الصحف إن الإضراب يجبر سفننا على التوجه إلى روان ودنكارك. إن استمر الإضراب خمسة عشر يوما، اضطررنا إلى تحويل سفننا الأخرى إلى هامبورغ. هل يترك السكان مجموعة من السكارى المعوزين يقضون على مرفئنا لصالح المرافىء الألمانية؟

أوليفييه : إن رؤساءك لهم ثقة كبيرة في تحليلاتك وعزمك.

روسيل : أشكرهم على ذلك، من المهم حقاً أن تتخذ بعض القرارات جماعياً، من غير أن تعلم المدينة أن ثمة اتفاقا بيننا. إن شئت الحقيقة، فلا أحد سينطلي عليه الأمر. بيد أن التقيد ببعض المظاهر يعطي قوة إضافية لمؤسسات ليس لسرها أن يذاع دون داع. يعلم الله أني لا أنظر إلى الحياة على أنها مقامرة، إلا أنه كما في المقامرة، يتوجب علينا أن نتقنع، ونراوغ، ونخفي أوراقنا.

أوليفييه : أمتأكد أنت كل التأكيد أن كل هذه الأعمال ليست مجرد مقامرة جد بائسة؟

روسيل : عندما نخسر، ربما.

أوليفييه : (بعصبية) عندما نخسر ماذا؟ ونربح ماذا؟

تاجر : (تحيات) وكيف تتحمل أختك الغالية جدا موت زوجها الرهيب؟

أوليفييه : بإيمان ورضا بمشيئة الله! (تحية. يخاطب روسيل) وإن طال الإضراب؟

روسيل : بعد عام ستكون هذه النقابة الفتية قد كونت ثروة حربية صغيرة نوعا ما، تساعدها على الوقوف في وجهنا. إنها اليوم تبدأ المعركة بصندوق معونات فارغ. لن يستمر الإضراب أكثر مما يسمح حساب البقال، وعندما، وبأمر مني، يستأنف عمالي واحداً إثر الآخر، العمل، بعد أن كانوا خلال الاجتماعات الأولى دعاة إضراب متطرفين، فإن تراجعهم سيثبط معنويات الآخرين كثيرا. وليس غير مجد أبدا تثبيط معنويات الخصم.

أوليفييه : استقبل إذاً وفدهم، وارفض كل مطالبهم.

روسيل : أأستقبل دوران وشلته؟ أتريدني أن أهب هذا الشخص المشاغب الذي أهاننا، منذ ثمانية أيام، بتأخيره إقلاع «البروفانس» أربعاً وعشرين ساعة، تريدني أن أهبه شرف مناقشتنا؟ سيتكلمون خارجاً، أمام بابي المغلق.

تاجر : (يمر، تحيات). وبعد، أيها العزيز، يقال في البورصة إنكم مهددون بالإضراب.

أوليفييه : لقد علمت ذلك لتوي. إني آسف.

روسيل : أليس من المؤسف أن يستطيع عمال دون مسئولية مالية أن يشلوا حركة أكبر مرافىء البلاد لصالح صاحب الجلالة غليوم الثاني؟ وأن يكون ذهاب وإياب سفن شحننا تحت رحمة هؤلاء السكارى؟

التاجر : نحن وراءك جميعا، يا عزيزي روسيل.

(تحيات. خلال تغير الأضواء نسمع أصوات بائعي صحف).

الصوت : آخر أنباء الإضراب!

أسماء السفن المتوقفة في المرفأ.

قلق دائم في البورصة.

آخر أنباء الإضراب.

المرفأ مشلول تماما.

مجلس المحافظة يأخذ موقفا.

آخر أنباء الإضراب.

(تتابع الأضواء)

المشهد الخامس

(خلفية من المنـازل. في مقدمة المسرح إلى اليمين، شكل محل بقـالة، إلى اليسـار شكـل محل جـزارة. عمال الفحم، وقـد وضعـوا عـلامـات حمراء على سواعـدهم وحملـوا في أيديهم صناديـق تبرعات معـدنية، يجمعـون الأموال في الشوارع باسم لجنة الإضراب).

العامل الأول : من أجل نسائنا!

العامل الثاني : من أجل أطفالنا!

العامل الثالث : من أجل عمال الفحم المضربين!

(فريق آخر)

العامل الرابع : من أجل نسائنا!

العامل الخامس : من أجل أطفالنا!

العامل السادس : من أجل عمال الفحم المضربين!

(الفريق الأول أمام البقال)

البقال : هذا من أجل الذهاب للحانة، أليس كذلك؟

العامل الأول : هذا من أجل صندوق التضامن.

العامل الثاني : كنا نكسب تسعة فرنكات باليوم.

العامل الثالث : بالتحديد أربعة فرنكات ونصف كل أربع ساعات.

العامل الأول : وفي أسابيع الخير كنا نعمل ثلاثة أرباع اليوم.

زوجة **البقال** : ما عليكم سوى تغيير مهنتكم.

العامل الأول : لماذا أنت صاحبة بقالة؟

البقال : لأننا اشترينا محل بقالة. (يضحك)

العامل الثاني : أما نحن فلا يمكننا أن نشتري شيئا.

العامل الثالث : نحن الذين نُشترى، ولا أحد يدفع لنا الثمن.

البقال : إليكم عشرة فلوس.

الزوجة : وكلوا هذه، إنها علبة تونة.

العامل الأول : سنتركها للأولاد، فهم جائعون أكثر منا.

العامل الثاني : وهؤلاء الأطفال المساكين لا يعلمون حتى لماذا هم جائعون!

(الفريق الآخر أمام محل الجزارة)

زوجة الجزار : إن إضراباتكم تضر بصغار التجار.

الجزار : أولاً، لماذا أنتم مضربون؟

العامل الرابع : لأنه تم التصويت على الإضراب.

العامل الخامس : لقد وضعوا ماكينات على أرصفة الشحن. إن إحداها وهي التنكارفيل قد تسببت قبل الإضراب في تسريح مئة وخمسين رفيقا.

زوجة الجزار : هذا هو التطور.

العامل السادس : حسناً، لكن خلال ذلك الوقت، يجب بالطبع أن نأكل!

العامل الرابع : من أرباح الآلة نريد عشرين فلسا زيادة!

الجزار : أتريدون من رؤسائكم أن يدفعوا لكم نظير مراقبة الآلة وهي تدور؟

العامل الخامس : هب أن تعاونية راحت تبيع المقانق بنصف الثمن أمام بابك، سيكون هذا تطوراً أيضاً، ماذا ستقول ساعتها؟

الجزار : يكفي! يكفي! ها كم عشرة قروش، لكن لا تعودوا ثانية.

العامل الأول : (من الفريق الأول) من أجل نسائنا!

العامل الثاني : من أجل أطفالنا!

العامل الثالث : من أجل عمال الفحم المضربين!

(يمر برجوازي وبرجوازية)

البرجوازية : الفوضويون! هيا بنا من هنا! إني خائفة.

العامل الأول : (طالبا التبرع) كي يخف الفقر!

العامل الثاني : كي لا يكون هناك فقراء بعد الآن.

البرجوازية : هيا يا زوجي! إنهم مجانين! إن لم يعد هناك فقراء، فلن يكون هناك أغنياء! وبالتالي ماذا سنغدو نحن؟

العامل الرابع : (من الفريق الثاني) من أجل نسائنا!

العامل الخامس : إلخ.

(أثناء تغير الضوء على...)

المشهد السادس

(نهاية سهرة. في الفناء يظهر مطبخ عائلة دوران. الأم وجوليا تحوكان).

جوليا : إن لم يفعل جول ما يفعله فلن يكون سعيداً.

الأم : لا أريد إلاّ أن يكون سعيدا، لكن ألا يمكنه أيضا أن يفكر بعض الشيء في سعادة الآخرين؟

جوليا : أترين أنه لا يفكر كفاية في سعادة الآخرين؟

الأم : لا أكلمك عن الآخرين الذين لا نعرفهم! بالنسبة لي فإن الآخرين هم والده، ووالدته، وأنت.

جوليا : لن يشبه جول أبداً الرجل الذي حلمت به عندما كان صبيا، كان وقتها يجهل كل شيء عن الحياة. لكنه قد فتح عينيه، وابنك لن يستطيع إغلاقهما بعد الآن. هذه هي الحقيقة.

الأم : لن يستطيع بعد الآن إغلاق عينيه.

جوليا : لا. وما رآه أراني إياه، وأنا بدوري أراه الآن أبد الدهر. لا يحق لنا أن ندفع الناس الجائعين إلى السرقة ثم نلومهم عليها، ونبيعهم الخمر ثم ننعتهم بالسكارى.

الأم : لكنه لا ناقة له ولا جمل في كل هذا.

جوليا : بمجرد أن يعلم المرء، فإن صمت كان مسئولاً نوعا ما.

الأم : عندما تشيخين بدورك، وتتعبين...

جوليا : عندما أشيخ فسوف أترك الشبان يحيون كشبان.

الأم : لماذا تحرضينه؟ أنا من كنت أنشد الطمأنينة لنا أربعتنا، مع أولادك الذين بإمكانهم أن يكبروا من حولنا!

جوليا : يكبرون مثل الكتاكيت! ريثما تقصف أعناقهم كالدجاج؟ إن ابنك لم يخلق ليعيش في قن الدجاج.

(صمت)

الأم : أتعلمين أين عمك الآن؟ استدعته الإدارة بعد العشاء لأن لوائح دعم للإضراب تم توزيعها... وتمكنت الإدارة من الحصول على نسخ من هذه اللوائح، ويقال إنهم سيوقفون كل المكتبين عن العمل، وعمك قد اكتئب بسبب جول!

جوليا : أو تجدين ذلك حسناً؟

الأم : وإن سرح عمك، فهل سيكون ذلك أفضل؟ أصحاب الشركات لا يحبذون المضايقات.

جوليا : ولماذا يجبروننا على مضايقتهم؟ (صمت) أنا أيضا، مثلك تماما، قلقة وخائفة.

الأم : مم أنت خائفة؟

جوليا : جول، وحده أفرغ المرفأ من العمال. لابد أن أصحاب الشركة يفكرون أنه إذا ما اختفى جول... أخشى مكيدة، مشاجرة مدبرة. أخشى يا أمي أن يلقوا به في حوض السفن.

الأم : أجننت؟ كيف لك أن تتصوري أن سادة التل . . . في هذه الأيام لا يغتال الناس النزهاء عمدا، وقد كنا دائما عمالاً نزهاء في عائلتنا لم يكن هناك أبداً مجرمون ولا جرائم. . . جوليا! جوليا! أتفكرين في مثل هذه الفظائع ولا تطالبين جول بالبقاء في المنزل؟ أين هو في هذه الساعة؟

جوليا : في لجنة الإضراب التي تعقد جلساتها بلا انقطاع.

الأم : وكما هو الحال أمام المرض، لا يمكننا أن نفعل شيئا، إلّا. . . الانتظار الانتظار. . والصلاة! من يمكنه أن يقول لك أبداً، يا جوليا، كم انتظرت في حياتي! لما سقط جول، من خمس سنوات، وهو عائد من المرفأ من على الدراجة. .

جوليا : أتدرين لماذا؟

الأم : لماذا سقط؟

جوليا : أتدرين كيف؟

الأم : كيف سقط؟

جوليا : لقد ارتمى عمداً على رصيف الشارع، مع علمه أنه قد يلقى مصرعه.

الأم : عمداً!

جوليا : لقد اندفعت هرة مذعورة أمام عجلته وحتى لا يدهسها، أدار المقود نحو الرصيف. . .

الأم : كان يمكن أن يموت من أجل هرة شاردة . . .

جوليا : وقتها ألم يكن عمي يمتلك هرة يحبها كثيراً، على ما أظن؟

الأم : يا للحيوان القذر! لم تكن تريد أبداً أن تأتي للنوم. وفي المساء، في الفناء كنا ننادي «بس! بس!» «ما كان عمك يستطيع أن يذهب لفراشه قبل أن يدخلها، وبمقصه الذي كان يقطع به رئة الذبائح كان يطرق على صحنه منادياً« بس! بس!» آه. كانت تلك صلاة كل عشاء . . .

جوليا : من هنا أراد جول أن ينقذ الهرة الأخرى، مهما كلفه الثمن. لقد قال في سره بسرعة البرق «لابد أن هناك رجلا يحب هذا الحيوان كما يحب والدي حيوانه» بالنسبة لجول ليس هناك من أحياء مجهولي الهوية. إنه يفكر دائما في الغير وكأنه هو نفسه هذا الغير.

الأم : وماذا لو جاءوني به مهشم الرأس؟ أعيد فأقول: لعل جول يفكر دائما في الآخرين، لكنه لا يفكر أبدا بي!

(يدخل جول)

جول : صباح الخير يا أمي، مرحبا يا جوليا.

(يقبلها)

الأم : (وقد زال غضبها) ما كنت أود أن أقوله لك، سأقوله لك غدا، فأنت هذا المساء تبدو مرهقا، يا ولدي.

جول : (وقد فاضت قريحته) ليس صعباً أن نرى مساوىء الماضي عندما نضع الأمور الجديدة في نصابها، لكن أن نكشف يوماً بعد يوم، أن نفضح المظالم . . . حتى عندما نكون متأهبين، ليس سهلا. إننا نعايش بشكل لصيق الظلم بحيث نعتاده، ونجده طبيعيا. لا مفر منه، بل إننا لا ندري أنه ظلم، والمذنبون يحسبون أنفسهم أبرياء. كم في المدينة هذا المساء من أناس سيتناولون طعام العشاء في استحياء، لأن أطفالنا سينامون دون عشاء؟ لا أحد! وكيف لرجل أن يأكل وضميره مستريح بينما يصرخ طفل بجانبه من الجوع؟

جوليا : هل سيأتي مندوب اتحاد العمل العام من باريس؟

جول : نعم، من أجل اجتماع صباح الغد. (صمت) غرفة التجارة تدخلت ضدنا.

جوليا : أتستغرب ذلك؟

جول : قبل الإضراب ما كانوا متفقين أبدا، لكن منذ الإضراب هم متواطئون في البورصة فيما بينهم. الشرطة تبحث بين المضربين عمن ليس لديهم إقامة، هؤلاء الذين كانت تغض الطرف عنهم. غدا سيخيّرون بين استئناف العمل، والسجن.

الأم : لا تعمل من الحبة قبة، ستستأنفون العمل، هذا كل ما في الأمر!

جول : . . بالنسبة لعامل لم يأكل طوال خمسة عشر يوما، فإن العودة إلى العمل مطأطىء الرأس، أمام رؤساء الورديات الهازئين . . .

جوليا : مادام اتحاد العمل العام الباريسي يرسل إليك مندوبا يساعدك.

جول : هذا أملي الوحيد الآن.

الأم : لقد سخَّنت لك الحساء.

جول : شكراً يا أمي، لست جائعاً.

الأم : ألست جائعا؟

جول : أكلت مع رفاقي في الندوة.

الأم : أترفض طبق حساء والدتك؟

جول : جاستون على وشك الحضور. أعطيه إياه. فهو لا أم له، ثم إنه مرهق أكثر مني، مسكين، أمين صندوقنا الخاوي!

الأم : لقد نشدت سعادة الكل، وها أنت محزون، فوق ذلك لا أحد يريد الإصغاء إليّ، ليس للفقراء إلا العمل، والسكوت، ورحمة الله!

جول : من قال لك هذا؟ قساوسة أغنياء؟

الأم : هناك أيضاً قساوسة فقراء.

جول : ليس في الفاتيكان! ليس في روما! والفاتيكان الموشى بالذهب هوالذي يأمر وينهي!

الأم : لكن ماذا يهمك من كل هذا الكلام، في مطبخنا التائه في عالم الفقراء؟

جول : لو كان يسوعك حيا اليوم، لكان معي وسط هباب الفحم، حيث لم ألتق أبداً بقس واحد. (يلوح كابرون في الفناء، وهو مخمور تتبعه زوجته).

كابرون : عندما لا أعمل تقومين بالزعيق، وعندما أعمل تزعقين أيضا.

السيدة كابرون : سيخجل أولادك منك في المدرسة.

كابرون : أما يجب أن يأكل أولادي؟

السيدة كابرون : (وقد دخلت إلى منزل دوران) أتعلمون من أين جاء زوجي؟ من أرصفة الشحن!

كابرون : (وقد دخل بدوره يخاطب جول) حسنا! دعني أقل لك وأمام والدتك أيضا. لا شيء يستحق المباهاة عندما تعكرون صفو حياة الأسر!

السيدة كابرون : منذ ستة أيام يعمل على مدار الساعة!

كابرون : وهي تقول إني كسول!

السيدة كابرون : كم كنت أخذت، يا سيد دوران، لو أنه أضرب مثل الآخرين؟

جول : خمسين سنتيما في اليوم له، وقدر ذلك لزوجته، وقدر ذلك أيضا لكل ولد. لكن اعتبارا من الغد، سيكون المبلغ خمسة فلوس فقط في اليوم.

السيدة كابرون : جوليا، كم يكون ذلك في ستة أيام؟

جوليا : ستة أضعاف الفرنكين ونصف، خمسة عشر فرنكا.

السيدة كابرون : حسناً! سأحتفظ بفرنكاتي الخمسة عشر، وهاك من أجل صندوق التكافل ما تبقى مما أحضره لي.

كابرون : أتمولين الإضراب بنقودي؟! لا أظنك مخمورة؟ والله لن تري بعد الآن لون عملتي، وغداً تطلبين من النقابة أن تطعمك. أولاً هذا حقك، ما دمت أنا أيضا من النقابة.

جول : كلا، ما عدت في النقابة. لقد فصلت.

كابرون : فصلت؟

السيدة كابرون : لأنك تعمل أيها المحتال!

جول : لقد دعوت إلى التصويت على فصلك في اجتماع حضره جميع الأعضاء! إن اسمك قد شطب من لوائحنا!

كابرون : هذا أفضل! لن أجلس بعد الآن وسط شلتكم، شلة الكسالى! فأنا رجل.

(يخرج)

السيدة كابرون : سأحاول أن أستبقيه في البيت يا سيد دوران، كيلا يعود إلى المرفأ. (تخرج وتبحث في الظلام) أين أنت أيها السكير؟

جول : والله يا أمي، لو أحاطتنا رحمة الله لتكاثرت هذه القطع النقدية، مثل خبز الصحراء، ولأنقذت إلى الأبد الناس من براثن الفقر. أنا نفسي لا أراني جديرا بأن ألمسها. أنت يا جوليا التي ستأخذينها غدا إلى صندوق التكافل.

السيدة كابرون : (وقد وجدت زوجها مختبئا في الفناء) ها أنت أيها الثعلب الماكر!

كابرون : لو استمر دوران في التدخـل في أمور أسرتي، فسوف أبقر بطنه، أتسمعين!

(يترنح)

السيدة كابرون : اصعد إلى البيت واذهب إلى فراشك، أيها الشقي!

(مندوب اتحاد العمل العام، برفقة عاملين)

عامل : من هنا.

المندوب : شكراً أيها الرفاق، لا جدوى من انتظاري. سأتدبر أمر عودتي مع دوران.

العامل الآخر : يمكننا أن نمر عليك فنأخذك إلى قاعة فرانكلين.

المندوب : إذاً، نحو الساعة الحاديـة عشرة. شكراً، إلى اللقاء (يقرع المنـدوب باب منـزل دوران. يتوجـه جـول مستغربـا إلى الباب ويفتحه) المواطن دوران؟ تـافال ريمون، مندوب اتحاد العمل العام.

جول : أهلا بك أيها المواطن! إننـي أنتظرك بفارغ الصبر. (يقوم بتقديمه إلى أمه وجوليا). أمي وصديقتي.

المندوب : (متعب وسئم) أتسمحون؟ (يتناول كرسيا) إني معتاد على التطـواف في جميـــع أنحــاء فـرنســا، لكـــن هــذا المساء... (لجول) كنت أريد أن أراك وحدك قبل اجتماع صباح الغد.

الأم : ما قولك في طبق حساء ساخن؟

المندوب : أكون شاكرا لك جدا.

الأم : أيمكنك أيضا أن تقول لابني أن يتناول بدوره طبقا معك؟ (المندوب ينظر إليه مستفهما) إنه يرفض أن يأكل بدعوى أن الآخرين جياع.

المندوب : (مذهولا) ترفض أن تأكل؟

الأم : إلى من عساه يسيء إذا ما تناول طبق حساء عند والدته؟

جول : كيف يمكنني أن أطلب من الرفاق أن يموتوا جوعا؟ ما لم تكن معدتي فارغة أولاً؟

المندوب : أيها المواطن دوران، ليست معدتك الخاوية هي التي ستجعل مطالب العمال تتحقق، بل القرارات التي ستتخذها في هدوء، ووضوح الأفكار. المجاعة ممتازة، لكن من أجل حشد قواتنا فحسب. وما دام أرباب العمل من الغباء بحيث يطعمون العمال طوباً بمرق الحصى، فلنغتنم الفرصة! لكن علينا أن نعطي هؤلاء العمال المضربين أوامر مجدية. وليس طبق الحساء هو الذي سيمنعنا من إعداد هذه الأوامر. بل العكس تماما هو الذي سيساعدنا على ذلك.

الأم : (فرحة، حاملة طبق حساء) جوليا، هاتي أيضا السراطين التي اصطادها عمك يوم الأحد. إن كنت تحبها...

المندوب : أجل أحبها، وأنا لا آكل منها غالبا للأسف.

الأم : ليس لأن هذا يغذي، لكنه يساعد على الحديث.

جوليا : إليكم الخبز والشراب. والآن ندعكما وحدكما...

الأم : لكن أين ستنام؟

المندوب : عند رفيق، قرب قاعة فرنكلين.

جول : سأرافقك إلى هناك أيها المواطن.

جوليا : (للمندوب) إذاً نادني قبل رحيلك. لأذهب معكما، كي أؤنس جول في طريق العودة.

المندوب : لا داعي لذلك، سيأتي بعضهم في طلبي.

الأم : وعليه أن ينهي حساءه تماماً، أليس كذلك؟

جوليا : هيا يا أمي، (لجول) سأقوم بالحياكة في الغرفة المجاورة.

الأم : تصبحون على خير.

(تخرجان)

المندوب : وبعد، أيها الرفيق، كم يوماً تراك تستطيع الصمود؟

جول : كم يوماً؟ قدر ما يلزم! الفشل غير مقبول على الإطلاق. إن فشلنا ضاع كل شيء.

المندوب : لا شيء يضيع أبداً. أحياناً، محليا ومؤقتاً. وحتى عندما نظن أنه قد ضاع كل شيء فإننا نجد دائما شيئاً ننقذه.

جول : الشركة تحوّل سفنها إلى موانىء أخرى، ونقابات فحم الموانىء الأخرى لم ترفض العمل.

المندوب : هل طلبت ضمانات قاطعة قبل البدء بالإضراب؟

جول : لا.

المندوب : وبعد؟!

جول : لكن لو حدث إضراب في دنكارك، أتظن أني كنت سأقبل أن نعمل هنا؟ من جانب آخر، هناك تعاونية تفريغ يقال إنها عمالية، لكنها في الواقع رأسمالية، تمتلك آلات. . . قبل الإضراب لم يتفقوا أبداً حول أسعار التأجير. . . لقد رضيت التعاونية أن تلعب دور الخائنة للعمال. إن في حوزة التجار الآن آلات أوتوماتيكية. . وفي سبيل تأمين تشغيلها يبحثون عن خونة يدفعون لهم ما يشاؤون لإفشال الإضراب، في حين يرفضون زيادة العشرين فلساً التي نطلبها.

المندوب : ماهي الإجراءات التي اتخذتها لمنع الخونة من العمل؟

جول : نفصلهم من النقابة.

المندوب : وهل هذا سيمنعهم من العمل؟

جول : في سبيل الحصول على حق جمع التبرعات من أجل صندوق التكافل، فقد التزمت أمام العمدة بأن أحترم حرية العمل.

المندوب : وماذا بعد؟

جول : كيف«وماذا بعد»؟ الكلمة المعطاة يجب أن تحترم.

المندوب : لأنك تظن أن أرباب العمل، عندما يعدون بشيء. . .

جول : هل بدأت المعركة كي أشبه رب عمل؟

المندوب : عندما يبدأ المرء معركة، فعليه أن يكسبها. وليس بالعدالة نكسب المعارك، بل بالقوة. يجب أن تكون الأقوى، هذا كل شيء. دعنا نعد إلى الأمور الجادة حسب تقديراتك، إن استطعت أن تمنع إقلاع كافة السفن، فكم من الوقت يمكن للمرفأ أن يصمد؟

جول : شهراً، وربما ستة أسابيع.

المندوب : وماذا عن تأمين الفحم للمصانع؟

جول : إنهم الآن يـزودون المصانـع مـن مخزونـات المنازل المعـدة للشتاء.

المندوب : أتراك ظننت أن مـن الدهاء أن تبدأ إضراب فحـم في عز الصيف؟

جول : ما كنا نستطيع الانتظار أكثـر. لا يمكنك أن تتصور فقر رفاقي. وقد تم التصويت على الإضراب بالإجماع.

المندوب : أجل، حتـى خونـة اليوم صـوّتوا عليـه... إن سراطين والدك شهية بالفعل. اشرب. هـل والدك هو الذي يعد هذا النبيذ؟

جول : شكراً، سأشرب الماء.

المندوب : أحقاً تقول! لقد قالوا لي ذلك. لكن، هل تشرب الماء حتى عندما تكون وحدك؟ لقد أخبرت أيضا أنك، منذ سنتين شهدت ضد عامل في محكمة العمال.

جول : كان قد سرق.

المندوب : إن كـان سرق، فإن وضعـه كعامـل هو الـذي ساقـه إلى ذلـك. إن وضعـه كعـامـل هـو الـذي كـان يستحـق التجريم، لا العامل نفسه!

جول : لم أكن قاضياً، بل شـاهداً، وقد شهدت السرقة. يجب ألا نشكـك أبداً في قـول نقابي. هـل يحق لنا أن نلطـخ قضية عادلة؟

المندوب : كل شيء عادل في قضية عادلة.

جول : حتى الكذب؟

المندوب : كل ما يخدم قضية عادلـة يغدو عادلاً. وكل ما يسيء إلى قضية عادلة يجب أن يستنكـر. ليس لأن الإضراب عدل ترانا نبـدؤه، نبدؤه عندما نكـون متأكدين مـن نجاحه. نحن لسنـا سياسيين، لا أنت ولا أنـا. نحن نقـابيون، هذا كل ما في الأمر. لكن خارج النقابة أنت فوضوي؟

جول : فوضوي ثوري.

المندوب : أخبرت أيضاً أنك من أعضاء رابطة حقوق الإنسان؟

جول : كي أدافع فيها عن كرامة الإنسان.

المندوب : كرامة الإنسان تأتي لاحقـاً أيها المواطن دوران. في الوقت الراهن نوجه الضربة، وكـن واثقا من تجربتي أن لا كرامة إنسانية في الحرب! أجـل الحرب! والحرب الاجتماعية من أشرس الحروب.

جول : ما المساعدة التي تأتيني بها من باريس؟

المندوب : إنها مساندة معنوية دون تحفظ.

جول : وعملياً؟ إذا ما تكلمت مثلك.

المندوب : يبدو لي أن إضرابكم فاشل!

جول : وهل ترضى بفشل إضرابنا؟

المندوب : أتعتقـد أنه يمكـن إجراء حـوار مع المسئولين من أجـل استئناف العمل؟

جول : إنهم يرفضون استقبالنا. إنهم يريدون تحطيمنا، وإذلالنا وإفقارنا.

المندوب : بالطبع! ضع نفسك مكانهم.

جول : مكانهم؟ معاذ الله.

المندوب : أنت مخطىء يجب أن تضع نفسك دائما مكان الآخر. فمن ذلك المكان، إن أحسنت التفكير، سترى نقط ضعف غريمك، فتوجه إليه الضربة هناك.

جول : لم أنظم مباراة دومينو. ثم إني عندما أضع نفسي مكان الآخر، فليس هذا من أجل ضربه... حينما ترى بؤس رفاقي...

المندوب : وبعد إضراب فاشل، هل سيكونون أقل شقاء؟

جول : أيها المواطن المندوب، هل لي أن أسألك لم تجشمت مشقة ركوب القطار؟

المندوب : أولاً لأنك طلبت مساعدتنا، ثم لأننا نريد أن نساعدك، إن كان ذلك ممكناً.

جول : صندوقنا فارغ. هل يمكنك أن تملأه؟ الموانىء الأخرى تقبل تفريغ السفن التي كان يجب أن تجمّد هنا. عليك أن تؤمن لنا إضراب عمال الفحم في الموانىء الأخرى... المندوب... موانىء فرنسا، ونافار، والخارج؟ وأيضا عمال السكك الحديدية الذين ينقلون بضائع هذه السفن، وعمال البريد والبرق الذين ينقلون الأوامر، وموظفي الصحف التي تسرد الأكاذيب؟ وبكلمة موجزة، نريد إضرابا شاملا...

جول : لم لا؟

المندوب : . . . وعالمياً؟ أليس كذلـك؟ أتظن أنه لو كان الإضراب الشامل ممكناً اليوم، كنا انتظـرنا كي تعطي إشارة البدء؟ وخاصة أنك تبدو غير قادر على تحديد ساعة البداية.

جول : حسناً! إن كنت ركبت القطار كـي تثبط معنوياتي، فقد ركبت القطار بلا طائل!

المندوب : لا أريد تثبيـط معنوياتـك، أنا أحلل الموقـف، على كل حال سـأتكلم غدا في قاعـة فرنكلين، فأطلب مـواصلة الإضراب إلى أبعد حد. . .

جول : مع علمك أنه فاشل؟

المندوب : في سبيل إنقـاذ رفاقـك من هبـاب الفحم، ولـو لم يكن عليك أن تقتل سوى رب عمل واحد، فهل تقتله؟

جول : ليس هذا وقت السؤال.

المندوب : بـل وقته في نظـر أربـاب العمل. فهـم مـن أجل إنقـاذ موقفهم، إن اضطروا لقتلك، فلن يترددوا في ذلك.

جول : ما أدراك؟ ولماذا نحذو حذو ما نريد الخلاص منه؟

المندوب : مع السفلة كل شيء مباح.

جول : طبعاً أنت ضد الصراع المسلح؟

المندوب : وبعد؟

جول : لكنك من أولئك الذين قد يشهرون السلاح في وجه دعاة الصراع المسلح؟ فتتمكن من خوض الحرب، لأنك ضد الحرب! أما أنا فما أريده هو الخروج من الحرب. لن تتكلم غدا في الاجتماع. أنا وحدي من سيخبرهم بالحقيقة. (ينادي) جوليا! جوليا! سأستدعي الرفاق حولي، فأطلب إليهم أن يبقوا إلى جانبي ليل نهار في ساحة فندق دوفيل، بلا طعام ولا حراك، كالأموات إلى أن يخجل أرباب العمل من أنفسهم! (يخاطب جوليا التي دخلت) أتسمعين يا جوليا، كأموات يخنقهم الهباب والشقاء!

المندوب : أيها المواطن دوران، عندما تخسر المعركة، يجب عليك أن تتقبل الهزيمة. أنت إنما ترى نقابتك، ورفاقك، والوجه القذر والباسم لرؤساء الورديات، أما أنا فأرى مجموعة متكاملة. ثم من يدري؟ كل شيء قد يتغير غداً، أول إضراب قمت به، كنت في السابعة عشرة من عمري. ذلك الإضراب أيضا كان يبدو محكوما عليه بالفشل. لكن أصحاب المنجم استعانوا بالفرسان. وقد سقط قتيل، إنه والدي.

جول : والدك؟

المندوب : إلى جانبي. البطن مفتوح بضربة سيف. إني صبي قديم رأى أحشاء والده الحي، وكنت أنظر إليه وهو يتلوى من الألم والذعر، وهذه اليد قد تمرغت في الدماء السائلة. لكن، في حيّنا، لم يستطع أصحاب المنجم أن يتخلصوا من

تلك الدماء! لقد ظلوا لسنوات يتجنبون السير على بلاط الشارع حيث لقي والدي مصرعه. (يضحك) دعهم يغتالوك غداً، أيها الرفيق دوران، ولك عليّ الإضراب الشامل لدفنك! (ثم جاداً) أنا أيضا، حتى ذلك اليوم، كنت عاطفيا. لكن أرباب العمل عملوا على تربيتي. وأنا الآن من جنسهم. أقاتل مثلهم ــ ضدهم! الخلاف الوحيد هو أني أقوم بعملي مجانا، دون مقابل ـ وإن عملت فمثلك يا مواطن دوران، كي أحرر الطبقة الكادحة.

(يدخل والد دوران وعلى رأسه قبعة مستديرة)

الأب : هل تحرران هنا الطبقة الكادحة؟ إنكما والله تستعدان للتحرير بشكل مضحك!

جول : (للمندوب) إنه والدي! أبي، هذا مندوب باريس.

الأب : أتيت في وقتك! يمكنك أن تقول لأتباعك إني بفضلهم وفضل الآخرين، قد سرّحت من عملي، بعد ثلاثة وعشرين عاما من الخدمات الجليلة. نعم لقد اعتبروني عنصرا مريبا مشاغبا، ولا أعلم ماذا أيضا، إلا أنه ما عاد يحق لي أن أذهب غدا إلى العمل. ما عاد يحق لي أن أعمل! لا أدري إن كنت أنت أيضا قد تسببت في طرد والدك؟

المندوب : ما دعواهم في طردك؟

جوليا : لقد قام والد جول بتوزيع قوائم الاكتتاب من أجل صندوق مساندة الإضراب.

جول : أنت؟ إنك إذاً توافقني الرأي؟ ولو تدري أن والده هو. . . عفوك أيها الرفيق. . .

المندوب : هل كان يحق لهم تسريحك؟ لا، إذاً فأنت تدرك الآن ضرورة معركتنا.

الأب : لقد قالوا لي: «ابنك الذي يدمر المرفأ يسكن الآن معك، إنك تطعمه. بماذا؟ بالنقود التي نعطيك إياها. ضع نفسك مكاننا، أتريدنا أن نطعم من يقاتلنا؟ اطرد ابنك من المنزل، أو نطردك نحن».

جوليا : لا تيأس يا جول. ليست بعد المعركة الفاصلة. والمعركة الفاصلة فقط هي التي ستربحونها كلكم.

الأب : ما ظننت قط أنه قد يحدث منهم ذلك، هم الذين كانوا يبدون في غاية الرقة والتهذيب. الخنازير! الخنازير!

المندوب : نعم، يا مواطن دوران، إن لعبة الدومينو التي كنت تتحدث عنها، سوف نربحها لأن انتصارنا هو في منطق التاريخ، ففي البذرة تتواجد الزهرة والثمرة. لسنا سوى بستانيين، لكن لنحاول ألاّ نغرس في الظل الأزهار التي تحب الشمس، وفي الطين الأشجار التي تحب جذورها الحصى، ولنتسلح بالصبر. على البستاني أن يعرف كيف ينتظر الموسم. ليس عام ١٩١٠ بالتاريخ الأزلي. إنه عام يمضي. لن يتوقف التاريخ عند عام ١٩١٠. الآن انظر إلي وثق بي، الأيام تقترب.

جول : والدي، سامحني، لكنهم هم المذنبون.

جوليا : ستتضح الأمور غداً.

جول : (للمندوب) لكن غداً. غداً في الاجتماع...

المندوب : هل يمكنك أن تصمد ثمانية أيام أخرى؟ حسناً، من الآن وحتى ثمانية أيام سنرى.

جول : أنا الذي كنت آمل أن تساعدني، لأني دون مساعدتك...

(يخرج المندوب. يحتضن جول جوليا. تحضر الأم التي نهضت لتوها من الفراش، وقد وضعت شالا على كتفيها)

الأم : (للأب) ماذا جرى؟ ماذا قال لك أصحاب الشركة؟

الأب : أصحاب الشركة؟ إنهم خنازير!

جول : أنجعل أيضا النساء والأطفال يتضورون جوعا لفترة ثمانية أيام بلا طائل؟ وقد لاموك على إطعامي؟ ما كان لي أن أتناول الحساء! ما كان لي أن أتناول الحساء! جوليا، كيف السبيل إلى إخراج هؤلاء الرجال من الهباب حيث يختنقون؟

(أضواء على....)

المشهد السابع

(. . . الوقت ليل. المرفأ، الرصيف. قرب كومة من البراميل أربعة عمال مضربين).

المضرب الأول : ها هي البراميل.

المضرب الثاني : أهي التي نبحث عنها؟ متأكد؟

المضرب الثالث : كل التأكيد. في هذا المكان فرّغوا السفينة «ليزانتي».

المضرب الرابع : يا لرائحة الروم الحلوة!

المضرب الأول : ناولني مثقابا.

المضرب الثاني : أنت، اذهب وراقب في الجوار، لن أشرب كل شيء، وحدي.

المضرب الأول : إنه روم من الصنف الممتاز!

المضرب الثالث : إليك الشافط.

المضرب الثاني : لا تنم فوق البراميل!

المضرب الثالث : (يخاطب الآخرين) ماداموا لا يعطوننا طعاما، فلا أقل من أن يعطونا الشراب!

المضرب الثاني : (للأول) ألم تنته بعد من الشرب؟

المضرب الرابع : لا تأت على البرميل.

المضرب الثاني : اصمتا، ولا تزعجانا قبل أن يأتي دوري.

المضرب الأول : (للثالث) دورك!

المضرب الرابع : ثم إن الروم مشبع بالسكر، إنه مغذ!

المضرب الأول : إنـه سهل على المعـدة، على الـرغـم من أني لم آكـل منـذ يومين.

(في الجهة المقابلة، عند مطلع السلم).

دولاقيل : ألست مجنوناًإذ تذهب في هذه الساعة إلى الرصيف؟

كابرون : لقد سئمت من فحمك. ولماذا لا أذهب إلى الرصيف؟

دولاقيل : لأنهم إن صادفوك فسوف يقطعونك إرباً.

كابرون : يقطعونني، أنا؟ (صارخا) فليأت هؤلاء العاجزون!

دولاقيل : ما دام لديك سرير على متن السفينة!

كابرون : صحيح إنما لي أصدقاء في المدينة. إن لديّ زوجة وثلاثة أولاد. وأنـا لا أريـد أن يتسكـع أبنـائي الثـلاثـة في الشوارع.

دولاقيل : مادام لديـك كل الخمر التي تريدهـا على متن السفينة. لأنه إن قبض عليك الـ. . . . المضربون الغلاة.

كابرون : أي مضربين غلاة؟

دولاقيل : المتضورون جوعا. . .

كابرون : حسناً دعهـم يقتربـوا! (يصيـح) تعـالـوا، يـا شلـة الفاشلين!

دولافيل : (يعطيه مسدسا) خفف من الضوضاء وخذ هذا المسدس.

كابرون : (مندهشا) مسدس؟

دولافيل : إن أزعجوك أطلق في الهواء. فيهربوا مثل الأرانب.

كابرون : معي، سيجد مضربوك العنيدون من يتصدى لهم! لأني عامل كافح دائما ضد البطالة، وهذا هو السبب الذي دعاني لدخول النقابة.

دولافيل : لكنك مازلت نقابياً.

كابرون : كلاّ! لقد قال لي دوران «يجب أن يشطب اسمك»!

دولافيل : هدىء من روعك. ويمكنك أن تقول لهم جميعا إني أشغّل من يريد. وإن هناك طعاما على متن السفينة، وأمكنة للنوم، وثلاثة أضعاف الأجر.

كابرون : أنا أكلمهم؟ سأعاجلهم بطلقات مسدسي إن أرادوا الحديث.

(يصعد دولافيل إلى السفينة. يتقدم كابرون في الظلام. الحانة الخضراء تضيء في البعيد).

المضرب الأول : اثنان وعشرون! هناك شخص آت.

المضرب الثاني : سنعود. ألا تغلق تلك الحانة أبوابها في الليل!

المضرب الرابع : فاخر هذا الروم!

المضرب الأول : (وقد تبين كابرون) من أين أنت قادم؟

كابرون : من أين أنا قادم؟

المضرب الثاني : (بلهجة حادة) أكنت تتنزه؟

كابرون : صدقت يا صاح، إني أتنزه.

المضرب الثالث : والله لو لم تقل ذلك، لما صدقناك.

المضرب الرابع : لو سألني أحد عنك، لقلت له
: «كابرون، إنه يعمل»!

كابرون : وكنت أخطأت، لأني أتنزه كما ترى.

المضرب الأول : تتنزه!

(صمت)

كابرون : وبعد، ماذا في الأمر؟

المضرب الأول : ماذا تريد أن يكون في الأمر! ما دمت تتنزه..

المضرب الثاني : ... وما دمنا نحن أيضا نتنزه...

المضرب الثالث : هانحن جميعا متنزهون.

(صمت)

كابرون : ما قولكم في كأس؟

المضرب الأول : قلنا لك إننا لسنا عطشى!

كابرون : لأنه، لو كنتم عطشى فإن لديّ نقودا.

المضرب الثاني : لديك نقود؟

المضرب الرابع : ومن أين حصلت على هذه النقود؟

كابرون : وكأني بكم لا تعلمون البتة! من ذلك الهباب الأسود اللعين الذي يعلق بأحشائكم مثلما يعلق بجلدكم.

المضرب الثالث : من حسن الحظ أنه يعلق بالجلد، هذا الهباب اللعين، وأنه أسود ولولا ذلك لما لبست الأصفر(*) على الإطلاق؟

(ضحكات باردة)

المضرب الأول : أجل، أجل الأصفر!

كابرون : الأصفر! بيد أني قد شاركت في إضرابكم. . في الأيام الأولى. . .

المضرب الثاني : لماذا تدافع عن نفسك؟ لا أحد يقول لك شيئا!

كابرون : كنت بحاجة إلى الطعام!

المضرب الرابع : ونحن؟

المضرب الثاني : لقد أسأت فهمنا! هذا كل ما في الأمر.

كابرون : إذاً، هيا نتناول كأسا، فتشرحوا لي. . .

المضرب الأول : نقول لك إننا لسنا عطشى

كابرون : ما دمت أنا الذي سأدفع!

المضرب الثالث : أولاً لا شيء عندي أقوله لك. . .

كابرون : هذا لا يمنع من تناول كأس!

المضرب الرابع : (منزعجاً) اللعنة! إننا نقول لك منذ ساعة إننا لسنا عطشى!

كابرون : هل أفهم من ذلك أن الحانة تداينكم!؟

المضرب الثالث : أو تريد تفاصيل؟ إذاً فأنت لست خائناً فحسب، بل جاسوساً أيضا.

---

* يقصد أن كابرون يعمل، مما يؤدي إلى إحباط الإضراب. فلفظة أصفر تطلق في الفرنسية على الذين يكسرون الإضراب.

كابرون : جاسوس؟ أتراني أنعتك بالكسل؟

المضرب الأول : أتنتعنا بالكسل؟

كابرون : وبالتسول!

المضرب الرابع : والله إنك لتستحق الضرب!

المضرب الثاني : نعم، إنك تستحق!

المضرب الثالث : ما دمت عطشان. فسوف نلقي بك في الحوض، فتشرب منه.

كابرون : أتريدون أن تلقوا بي في الماء؟ أنا، البائس، تلقونني في الماء...

المضرب الثاني : مع أصحابك من القطط النافقة، وجرذان المجاري!

كابرون : (خائفا) إنكم لا تخيفونني. لست وحدي، معي مسدس.

المضرب الثالث : (مشدوها) معك مسدس.

كابرون : أحيي به الذين ينظرون إلي شذراً، ويرفضون أن يشاركوني الشراب.

(يخرج مسدسه. صمت)

المضرب الأول : السافل! القذر!

المضرب الثاني : مسدس!

المضرب الرابع : حسنا، سنضربك!

(يهجمون على كابرون الذي يطلق النار)

المضرب الثالث : لقد أطلق الوغد!

(يسقط كابرون)

المضرب الأول : بكعب الحذاء، على فمه، حطموا وجهه!

المضرب الثاني : آه! أيها المعدم!

المضرب الأول : حطموا وجهه!

المضرب الثالث : لقد نعتنا بالمتسولين.

المضرب الرابع : حطموا وجهه!

المضرب الأول : دعه يتسول بدوره! (يمسكون برأسه فيطرقونه بالأرض. بين كل صدمة وأخرى يزعق كابرون) من أجل العمال المضربين.

(ارتطام، صراخ)

المضرب الرابع : اصمت، أيها الوغد!

المضرب الثاني : من أجل نسائنا الجياع.

(ارتطام، صراخ)

المضرب الرابع : اصمت، أيها الوغد!

(ارتطام، صراخ)

المضرب الثالث : من أجل أطفالنا.

(ارتطام، صراخ)

المضرب الرابع : اصمت أيها الوغد!

المضرب الأول : من أجل رفاقنا المضربين.

(ارتطام، صمت)

المضرب الرابع : أفهمت الآن؟

(يحضر رجلا أمن)

رجل الأمن الأول : ماذا تفعلون؟

المضرب الثاني : (مبهوتا)نحن؟

رجل الأمن الثاني : أجل، أنتم!

المضرب الرابع : نحاول أن نشرح لزميل لا يفهم بسرعة . . .

رجل الأمن الأول : لكنه ميت، هذا الرجل!

(يتناول صفارة ويصفر)

المضرب الرابع : كلا، إنه ليس ميتا، إنه يتظاهر بعدم السماع لأنه لا يريد أن يفهم.

(صفير جديد)

رجل الأمن الثاني : لا أحد يتحرك وإلا أطلقت النار!

المضرب الرابع : أتراني مخمورا بحيث أرى الأشياء مضاعفة، إنهما مسدسان!

الخمار : (وقد خرج) أهو شجار آخر. (يقترب ويخاطب رجلي الأمن) ما عاد لديهم نقود، ومع ذلك يسكرون! ينبغي أن نعلم كيف!

المضرب الرابع : (لأحد رجلي الأمن) كنا نفهمه أن ذلك من أجل نسائنا وأطفالنا.

(يحضر رئيس الأمن مع رجل أمن ثالث).

رئيس الأمن : ما هذا؟

رجل الأمن الأول : لقد مات الرجل، أيها الرئيس!

المضرب الرابع : لا يمكن أن يكون قد مات، إذأننا كنا نتحدث فقط!

رئيس الأمن : (للمضربين) ارفعوا أيديكم.

المضرب الرابع : غدا نرفع أيدينا لأني هذا المساء سأنام...

(يتمدد على الأرض)

رجل الأمن الأول : (يركله) قم! وإلا حطمت عظامك!

رئيس الأمن : اطلبوا سيارة السجن، وانقلوا السكارى الأربعة إلى المخفر. (صفير) والآخر إلى المشرحة.

المضرب الأول : لماذا ترسلونه إلى المشرحة؟ أتراه متعباً من جراء العمل؟

رجل الأمن الثاني والثالث

: (وقد راحا يحركان المضرب الرابع) ألن تنهض؟

المضرب الرابع : (وقد أنهض) ما هذه الضوضاء! (يدندن) إنها المعركة الفاصلة، وغداً..

رجل الأمن الأول : ها هو يغني الآن!

المضرب الثاني : (لرجل الأمن) لا يمكنني أن أذهب وأحضر كأسي من على البرميل؟

رجل الأمن الثاني : لا تتحرك وإلا أطلقت النار!

دولافيل : (وقد حضر) هل هناك شجار؟

رئيس الأمن : شجار تحول إلى مأساة! وأربعتهم تفوح منهم راحة الروم إلى مسافة عشرين متراً.

(يسمع صفير)

رجل الأمن الأول : هيا، تحركوا! لقد حضرت السيارة!

المضرب الأول : سحقا لهذه الحياة!

المضرب الثاني : أجل سحقا لها!

المضرب الرابع : ثم لو أنهم يدعوننا ننام.

(يخرج المضربون الثلاثة الأوائل، وقد رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم، مع رجل الأمن الثاني، بينما يستند الرابع على رجل الأمن الأول).

دولافيل : إني أعرفه! هو أحد عمالي.

رئيس الأمن : كيف تعرفت عليه؟ إنه مشوه جداً.

دولافيل : (متكلما بسرعة) هذا مسدسه!

رئيس الأمن : أكنت تعلم أن معه مسدسا؟

دولافيل : لقد أخبرني بذلك وما كنت أريده أن يغادر السفينة...

رئيس الأمن : عليك أن تحضر إليّ غداً لأخذ أقوالك. (للخمّار) وأنت أيضا.

الخمار : أنا لم أر شيئا.

دولافيل : عامل جيد، مجد، جاد، زوجة، ثلاثة أطفال...

رجل الأمن الثالث : (مخاطبا الـرئيس) لا داعي لانتظار السيـارة. يمكنني أن أسحبه من قدميه، فالمشرحة على بعد عشرين مترا...

رئيس الأمن : هيـا افعل، واحضر معـك أوراقـه الشخصية، إن كـان لــديــه أوراق! (يسحب رجل الأمن الثالث كابرون على الأرض ويخرج)

سأكون بانتظاركما غدا كما اتفقنا، تصبحان على خير.

(يخرج من الناحية الأخرى)

الخمار : مع هذا الإضراب الطـويل كان ذلك متوقعـاً. لو أنكم تقللون من الشراب الذي تعطونهم إياه إلى المنازل...

دولافيل : ماذا؟

الخمار : نعـم، مـن جـراء هـذا الإضراب اللعين، فـإن حـانتـي خاوية! الذين يعملون يشربـون مجانا، عندكم، والذين لا يعملون يشربون مجانا، على مرأى مني وتحت أنفي.

(يشير إلى البرميل). الشرطة تعلم ذلك ولا تحرك ساكنا. وبعد يجب أن يعيش كل الناس! ضع نفسك مكاني لقد دفعت ثمن حانتي (صفير سفينة طويل) ومع ذلك تقلع السفـن! إن القيام بـإضراب يستحق العنـاء، فقط مـن أجل الإضرار بالمساكين!

دولافيل : نعم... نعم... وهذه الحادثـة سيكون لها صدى كبير غدا! أنا ذاهب لأتصل. تصبح على خير.

الخمار : تصبح على خير (إنه قريب من البراميل) وها هو كأسهم. أوغاد. (ينادي) مرجريت! احضري لي إناء! إناء كبيراً! هلمي. ولا تحدثي صوتاً (صفير سفينة)

ستار

القسم الثاني

المشهد الثامن

(على منصة مـرتفعة، مزدانة بـالأعلام الحمراء، يخطـب جول دوران، إلى جانبه الشقيقان بوابيه).

جول : رفاقي النقابيين، ليلةأمس، عند مدخل حانة، تضارب بعض السكـارى، وقد لقي عامـل مصرعه (همهمات)، أجل عـامل. لقـد كان خائنـا، أعلم ذلـك. وغدارا، أعلم ذلك. رفيقـا ضالا، حقا! لكنه، على كـل حال، رفيقنا في البؤس. لقد صوت على الإضراب وكان يعمل، أعلم ذلك. إنه كان جبانا. أكـان حرياً أن يكون كذلك لـولا الخمر، والعـوز، ومكـر أربـاب العمل؟ في كـافـة الأحوال ما كان يحق لأحد أن يحاسبـه على خيانته. ثم ألم نعد بـاحترام حرية العمل؟ مـاذا كنا نريـد؟ الإقناع؟ أو الضرب؟ لذا أعلـن أنه مـن المستحيل اليـوم أن نواصـل حركة تحريـر إنسانية ونحن نجر خلفنا جثـة أخ لنا. لقد انتهى الإضراب إذاً. من كل مطالبنا العادلة لن يلبى أي واحد، سنظل أشقياء كما كنا من قبل، إضافة إلى الديون التي سيتوجب علينا دفعها. سيستأنف العمل غداً عند الفجر. لكن وسط الاختناق والفحـم، أستحلفكم بالله

أن تحتفظـوا بذكـرى اتحادنـا، لأن الأيـام غدت قـريبـة! عندما تتشـابك أيدي عمال العالم قـاطبة، كلهم، في آن واحـد وأمام ذلـك الثبـات الرهيـب ستتفكـك الرابطـة العاجـزة لأصحاب الشركات. أيها الـرفاق، إننـا ونحن نفكـر في هذه المعـركة الفـاصلة سنعـود غداً إلى الهبـاب شامخي الـرؤوس. بلا يأس، لأنه لا يحق لمن ينـاضل في سبيل الحرية أن ييأس. سنعود جميعـاً، بلا دموع، لكن ونحن نشد قبضتنا، دعونـا ننشد قبل أن ننصرف النشيد الذي سيوصلنا يوماً إلى الفوز!

(ينهـض الشقيقـان بـوابيـه، ينشـد المضربـون نشيـد الانترنـاسيـونـال. تنطفـىء الأنـوار، لتضـاء تحت المنصة. . .)

المشهــد التــاسـع

(. . . غرفة قاضي التحقيق . القاضي ورئيس الأمن)

رئيس الأمن : كان الأنفـار الأربعة قد مضى عليهـم يومان بـلا طعام، ومع ذلك فقد تجرعوا لتوهم برميلا من الروم. وفي المخفر راحوا يتمتمون بكلام مبهم، وقد اضطررت في مكتبي إلى إفاقة أحدهم وكان قد نام أثناء استجوابي له.

قاضي التحقيق : هل أربعتهم من أصحاب السوابق؟

رئيس الأمن : ثلاثـة، اثنان منهـم يمكن تـرحيلهما، أما الضحيـة فهو أيضا صـاحب سوابـق، وكان قد عمـل يومين وليلتين، وفي حالـة سكر شـديد هو أيضـا. هل شعـر بالخوف؟ محتمل من سوء حظه أنه كان مسلحاً. أمام المسدس فإن الآخرين بدلا من أن يهربوا، انهالوا عليه ضربا. . .

القاضي : ضرب أدى إلى الوفاة؟

الرئيس : وإن جـاز لي القول، مـن غير قصد، إننـا حيال شجـار سكارى تقليدي، إلاّأنه صباح هذا اليوم جاءني شخص يدعـى سيفان فأخبرني أنـه قد تـم التصويت، في نقـابة عمال الفحم منذ ثـلاثة أسابيع، وبنـاء على اقتراح قدمه دوران، على قتل كابرون، برفـع الأيدي، علناً، في قاعة فرانكلين. لا شيء غير هـذا. وأن فريقـا من الفتـوات، وسكيرينـا الأربعة قـد كلفوا بـالمهمة. لقـد طردتـه. ولم

يلح. إن سيفان هذا جاسوس للشركة، أبله كالحمار، وقد أراد أن يظهر إخلاصه!

(يدخل شرطي فيناول ورقة مطوية لقاضي التحقيق).

القاضي : (للشرطي) أدخل هذين السيدين. (للرئيس) إن السيدين بوجنهارت وروسيل يطلبان الإذن بالمقابلة!

الرئيس : حسناً، يا سيدي قاضي التحقيق، إني ذاهب.

القاضي : ماذا يريدان؟ إن الميتة المأساوية للسيد دي سيمنز في لندن، والتي مضى عليها أكثر من شهر، ليست من شأننا... من حسن الحظ! أظنك تدرك الأمر. طلب أو عدم طلب تشريح الجثة!

(بأدب جم وبقبعتين مستديرتين عاليتين يدخل الرجلان فيحييان رئيس الأمن الذي يهم بالخروج)

بوجنهارت : (ينحني) سيدي قاضي التحقيق.

القاضي : أقدم إليك رئيس الأمن.

روسيل : نعم المصادفة. سيمكنك، يا سيدي رئيس الأمن، أن تؤكد لقاضي التحقيق المعلومات التي نحملها له.

أوليفييه : إن عاملا من عمال مؤسساتي، قد قتل أول أمس على رصيف الشحن!

القاضي : إنه يدعى كابرون، وقد توفي متأثرا بجراحه...

روسيل : في كمين مدبر.

(صمت)

القاضي : مدبر؟ (بعد نظرة متبادلة مع رئيس الأمن) إني أستمع إليكما، أيها السيدان.

أوليفييه : إني برفقة سكرتيرنا العام الذي، بعد تحقيق فوري، اكتشف الأسباب المريبة لهذه القصة المحزنة...

روسيل : وهي ليست بالعراك المألوف من أجل السرقة، بل جريمة مدبرة تم تنفيذها بأمر. إن موت كابرون المسكين قد قرر وصوت عليه، لثلاثة أسابيع خلت، في قاعة فرنكلين، خلال اجتماع لنقابة عمال الفحم المضربين.

رئيس الأمن : (وقد فقد أعصابه) إنك تمزح!

أوليفييه : ليس من عادتي، يا سيدي رئيس الأمن، أن أزعج نفسي وأزعج الآخرين كي أمزح.

روسيل : بعض المضربين اقترحوا أول الأمر أن يتم تلقين كابرون درسا قاسيا. فأجاب دوران أمام سبعمائة شاهد «التأديب لن يفيد في شيء. يجب قلته هو وكل من يعمل».

الرئيس : لقد حضرت بنفسي جميع اجتماعات النقابة...

أوليفييه : أولا يشير أي من تقاريرك إلى هذه الدعوة إلى القتل؟

روسيل : كل معلوماتنا متوافقة وهناك ثلاثون شاهداً ينتظرون الآن أمام غرفة السيد القاضي. بل إن النقابة قد اختارت مجموعة من الفتوات لتنفيذ هذه المهمة.

الرئيس : كلا ثم كلا، هذه المجموعـات تم تشكيلها بالاتفاق مع السيد العمـدة، مقابل احترام حـرية العمل، مـن أجل جمع التبرعات في المدينة.

أوليفييه : مرة أخرى، يا سيدي رئيس الأمـن، لنكن جادين. هل كانوا بحاجة إلى «فتوات» من أجل جمع التبرعات؟

روسيل : ... من أجـل استعطاف الناس؟ هـذا قليل الاحتمال. إن أطفالا شاحبين كانوا يستـدرون بشكل أفضل عطف مواطنينا، العاطفيين جدا أحيانا.

القاضي : (لرئيس الأمن) ألا ترى أن فرق الفتوات تلك قد حاولت بشكـل متقطـع أن تثير الشغـب في الأماكـن التـي كـان العمل مستمرا فيها؟

الرئيس : يعلم السيد روسيل، كما أعلـم، أن المضربين قد احترموا حرية العمـل. ثم إني تلقيت من الحكـومة أوامر صريحة قام نائب العمدة...

أوليفييه : دعني أشكـك في صدق أوامـر حكومـة يترأسها السيـد آريستيد بـريان الـذي كان، في بـداية حيـاته، الـداعي للإضراب الشامل والانتفاضة العمالية.

الرئيس : إذاً، فـإن اللقاء والشجـار والتضارب ـــ الـذي ما كـان ليؤدي إلى الوفـاة ـ كان متعمداً من قبـل هؤلاء السكارى الأربعة؟

روسيل : ألا يثبت حمل كابرون لمسدس أنـه كان يشعر أنه مهدد، وبالتالي، أن الحادث كان «متعمداً»؟

أوليفييه : لم أستمع إلى الشهود الذين أخبروا سكرتيرنا العام، لكن أؤكد منذ الآن أن الحسنى أو التغاضي لن يكون مقبولا إزاء دوران، سكرتير نقابة هدفها إفلاس المرفأ.

الرئيس : أفهم من كلامك أن شهودك سيحاولون أن يجعلونا نصدق أن دوران هذا، الذي أعرفه، أجل الذي أعرفه كل المعرفة . . .

روسيل : وأنا أيضا!

الرئيس : . . . كان من السذاجة بحيث دعا سبعمائة شخص إلى التصويت برفع الأيدي في مكان عام، وبحضور رئيس الأمن، على اغتيال رجل؟

روسيل : لا يقول شهودنا إنك كنت حاضرا ساعة التصويت. ألم تتغيب أحيانا . .

الرئيس : لدي داخل النقابة خمسة مرشدين لا يعرفون بعضهم بعضا، ولا أحد منهم أخطرني؟ إن دوران رجل هادىء، شارب ماء، عصامي عاطفي . . .

روسيل : أليس أستاذه الروحي هو رافاشول(*)؟

الرئيس : لن تجعلني أعتقد أبداً أن دوران قال «يجب قتل كابرون» أو فكر في ذلك.

روسيل : سيكشف التحقيق جملة من الأشياء التي يبدو أن رئيس الأمن يجهلها. يقولون، ويعيدون في الأوساط القريبة من دوران وكابرون إنه، إن كان كابرون قد اختير من بين

---

* رافاشول: (١٨٥٩ ـ ١٨٩٢) فوضوي فرنسي انتهى به الأمر إلى المقصلة.

آخرين ليقتل في سبيل إرهاب العمال المخلصين لشركتنا، فهذا لأن موت كابرون، فوق ذلك، يسوي الأوضاع الداخلية لحياة السيد دوران. عندما أصررت على أن أنقل بنفسي تعازي شركتنا إلى أرملة الضحية المسكين كنت أحمل إليها مساعدة فورية: ألف فرنك منحها رئيسنا وخمسمائة فرنك قدمها تجار المدينة. أقول إن أرملة كابرون التي استقبلتني واقفة ــ علما أنه كان هناك كرسيان في منزلها البائس ـ رفضت ذلك المال الذي كنت أحمله لها. أعترف أن الدهشة قد عقدت لساني، ومع ذلك كانت هناك مفاجأة أخرى: فهذه الأرملة الغريبة كانت ترفض حتى أن تتقدم بشكوى ضد قاتلي زوجها!

لا تجهل، يا سيدي رئيس الأمن، إن كابرون ودوران كانا جارين. لقد كان دوران، وهو يعيش منفصلا عن زوجته ريثما تنتهي إجراءات الطلاق، يرى من الصباح إلى المساء أرملة كابرون المستقبلة، بينما عاملنا المخلص يعمل، من جهته، من الصباح إلى المساء، وأحيانا من المساء إلى الصباح، لكسب قوت عياله. وجملة القول إنهم لم يقتلوا كاسر إضراب فحسب، بل أيضا نوعا آخر من كاسري الإضراب، أي زوجا مزعجا. كل ذلك، ياسيدي القاضي. مجرد افتراضات وإشاعات مشوشة. وتحقيقك سيكشف لنا الحقيقة حتما.

الرئيس : سيدي القاضي، هل تريدني في شيء آخر؟

القاضي : ليس في الوقت الحاضر.

الرئيس : (محييا) طاب يومكما أيها السيدان.

الآخران : (ينهضان) طاب يومك، أيها السيد رئيس الأمن.

(يخرج رئيس الأمن)

أوليفييه : إني آسف من أجل رئيس الأمن لأنه أغفل أن يشير في حينها إلى هذه الدعوة للقتل. وهو خطأ مهني جسيم. فليتدبر أمره مع نائب الجمهورية الذي سألقاه غداً. لكني لن أدع، في سبيل التستر على أخطاء رئيس الأمن، جريمة اجتماعية تتحول إلى مجرد مشاجرة بين سكارى.

روسيل : إن أحد رؤساء الورديات موجود هنا، مع بقية شهودنا الذين ينتظرون...

أوليفييه : سيدي رئيس التحقيق، كنت لآسف أن أراك تضطلع بالمسئولية الكبيرة لقضية ستتكلم عنها غداً كل الصحافة الفرنسية التي سيتم إبلاغها من قبلنا، لولا علمي بشعورك بالواجب، ووطنيتك، ونفورك من كافة أعمال العنف النقابية والفوضوية التي يجب قمعها...

روسيل : ... إن كان لا يزال ثمة وقت! وربما، للأسف، ما يكاد يكفي من الوقت!

القاضي : هل لي أن أسألك كيف، تتقبل السيدة دي سيمنز الفاجعة الأليمة التي حلت بها بهذا الشكل المفاجىء؟

أوليفييه : اعتادت شقيقتي مذ كانت يافعة على الرضوخ لمشيئة الله، إنها تسعى إلى أن تجد في حزنها أسباباً تدعوها للأمل. فالله لا يبتلينا أبداً بالنوائب عبثا.

(تحيات وانصراف)

القاضي : (يروح ويجيء، في مكتبه، ثم) بئس الأمر! بئس الأمر! وبئس الأمر!(يرن الجرس، يدخل شرطي) قل للسيد دولافيل أن يدخل.

(يجلس. يدخل دولافيل برفقة جمع غفير من العمال في ثياب جديدة، ويبقون في الظلام).

القاضي : (وهو جالس) دولافيل؟

دولافيل : (واقفاً) رئيس عمال. إليك أسماء الواحد والثلاثين عاملا، كلهم يؤكدون أن الاغتيال المدبر قد صوت عليه برفع الأيدي. وهاك الرسالة التي يوجهونها إليك من تلقاء أنفسهم، والتي يقرون فيها بالوقائع التي تدين جول دوران، دون إغفال الشقيقين بواييه، وهما أيضا من رؤساء النقابة. فوكيه، اقترب وقل ما تعرفه . . .

فوكيه : (يخرج من الظلام) فوكيه، مراقب عمال. كنت قد أخطرت كابرون بقرار قتله. ثم أعرته مسدسي ليدافع به عن نفسه.

دولافيل : أرجنتان، اقترب. ماذا تعرف؟

أورجنتان : (يخرج من الظلمة) أدعى أرجنتان وأنا عامل فحم. لقد قالت أرملة كابرون المستقبلة أمامي للضحية المستقبلة «سأحطم وجهك، وإن دافعت عن نفسك رميتك في الماء». وكانت تحمل طفلا بين ذراعيها.

دولافيل : ليفيك، اقترب وقل ما تعرف.

ليفيك : أدعى ليفيك وأنا عامل فحم. كنت موجودا في الاجتماع الـذي مضى عليـه ثـلاثة أسـابيـع. لقد قـال دوران في معرض حديثـه عن الضحية المستقبلة والبـائسة، وذلك أمـام سبعمائة واثنـي عشر عــامـلا «لا أريـد أن يضرب كابرون أريده أن يقتل»!.

دولافيل : موران، اقترب... ماذا تعرف؟

موران : (يخرج من الظلمة) يجب أن يقتل، أن يصرع

عامل آخر : (وقد خرج من الظلمة) بل إنه أضاف: «لو عمل والدي لقلت عنه نفس الشيء: ينبغي أن يقتل» كان يتكلم عن والده...

القاضي : والسبعمائة واثنا عشر عاملا صوتوا على قتله.

موران : جميعهم!

العامل الآخر : ما عدا واحداً. أحد رجالنـا، وهو أصم، فما كان يسمع ما يقال.

(يتحول الضوء إلى...)

المشهد العاشر

(النهار، فناء عائلة دوران. صبي صغير يستمع إلى بحار يغني. نسمع النغمات الأخيرة)

البحار : . . . أجل، في بلاد الروم والأناناس!

الصبي : . . . هل تنقلت في كل بلاد الأرض؟

البحار : تقريبا.

الصبي : حتى في بلاد الجانب الآخر التي هي الآن في الليل؟ فأنا لدي كرة أرضية، صغيرة لكنها تدور. . .

(ضوضاء)

البحار : اصغ إليهما! إنهما من جنس واحد ولا يقدران على التفاهم.

الصبي : من هما؟

البحار : قردي وببغائي.

الصبي : قرد وببغاء من جنس واحد؟

البحار : وهو جنسنا أيضا! إنهما يتنفسان مثلنا. إنهما مضطران أن يأكلا مثلنا، كلاهما ولدا في أحد الأيام مثلنا، ومثلنا ذات يوم سيموتان، إن رجلا أسود من هناك هو الذي قال لي ذلك: «إنهما من جنس الذين كتب عليهم الموت!.

الصبي : وماذا بعد؟

البحار : يجب ألا يشعر المرء بـالخوف. لو تـدري، عندمـا يطلع النهار، وإذ أنت وحيد في البحر، مع الشمس الصاعدة وحـدهـا أيضـا في السماء، كما أنـت وحيـد على سطـح السفينـة، يحيط بـك الأفـق، أقـول إنك، دون أن تفقـه شيئا، تشعر بالسعادة، فتغني، اسمع...

(يبدأ البحار بالغناء وفي الحال يظهر مطبخ أسرة دوران. جوليـا تعد المائدة، السيدة كابـرون موجودة وقـد ارتدت السواد)

السيدة كابرون : مـاذا يحل ببناتي الثـلاث إن توفيـت بـدوري؟ هل كـان زوجي يهتم بذلك؟ لا أظـن، لكن لا أحد يدري أبداً، فهو في كافة الأحوال سيكون مـوجوداً هنا. أنت لم تعرفي بؤس مؤسسة المساعدة الاجتماعية، فهي التي ربتني، لما كنت صغيرة كان لدي مرضعـة جيدة، وهي لا تزال حية ترزق. لكن حالما وضعت في المزارع! كنـا نعامل أقل من الحيوانات : فاستبدالنا لا يكلف شيئا، ذات مرة تجرأت على الشكوى للمفتش، كنت وقتهـا في الرابعة عشرة من عمـري. «وفوق ذلـك أنت لسـت راضيـة! لولانـا لمت جوعا، وها أنت تشتكين!

جوليا : طالما أنا هنا فلن يذهب أولادك أبداً إلى مؤسسة المساعدة الاجتماعية.

السيدة كابرون : وهـل يحق لـك الاعتراض؟ إنهم يقرون دائما قـوانين تـأتي مخالفة لما يدعون أنهم يريدونه.

جوليا : من رأي جول أن نطلب من النقابة أن تتبنى بناتك الثلاث، إن كنت موافقة، وأن يعين وصي عليهن.

السيدة كابرون : آخذ نقود النقابة؟ كلا، إنها جد فقيرة. وطالما أستطيع العمل...

جوليا : وعندك ثلاث بنات في البيت؟

السيدة كابرون : بناتي المسكينات اللواتي سيشار إليهن باستنكار في المدرسة، لأن والدهن مات خائفا. حالما أحصل على عمل فسوف أنضم إلى النقابة، وإن لم تكن النقابة موجودة، فسوف أؤسسها. سيساعدني السيد دوران.

جوليا : عندما يستعيد عزيمته... لكن متى؟

السيدة كابرون : لقدأخطأ في إيقاف الإضراب. هل الذنب ذنبه إن كان زوجي يعمل؟

جوليا : هذا ما يعتقده، إنه يلوم نفسه لأنه لم يعرف كيف يقنعه. وهو طوال الوقت يتهم نفسه كي يجد عذرا للآخرين.

السيدة كابرون : من تراه المذنب إذا كان زوجي قد هدد رفاقه بمسدس؟ من أعطاه ذلك المسدس؟ مادام ليس لدينا واحد. لقد أتوني من الشركة ومعهم أوراق للتوقيع، ونقود يشترون بها توقيعي. ما كانوا يريدونه أن أتقدم بشكوى. فأجبت إني أريد أن أتقدم بشكوى إنما ضد الشركة التي اعتبرها مسئولة عن وفاة زوجي.

جوليا : هل يعلم جول ذلك؟

السيدة كابرون : من جهتي، لم أخبره بعد. أين هو؟

جوليا : في قاعة فرنكلين.. إنه آت لتناول طعام الغداء، فيأكل بضع حبات من البطاطا...

(يدخل جول، عناق صامت. تحية خرساء من السيدة كابرون)

جول : أين والدي ؟

جوليا : يبحث عن عمل.

(يهز جول كتفيه)

جول : وأمي؟

جوليا : ذهبت إلى المدينة لابسة قبعتها.

جول : لابسة قبعتها؟ (صمت) يحزنني أن أراك يا سيدة كابرون. ألا يمكن للمجتمع الجديد الذي أحلم به أن يبرز إلا وسط رذاذ من الدماء؟ كيف يمكن أن نثق في مستقبل مجتمع ليس بوسعه أن يولد إلا وسط الجريمة والقتل؟ كان لزوجك الحق في العمل. صحيح أنه كان مخطئا، لكن ذلك كان من حقه أيضا. وكان يتعين علينا أن نحترم هذا الحق. لن يتحرر المرء من شقائه بسعيه إلى شقاء الآخرين.

جوليا : متى سعيت إلى شقاء الآخرين؟ أنت وحدك تتهم نفسك! كل الرفاق يؤيدونك. يوم طلبت استئناف العمل، كان لا يزال هناك أربعمائة عامل حولك.

ولسوف يستأنفون النضال عنـدما تقرره. شكّل صندوق تعـاون، اتفق مسبقـا مع نقـابـات المرافىء الأخرى هـذا الشتاء، بمساعدة باريس.

جول : لم تدرك باريس شيئا.

جوليا : لكن، يا جـول، النساء يدركن ذلك، كـي نجعل المنزل نظيفا فـإننا أولاً نـوسخ. وعندمـا نغسل الأطبـاق، فإن الطنجرة لا تستثير فينا رغبة الطعام.

جول : أو تعتقدين أن أطبـاقك لن تكون أكثر نظـافة لو أن الماء كان أكثـر نقاوة؟ يقـولون لـك في باريـس: الغايـة تبرر الوسيلة! مـاذا يعني هذا؟ أولا لو فشلنا في تحقيـق الغاية لبقينا نتعلل بالأعذار في خزي ووسائلنا على ظهرنا. لكن هناك ماهو أخطر بكثير فلشد ما أخشى ألا تكون الغاية سـوى ترجمة للـوسـائل، تجسيد الـوسـائل التي نحـاول بلوغها عـن طريقها. الكذب يبقى كذبـا، حتى في جو عام من الحقيقـة. ولئن كدسنا الكثير مـن الأكاذيب في سبيل بلوغ هذه الحقيقة، فإننا في نهاية الدرب سنصطدم بكـذبـة هائلـة! نعـم، إن هـذه الغـايـة التي في كـافـة الأحوال، ربما لـن يصل إليها أحـد أبداً ستشبـه في نهاية المطاف كـل الوسائل المستخدمـة يوما بيوم لبلـوغها، في واقع الأمـر لعله ليس هناك مـن غاية، لعله ليـس هناك سوى وسائل. وبالتالي فلتكن نظيفة!

جوليا : نعم يا جول. يجب أن يكون النضال متتابعا باستمرار، كما تفعل أنت. كم مرة قلت لي إنه لجبن أن ينتظر المرء، وقد عقد يديه على صدره، المستقبل معولاً على الغد والتطور! يتحدث البعض عن مسيرة البشرية، لكن البشر هم الذين يسيرون، عجباً أترغب أن تنام الآن على أمل أن تستيقظ على عدالة المستقبل وقد تكبدت السماء، كما الشمس عناء الشروق أثناء نومك؟

جول : أنا متأكد أنك محقة، يا جوليا. وأن مستقبلنا ينبغي علينا أن نعيشه في اللحظة الراهنة. بيد أني جد مكتئب يا سيدة كابرون.

جوليا : (وقد غيرت لهجتها فجأة) ما قلته لتوي لا يمنع يا جول، أني أحبذ أن تأخذ قسطا من الراحة.

جول : من الراحة؟ أنا لست مريضا! وحتى لو كنت مريضا. . .

جوليا : ستحدثك والدتك في هذا الأمر. . .

جول : ماذا تقولين؟

جوليا : وحتى إن كان ذلك قد يحل مشكلة بنات السيدة كابرون. . .

جول : (للسيدة كابرون) مشكلة بناتك؟ كيف؟

السيدة كابرون : لا علم لي بالأمر.

جوليا : ستشرح لك والدتك.

(يدخل الأب وعلى رأسه كاسكيت)

الأب : مرحبا

(معانقات)

جوليا : ما وراءك يا والدي؟

الأب : كل أولئك الرجال الذين كنت أتهيب منهم لأنهم أغنياء، راحوا يكلمونني، مع ذلك برقة، لكنهم خنازير! أتسمعين؟ كلهم خنازير!

جوليا : هدىء من روعك، يا والدي.

الأب : (لجول) أين أمك؟

جوليا : خرجت بعدك بقليل.

الأب : لكوني والدك ما عاد يحق لي أن أعمل!

السيدة كابرون : وهل تنسحب من المعركة، يا سيد دوران؟

الأب : (لجول) تعلم أني أوافق على ما تفعل، لكن عندما يرفضون أن يشغلوني، أتراهم يعلمون أني أوافق على ما تفعل؟ وهبني اعتقدت أنك مخطىء، وأنه بسبب السياسة ما عاد يكلم أحدنا الآخر، فهم أحرار، في أن يحرموني من حقي في العمل لأني والدك. أينما ذهبت، عندما أذكر اسمي، يسألونني: «والد الفوضوي». إنهم خنازير! وهذا هو الخطير في الأمر، إنهم خنازير!

جوليا : ليكن يا والدي، ستستريح من العمل...

الأب : هل أم جول هي التي أوحت إليك بهذه الفكرة؟

جوليا : يمكنني أن أبقى في العمل ثلاثة أشهر أخرى أو أربعة... إنهم. لا يعرفونني... سنذهب لصيد القواقع والسمك. وفي الخريف تصنع النبيذ. ستساعد أصدقاءك، وإذ يمضي الوقت... استرح إلى حين زواجنا...

جول : مع دعوى طلاقي التي تؤجل باستمرار!

السيدة كابرون : (لجوليا) لن تكونا أول من يغني أثناء التعميد قبل أن يغني ليلة الزفاف!(*)

(تدخل الأم، لابسة، مشغولة، مهمومة)

الأب : (بلطافة) أين كنت؟

الأم : (بعزم) فعلت ما يجب عليّ فعله.

جول : ماذا فعلت؟

الأم : لا نقدر أن نستمر في العيش على هذا المنوال! إني قادمة من صندوق التوفير حيث قمت بسحب دفترنا. (تخرج نقودا من حقيبة يدها والدفتر الأزرق) هاك تسعمائة فرنك بالتمام والكمال! ما كنت أتكلم عنها، وقد مضى عليّ ثلاثون عاما وأنا أدّخر تحسبا لليوم الذي ستقع فيه الكارثة الحقيقية.

وها قد أزف وقت سحب مدخراتنا، أمام أربعتنا، ستة أشهر هادئة. (للأب) منذ خلقت لم تسترح أبداً إلا أثناء

---

* أي من تقوم بينهما علاقات زوجية قبل الزواج.

مـرضـك القصير وحيـث سـاعـدنـا جـول . الآن، وبمـدخـراتنـا، ستسـاعد نفسـك، كما تسـاعـد جـول بدورك . سنـذهب أربعتنا إلى القـرية حتى الـربيع . إن ابن العم بول لديه مكان فسيح في مزرعته بغومر فيل .

جوليا : وإن وافقـت، يا جـول، فقد اصطحـب بنات السيـدة كابرون، التي يمكنها أن تأتي لزيارتهن يوم الأحد .

الأم : (تصغي، تنظر، لا تجيـب، ثم تستطرد) سأحلـب بقرة ابـن العم بـول، وسندفـع لـه أجر الإقـامة، وأنتـم أيها الـرجـال، ستشـذبون لـه أشجـار السيـاج . وحتـى في الشتـاء . هناك دائما بعـض العمل في الحديقـة . . . ربما ينسانا الآخرون!

جول : لسـت ضد الفكـرة . اذهبا كـلاكما أولا . وحتـى جوليـا تستطيـع أن تـرافقكما . أمـا أنـا فـأحضر إليكـم يـوم الأحـد . . . على الـدراجـة لن يستغـرق المشـوار سـوى ساعة . . .

الأم : على الدراجة!! وتريدينني أن أدعك وحدك هنا! كلا ثم كلا! أربعتنا معاً، وغدا! هاهـي النقود! فقط ربما يولد ابنك يا جول!

جوليا : ستة أشهر، هذا كثير ربما، لنجعلها في البدء خمسة عشر يومـا، لو تطلب من الأخـوين بواييه أن يحلا مكـانك في النقابة لخمسة عشر يوما فقط . إنهما جادان . . .

السيدة كابرون : ينبغي لك أن تقبل يا سيد دوران .

جول : أأذهب وأستروح النسيم العليل بينما يختنق الرفاق وسط هباب الفحم؟ ما عاد لي سوى تلك الراحة وهي أن أختنق معهم!

(يدخل شرطيان على رأسيهما قبعتان مستديرتان)

الشرطي الأول : جول دوران؟

الأب : من تكونان حتى تدخلا بلا استئذان؟

الشرطي الثاني : . . . عامل فحم، وسكرتير نقابة مقرها قاعة فرانكلين. . .

جول : أنا هو!

الشرطي الأول : نعرفك!

جول : وتخاطبانني بصيغة المفرد؟(*)

الشرطي الثاني : سنخاطبك بصيغة الجمع. هات يديك، يا سيدي.

جول : يداي. (ينظر إليهما، يضعان الأصفاد في يديه) ما هذا المزاح؟

جوليا : (وقد فهمت) لكن من أنتما؟

الشرطي الأول : شرطة!

الشرطي الثاني : مذكرة توقيف.

الأم : الشرطة في منزلنا؟

جول : هذا التوقيف غير قانوني. باسم قانون عام ١٨٨٢ أحتج. . .

---

* أي برفع الكلفة.

الشرطي الأول : والاغتيالات، ماذا تقول عنها؟

جوليا : أي اغتيالات.

الأم : لقد أخطأتما المنزل.

الأب : نعم لقد غلطتما بالعنوان، أيها السيدان.

جول : وأرجوكما أن تنزعا من يدي هذا الشيء الذي يزعجني كثيراً.

الشرطي الثاني : ستثرثر في الخارج. هيا تحرك! إننا على عجلة من أمرنا.

جوليا : (بشراسة) لكن ما ذلك الاغتيال الذي تتحدثان عنه؟

الشرطي الأول : أليست هذه هي الخليلة، يا هل ترى؟

الشرطي الثاني : اغلقي فمك أيتها الخليلة، أما عن التفاصيل فهي في المحكمة!

الأم : هل سيأخذانك إلى المحكمة؟

السيدة كابرون : تدخلان هنا بلا مبرر، كالكارثة، كالطوفان، كالحريق...

الشرطي الأول : اغتيال كابرون؟ ألم تسمعي به؟

السيدة كابرون : اغتيال زوجي؟

الشرطي الثاني : زوجك؟

السيدة كابرون : إني أرملة كابرون.

الشرطي الأول : وأنت هنا!

الشرطي الثاني : لقد صدقوا حين قالوا إنهما كانا على علاقة!!

جوليا : أمنعكما منعا باتا.

الشرطي الأول : مم تمنعنا هذه العاهرة؟

جول : آمركما أن تسحبا قولكما!

الشرطي الأول : ماذا تقول؟ لم أسمع جيدا. هيا كرر ما قلت

(يركله)

الأم : أو تجرؤ على ضرب ابني أمامي؟

الأب : إلى أين تأخذانه؟

الشرطي الأول : إلى فندق شارع لوسييور. . .

الشرطي الثاني : حيث الماء الجاري والتدفئة الشتوية، فالجمهورية رفيقة جدّاً مع السفلة.

الأم : ابننا يساق إلى السجن يا أبا جول!.

الأب : لا أظنكما ستسيران به في الشوارع والأصفاد في يديه؟

الشرطي الأول : إذاً أسرعي وأحضري له قفازاً.

الأم : يا أبا جول، هات بسرعة عربة. النقود موجودة. نقودنا البائسة، رباه.

(تهوي على الأرض وهي تجهش بالبكاء).

جول : (لجوليا) إني ضحية. أخطري بوابيه!

الشرطي الأول : اسمع، إنه يتكلم عن بوابيه.

الشرطي الثاني : أيهما؟

الشرطي الأول : يمكنه أن يختار في شارع لوسييور. إنهما هناك كليهما، لا ينتظران سوى تشريفك.

(يضحكان)

جول : سامحيني، يا أمي - أبي، هذا الخطأ الشنيع . . . جوليا . . .

الأم : وأسرتنا التي تربت على الفضائل .

الشرطي الأول : هيا، كفى مجاملات، علينا أن نذهب .

الأم : أبا جول، أحضر عربة بسرعة، ولتكلف ما تكلف . ما قولكما بكأس من الشراب أيها السيدان؟

الشرطي الأول : بعربة؟

(يضحك الشرطيان)

جول : لا تنسي حماماتنا يا جوليا .

الشرطي الأول : (مرتاباً) أي حمامات؟

الشرطي الثاني : سيشرح لنا ذلك بعد قليل، عندما نستجوبه بالتفصيل، بدقة وتؤده . . . هيا تحرك، يا خريج السجون . . .

جول : ألا تخجلان من نفسيكما أيها السيدان؟

الشرطي الأول : أتريدني أن أهرسك في الحال، قبل أن نبدأ؟

الأم : عار عليكما! لكن الله يراكما .

الشرطي الأول : هذا ما سيقوله لنا عندما نراه .

الشرطي الثاني : هيا تحرك!

(خروج فظ)

الأب : (يلحق بهم) لكن مادام الأمر . . . مجرد خطأ .

الأم : تعالي دافعي عنه، يا جوليا.

جوليا : سأنام أمام باب السجن إلى أن يخلى سبيله.

السيدة كابرون : (وحيدة) نعم ما فعلت أيها الخائن! أجل، نعم ما فعلت أيها السكير!

(يتغير الضوء)

المشهــد الحــادي عشـر

(في الشـارع أوليفييه، يـرتدي قبعـة عـالية ويمسـك بعصا ذات مقبـض فضية، روسيل يرتدي قبعة ويمسك بعصا ذات مقبض معقوف).

أوليفييه : تعلـم كم نقـدر شخصيتـك، وربـاطة جـأشـك، وآراءك السليمة جداً، وطموحك . . . غير أنـه من واجبي أن أثبط من عزمك عندما تفكر يوما ما أن تطلب يد شقيقتي. بلى! بلى! يا عزيزي، أنت تفكر في ذلك. لن تفكر به بعد الآن! لكنك فكرت فيه! حسناً، لا تفكـر فيه بعد الآن. إنها أرملة منذ فترة قصيرة جدا، هـذا إلى جانب أنك بروتستـانتي منذ فترة قصيرة جدا أيضـا . . . ومن جانـب آخر فـإن شقيقتي ذات طبيعة طائشة، وسيعود طيشهـا للظهور حينما يذهب الحزن مع الحداد. إنها تعشق الحفـلات، الجولف والصيد، وسباق الزوارق، والرحلات البحرية إلى درجة لا يمكنها أن تكون معها الزوجة المحترمة لرجـل محـب للعمـل بحيث لا يجد وقتا لـلاستجمام. ومن جهة إرضـاء مشاعر الأمـومة لديها فإن أولادي يكفـونها. لقد خلقت لتكون عمـة سخية أيام أعياد الميلاد، وتعيش إلى جانبي لدى عودتها من ألعابها وتساليهـا. سنجد لـك، أنا وهـي، شابـة خفيفة الـروح، حـديثة الثـراء. اعتمد علينـا ودعنـا نتصرف. (بعد تبـادل تحيات مع بعض المارة) ها هي شقيقتـي بالمناسبة، لكن من أين خرجت؟ (تدخل ليز مـرتدية السواد) على قدميك، في الشوارع، يا عزيزتي ليز؟

ليز : عربتي أمـام منزل دوفال لافالـه. هل أوصلكما إلى مكان ما؟

أوليفييه : أشعر أني مـرهق بعض الشيء ولا مـانع لدي مـن العودة معك. روسيل سأنتظرك في مكتبي عند العصر.

ليز : هناك خدمة أطلبها من عـزيزنا روسيل: ألا يمكنك أن تدعوني إلى محكمتك؟ (لأخيهـا) أرغب في أن أرى عيني امرأة تنظر إلى قاتل زوجها.

روسيل : إني لأستغـــرب أن تحضر الأرملـة كـابــرون مـن أجــل الشهادة.

ليز : ألأنها منهارة؟

روسيل : بل كيلا تجيب على بعض الأسئلة المحـرجة. فهي كانت وربما لاتزال، عشيقة المتهم.

ليز : عشيقة دوران؟ أمثل هذا الأمـر يحدث في عالمنــا هـذا؟ يا للغرابة! هذا لا يصدق.

أوليفييه : التقيت أمس بمحامي المتهـم، وهو شاب وسيم، دمث الأخلاق، في مقتبل العمر. لقد كان منزعجاً من لقائنا، وأراد أن يقنعني أننـا نتنكر لحركـة إنسانيـة كبيرة، حركـة نهضة كبيرة.

روسيل : نهضة نقابية؟ آمل أن يكون باح لك بموضوع مرافعته.

ليز : لماذا، يا عزيزي السيد روسيل؟

روسيل : لأن الدفـاع عن النقابيـة أمام هيئة محلفين مـن الفلاحين سيقدم لدوران خمس السنوات السجن التي نترقبها.

ليز : خمس سنوات في غياهب السجن؟ إني سأجن!

روسيل : كونه معتادا على عنابر السفن وهباب الفحم فإن السجن سيكون راحة له ولنا! لعل دوران ليس شريرا، لكنه مجنون، ومن منظور الحقائق التجارية الكبرى لعصرنا فإن دوران مذنب.

أوليفييه : (لأخته) سأوصلك بنفسي إلى روّان، فآخذك بالمناسبة إلى أحد المطاعم الصغيرة...

ليز : (لروسيل) إني شرهة!

أوليفييه : ... إن المدن الأنجليكانية تضم دائما موائد فاخرة.

ولنكن منصفين يا عزيزي روسيل، فالكاثوليك يعرفون كيف يأكلون أفضل منا. إنهم بارعون في أفانين الطعام، وإني لأتساءل إن كنا عرفنا، منذ بدء الخليقة طاهياً بروتستانتياً مشهوراً. استدع العربة يا ليز! أراك في المساء، يا روسيل!

(يخرج الاثنان من جهة وروسيل من جهة أخرى. ضوء على باب السجن)

الأم : هاهو باب السجن. يا للفضيحة، والد جول ينتظر أمام باب السجن!

جوليا : لكن مادام جول بريئاً!

الأم : إلا أنه يبقى باب سجن.

الأب : (للأم) لا تكوني عصبية. لقد أخبرني محاميه إنه مضطر للذهاب إلى قاضي التحقيق، الساعة الثانية ظهرا.

جوليا : ليست الثانية بعد.

الأم : (لجوليا) اطلبي من العربة أن تنتظر.

الأب : مادام السائق لم يحصل على نقوده بعد فلن يذهب!

الأم : هل يجوزلنا أن نصعد معه في العربة؟

الأب : إن سمح الشرطيان. . .

جوليا : هل يقبلان أولا أن يركب في عربة؟

الأم : على العموم نحن لا نستطيع أن ندع ابننا يسير في الشوارع، والأصفاد في يديه، مثل السارق!

(يخرج من السجن شرطيان وجول مغلول اليدين)

الأم : (زاعقة) ولدنا!

جوليا : (برقة) جول!

الأب : (للشرطيين) أنا والده وهاتان أمه وخطيبته. . .

الشرطي الأول : وأين أبناء العم الصغار؟

جوليا : (لجول) لقد استأجرت والدتك عربة لتوصلك إلى المحكمة، إن قبل هذان السيدان. . .

الشرطي الأول : عربة! لكنه ليس متهماً بالنصب وسوء الائتمان!

الشرطي الثاني : (لجول) لم تقل لنا إنك صاحب مصرف فار!

الأم : كلا والله. إننا قوم شرفاء!

جول : اصرفي العربة، يا أمي، فنحن العمال نكسب قوتنابشق النفس. لا تبددي النقود. . . نعم، إن الحياة صعبة جدا على الذين ليس لهم سوى ضمائرهم وشرفهم، كفانا ما أضعناه من مال طوال هذين الشهرين من السجن الجائر. . .

الشرطي الأول : هل انتهى الفيلسوف؟

جول : لكن لا تخشوا شيئاً، سأعوض ما فات فأنت تعلمين يا أمي، إننا في مهنتنا، نكسب نقودا أكثر في الشتاء. .

الأم : ألا تريد العربة إذاً يا ولدي.

الشرطي الأول : السير على الأقدام سيفيده كثيرا يا والدتي. وهو صحي.

الشرطي الثاني : نحن نهتم بصحته (لجول) هه، هل تريد أن تدخن سيجارة فاخرة؟

جول : لا، شكرا.

الشرطي الأول : (نافخاً الدخان في وجهه) أنت مخطىء، كنت سأشعر بسرور بالغ حين أحرمك منها.

الشرطي الثاني : (بخشونة) إلى الأمام سر.

جول : (يهتف لوالديه) يوم الأحد! في غرفة الزيارة!

(يخرجون، يهم الأب والأم وجوليا باللحاق بهم).

الأم : إنه لا يتذمر. إنه شجاع.

جوليا : سيحاكمونه قريبا يا أمي، فننتهي من كل هذا البلاء.

الأب : مع هؤلاء الخنازير ما عدت أؤمن بنهاية بلائنا.

(تتحول الأنوار إلى. . .)

المشهـد الثاني عشر

محكمة الجنايات

في الأعلى، مضاء بقوة، تمثال العدالة، وهو عبارة من ميزان وسيف، إلى اليمين ثلاثة قضاة. أمامهم جنديان مسلحان. إلى اليسار خمسة متهمين. جول في الوسط، على جانبيه الشقيقان بوابيه، وعلى أقصى يمينه ويساره اثنان من قتلة كابرون، أمام المتهمين محاميان في لباس أسود. قرب هيئة المحلفين ممثل النيابة في لباس أحمر، يقف ساكناً. وسط المشهد منصة الشهود المنارة بكشاف سيضاء لإظهار الشهود، وسينطفىء لإخفائهم. المشهد حافل بالمساحات المظلمة وبالأنوار الساطعة، دون ابتهاج).

صوت : (في الظلام) محكمة! (إضاءة على الشخصيات، ثم منصة الشهود. وفي الحال).

الشاهد الأول : (رافعا ذراعه) أقسم.

جول : هذا الرجل لا يقول الحقيقة.

رئيس المحكمة : اصمت أيها المتهم!

جول : الصمت! دائما الصمت! الكذابون وحدهم لهم حق الكلام هنا.

(يخاطب الشاهد الواقف بلا حراك، وقد أدار ظهره إلى جول). انظر إليّ! في عينيّ! أعد ما قلته لتوك وأنت تنظر في عينيّ.

الشاهد : (دون أن يدير ظهره، ورافعا ذراعه كإنسان آلي) أقسم!

الرئيس : وقد دعا المتهم إلى التصويت برفع الأيدي؟

الشاهد : لا، ليس برفع الأيدي! لقد هتفوا بالموت. هذا كل ما في الأمر.

الرئيس : المحكمة تشكر الشاهد.

(إظلام على منصة الشهود. إضاءة على المحامين المنهمكين، القضاة يتداولون. يغمر الضوء مجددا منصة الشهود).

الآنسة لوساج : أقسم أن أقول الحق ولا شيء غير الحق.

الرئيس : (لأحد المتهمين) أتقر أنك لطمت بلاط الشارع برأس الضحية؟

المتهم الأول : لا أقول كلا، لأنه لا يمكنني أن أقول كلا. لكني لا أقول نعم، لأني لا أدري شيئاً، يظهر لي أننا كنا سكارى.

الرئيس : (للآخر) وأنت؟

المتهم الثاني : أقول مثله. بدأ ذلك عند برميل الروم. وبعد ذلك غفوت لما أفقت، كان الشرطي يصفعني.

المحامي : هؤلاء العمال يرتدون ثيابا سوداً، وكاسكيتات سوداً، وسراويل مخملية سوداً، ثم إن وجوههم سود، فكيف تجرؤ هذه الشاهدة على أن تؤكد أنها تعرفت، وسط الظلام الحالك، على المتهمين، وعلى مسافة ثلاثمائة متر من مكان الجريمة!

ممثل النيابة : فأنت على العموم لا تنكر أن هناك جريمة؟

جول : لقد طلبت احترام كافة العمال! حتى الذين ما كانوا قد فهموا بعد . . .

ممثل النيابة : ما كانوا فهموا ماذا؟ مباهج الحرب الاجتماعية؟

جول : إني أقول الحقيقة!

ممثل النيابة : أتظننا نجهل رقة العمال العاطلين المضربين مع العمال المنتظمين.

الآنسة لوساج : أقسم أن أقول الحق ولا شيء غير الحق.

الرئيس : المحكمة تشكر المتهمين المحلفين.

(نفس حركة الإضاءة.)

الشاهد الثاني : أقسم! وفي اجتماع عام! كنت حاضراً!

جول : أتراني متوحشا إلى درجة أن أقترح قتل عامل أمام سبعمائة وخمسة وعشرين شخصاً. . .

ممثل النيابة : قل لي إذاً لماذا كان المسكين كابرون يحمل مسدسا؟ لماذا كان يتوقع كابرون أنه سيضطر للدفاع عن نفسه لولا معرفته أنه في خطر. إن الترصد واضح!

المحامي : سيدي ممثل النيابة، هناك وقائع أخرى تثير حيرتي. أمس، في هذه القاعة بالذات، وأمام هؤلاء القضاة بالذات، وأنت أيضا، مثل أمام المحكمة بحار هولندي. لقد قتل هو أيضا بسكين كان يحملها، أثناء شجار جرى على أرصفة الشحن. كان قراركم، أيها

السادة هو طعنات قاتلة من غير قصد تسببت في الوفاة. السجن لمدة سنتين! ومع ذلك، حينما يطعن رجل شخصا آخر، ألا يمكننا أن نظن أن ذلك كان بقصد القتل؟ وفيما يتعلق بقضية اليوم، أين هي الخناجر؟ إني لا أرى سوى مسدس، وقد كان في يد الضحية!

الشاهد الثاني : ولما صوّتنا على الموت، تم ذلك بمساندة الأخوين بوابيه، الماثلين هنا!

جاستون : يوم الحادث لم نكن موجودين!

لويس : كنا نصطاد القواقع، كلانا.

جول : وإيمانا بالواجب قبل كل منهما أن يكون خازناً لنقابتنا.

ممثل النيابة : خازنان! كنتم تمتلكون إذاً ثروة من أجل تمويل ذلك الإضراب الذي كان يشل المرفأ، ويفقر المدينة وبالتالي الريف، لصالح الأجنبي؟ من أين أتيتم بذلك المال؟ لمصلحتك أنصحك أن توضح لنا الأمر.

جول : من المؤسف، أيها السيد ممثل النيابة، أنك لم تكن، ولو ليوم واحد فقط، عامل فحم على الأرصفة، وسط الهباب الأسود الخانق. وإلا لكنت فهمتنا بشكل أفضل. . .

ممثل النيابة : ليس عليّ أن «أفهمك»، بل أن أبين لك. لست أنا من يحاكمك، والذين سيحاكمونك تسعة منهم ـ من أصل اثني عشر ـ من صغار المزارعين لا حاجة لهم بدروسك ليعلموا ما يتعين عليهم أن يروه في عمال يعملون عندما يطيب لهم العمل، ويتوقفون عندما يطيب لهم التوقف،

فضلا عن أنهم يستريحون أيام الآحاد! إنهم ليعلمون وهم أمـام محاصيلهم، التـي يتسلى أصحابـك الفـوضويـون بحرقها أحيانا، أن ليس هناك توقف ممكن، ولا إضراب مستحـب حينما يكون المرء في الـريـف، حيث الطبيعـة تقدم المثال وتعمله، هي أيضـا، ليل نهار، طوال أسابيع كل أشهر السنة!

الشاهد الثاني : (مستطردا) كانوا يضربونه وهم يصيحون : «هل اكتفيت أيها السافل؟» والرأس يرن على الرصيف.

ممثل النيابة : لا غرابة، فهم كانوا يقتلونه!

جول : لطالماتحدثت بلطف إلى العمال الذين هم إخوتي...

ممثل النيابة : إخـوتك الـذين تقتلهـم بواسطـة فتواتـك! أنت أحقـر المتهمين لأنك أكثرهم نفاقاً! لقـد حدثت جريمة وحتى محاميـك يقر بـذلك، وهـذه الجريمـة، ليس مخمـوروك المسـاكين الـذيـن أسكـرتهم للقيـام بها هـم المسئولـون الحقيقيون عنها، بل أنت يـا دوران، يا من أصدرت أمر الاغتيال!

المحامي : أيها السيد ممثـل النيابة، إنـك تستبق الأمـور... وكأني بك بدأت مرافعتك...

الرئيس : (للشـاهد الثـاني)... والقتـل، كيـف تم التصـويـت عليه؟

الشاهد الثاني : صوتنا عليه... ونحن نصوت عليه...

الرئيس : بالصياح؟ برفع الأيدي؟

الشاهد الثاني : برفع الأيدي. أصلا كانوا يرفعون الأيدي دائما!

المحامي : أشير إلى تضارب أقوال الشاهد.

ممثل النيابة : منذ متى يستحيل على المرء أن يصيح وهو يرفع يده؟

جول : لقد أمرت بطرد هذا الرجل من النقابة لخطيئة مهنية لا تغتفر. إنه يكذب وبحقد. وكان مخبراً أثناء الإضراب...

ممثل النيابة : أكنت تفضله قاتلا؟

الرئيس : المحكمة تشكر الشاهد.

(إضاءة)

دولافيل : (على المنصة) أقسم. أثناء الإضراب بقي حوالي عشرة عمال مواظبين على العمل. كنا نستبقيهم على متن سفننا حيث أعددنا لهم أمكنة للنوم أيضا، لأني كنت قد علمت بقرار دوران بقتلهم!

جول : بل بحذفهم من النقابة!

(حركة بين الحضور).

المحامي : عندما نقول «حذف» فنحن نقصد «شطب» وليس قتل.

جول : إبعادهم، هذا واضح...

ممثل النيابة : أجل، أجل، التخلص منهم، هذا واضح جداً.

المحامي : مع هذا القسر للكلام...

ممثل النيابة : إن قسرا رهيبا للكلام أدى إلى جريمة!

المحامي : كلا! وهذه هي كل القضية!

ممثل النيابة : لأنك، الآن، تنكر الجريمة التي أقررت بها لتوك؟

الرئيس : المحكمة تشكر الشاهد.

(إضاءة)

رئيس الأمن : أقسم.

ممثل النيابة : السيد رئيس الأمن، إنك قادم لتخبرنا كما علمنا من التحقيق، أنك لم تسمع المتهم دوران يطلب قتل كابرون. لكن، بذمتك وضميرك، أمام السادة المحلفين، وأنت تحت القسم، هل يمكنك أن تقسم أيضا، أنه في غير أوقات حضورك، لم يطلب دوران إلى فتواته المعتمدين لديه أن يقتلوا كابرون المسكين؟

رئيس الأمن : كيف لي أن أؤكد شيئا من هذا القبيل؟

ممثل النيابة : هذا كل ما كنت أريده منك ، أيها السيد رئيس الأمن!

المحامي : هل يتفضل الشاهد ويخبرنا برأيه في المتهم؟ هل كان امرأً هادىء الطباع؟

رئيس الأمن : نعم!

المحامي : لا يشرب الخمر؟

رئيس الأمن : نعم. كان عاملا حسن السلوك دائما، لم يصدر ضده أبداً أي حكم قضائي، ويعيش عند والديه اللذين يبدو أنه يحبهما بإخلاص كما كان يحب رفاقه في العمل.

ممثل النيابة : يمكننا أن نلاحظ أنه في القضية لم يمارس أي ضغط، حتى أن الشرطة لا تسعى إلى إدانة المتهم. للسادة القضاة وحدهم الحق في الحكم عليه.

جول : لطالما قلت للعمال إنه يجب عليهم نبذ الخمر والغيرة.

ممثل النيابة : الخمر قد تكلمنا عنها، أما فيما يتعلق بالغيرة فمن مصلحتك ألا تتكلم عنها كثيرا، وإلا اضطررت إلى أن تفسر لنا تغيبا مريبا كنت قد اعتزمت عدم الإشارة إليه.

جول : (لا يفهم) أتحدث عن تحاسد العمال في العمل.

ممثل النيابة : قدأصبحنا نعرف أن المتهم ذكي جدا، فهو يفهم كل شيء من مجرد التلميح.

(إضاءة)

ليفيك : أقسم. قال لي إن نقابته ليست كباقي النقابات، وإنها ثورية، ويترأسها فوضويون.

ممثل النيابة : هل يقر المتهم أنه صرّح بأنه أسس نقابة ثورية لخدمة الفوضوية الاشتراكية.

جول : نعم، أنا ثوري! من هو الإنسان الشريف الذي يرغب في الإبقاء على نظام اجتماعي يلقي بالعمال في مهاوي الفقر والإدمان؟ نعم، أنا فوضوي! من هو الرجل الشريف الذي لا يغدو فوضويا عندما يشاهد الحكومات، تحمي و تدافع عن هذه التنظيمات الفعلية من المستغلين.

الرئيس : أيها المتهم، لمصلحتك أمنعك من مواصلة الكلام.

ليفيك : وقد أضاف إنه، لو كان هناك إضراب وامتنع والده عن المشاركة فيه، لما تردد في حذفه هو أيضا مثل الآخرين. والده، تصوروا!

جول : أعرف هذا الرجل. إنه ابن عمي. انظر إلي، يا ليفيك، في عيني، حسنا. والآن أمام ربك تعالى أقول إنك تعلم إني لأتمنى لك أن تحب والدك بقدر ما أحب والدي! هذا الرجل، سيدي الرئيس، الذي حضر إلى هنا ليفتري عليّ، قد أدانته محكمة العمال بتهمة السرقة...

ليفيك : غير صحيح!

المحامي : (لجول) اصمت! ثمة عفو يمنعك من الإشارة إلى هذه الحادثة.

ممثل النيابة : دوران، بعبارة «الله تعالى» التي ترددها، أتظن نفسك واعظاً للناس من على منبر كنيسة نوتردام؟ أو ترى أنك في المكان المناسب أيها المتهم بالقتل، لتعطينا دروسا في الأخلاق؟

ليفيك : استغرب سماعي، جول ينكر أقواله وكأنه خائف.

جول : أيها النكرة اليسوعي الشقي، متى أخفيت أني فوضوي ثوري، أنا الذي أعتز بأملي الكبير في مستقبل البشرية؟

المحامي : أرجو من السادة المحلفين ملاحظة نزاهة موكلي الذي لا يسعى البتة إلى تلطيف آرائه الأخلاقية والسياسية.

الرئيس : المحكمة تشكر الشاهد.

(أنوار)

روسيل : (يخلع قفازه بتؤدة) أقسم.

جول : هذا أنت إذاً، يا سيد روسيل!

روسيل : نعم، يا دوران، هذا أنا.

جول : هانحن وجهاً لوجه، أخيراً!

روسيل : نعم، وإني لأخشى أن يكون ذلك قد جاء متأخرا جدا، وهذا من دواعي أسفي. لأني لن أتردد في أن أقول ههنا إنك كنت موضع تقديري يا دوران. (همهمات ودهشة). آه، لطالما وقفت في دربي، وفي الوقت الذي كنت أكافح فيه بكل إخلاص من أجل ازدهار المرفأ، كنت تعمل، بعرقلتك لمساعيَّ، وربما من حيث لا تدري، على خرابه. وقد رضخت لك مرات عديدة، لأنه كان على السفن أن ترحل بالبريد. وكنت أضع دقة المواعيد فوق عزة نفسي، متردداً أحياناً بيني وبين نفسي. لا أجهل، مهما قلت، جهنم العنابر، في قعر السفن. وما دمت أتحمل مسئولية ذلك، فإني أتألم أكثر منك أيضاً يا دوران! وإني لأفهم ما لا تفهمه أنت، فأجد طبيعيا بعد مشقة العمل هذا، البحث عن الراحة عن طريق الكحول...

جول : الكحول جريمة تضيفونها إلى جرائمكم الأخرى.

(همهمة).

الرئيس : أيها المتهم، «جريمة» ليست بعد بالكلمة المستحبة في فمك، حينما . . .

جول : إني ضد الكحول!

ممثل النيابة : مادامت هذه المحاكمة تتحول إلى اجتماع انتخابي، فلماذا لا نغتنم الفرصة ونسأل المتهم بالمناسبة عن رأيه في مقطري الكحول من المزارعين؟

المحامي : سيدي ممثل النيابة، إني أدافع عن شرف وحرية رجل . . .

جول : أجل أنا ضد مقطري الكحول الذين يسممون الأرياف، كما يسمم الأفسينت المدن.

ممثل النيابة : من مصلحة السادة المحلفين، وهم من الريف، أن يعلموا ما سيكون عليه مستقبلهم إذا ما قيض لرفاق المتهم الاستيلاء على الحكم.

روسيل : سيدي ممثل النيابة، أسألك خدمة، وموهبتك الفذة قادرة على تلبيتها. أرغب، يا سيدي الرئيس، أن أوجه إلى المحلفين نداء رأفة. أولاً من أجل أولئك الذين تحت تأثير نشوة الخمر، و السخط على الإضراب المفروض عليهم، ضربوا واحدا من رفاقهم.

جول : هذه هي مأساوية الإضراب. أن يقود الإضراب إلى مواجهة بين عمال بائسين وأرباب عمل غير متفهمين . . .

الرئيس : الشاهد بعيد عن أن يعطي الانطباع بعدم التفهم.

(إشارة متسامحة من روسيل)

جول : . . . لأمر مؤسف، لأن رب العمل والعامل شخصان ينبغي لهما أن يتحابا من حيث هما إنسانان، لكن أن يقود الإضراب إلى مواجهة بين العمال أنفسهم، هذا هو التمزق بحيث يحدث تفكك وسط الطبقة نفسها . . .

روسيل : (لجول) وكيف حاول رجل مدرك مثلك أن يعد لتخريب منهجي . . .

جول : أنا؟

روسيل : ألم تحاول تخريب الآلة الجديدة التي أركبها على الأرصفة خصيصاً من أجل رفع الشقاء عن كاهل الناس. ؟

جول : لأنها كانت تلغي قبل كل شيء عملهم، أجرهم، أملهم الأخير في لقمة خبز. .

روسيل : هذه ضريبة التقدم.

جول : أجل، وبينما كنتم تضعون في جيوبكم أرباح التقدم، فإن العمال هم الذين كانوا يدفعون الضريبة.

روسيل : لماذا يا دوران لم تضع نفسك أبداً بنزاهة مكاننا؟ أنتم تعرفون مشاكلكم، ومشاكلكم أنا أعرفها، لكن أتعرفون مشاكلنا؟ قلق الرئيس القابع في مكتبه، أمام أرقامه التي تأمر الرئيس، كما الرئيس يأمركم، وأحيانا بلا شفقة على الإطلاق، لا يمكنني أن أقول لك أكثر من ذلك. لماذا؟ بالله عليك يا دوران، لم تأت إلينا، لتواجه معنا هذه

الأرقام؟ ونظرا لخبرتك بالأرصفة، وشخصيتك القيادية، اللتين قـدمت الكثير مـن البراهين المؤسفة عليهما، كـان المستقبل مفتـوحاً أمامـك، وأي مستقبل! لعلـك كنت اليوم رئيساً مطاعاً، بدلا من أن تصبح قاتلاً عقيماً.

جول : لست قـاتلا وأنـت تعرف ذلـك أفضل مـن أي شخص آخـر. أتجرؤ على لومـي لأني لم آت إليكم؟ كـان بابكـم مغلقا على الـدوام في وجوهنـا! ولما طلبت منكـم إغلاق الحانات في أمكنة العمل، هل لبيتم الطلب؟ ولما طلبت ألا تخصم الديون من إجمالي الأجـر، فهل لبيتم الطلب؟ ولما طلبـت إقـامـة أمكنـــة لـلاستحمام، بجـوار الفـرن الاقتصادي، هـل لبيتم الطلـب؟ قيل لنـا إنك، أنـت الذي لا تضحك أبداً، أنت المتجهم، قد ضحكت ملء شدقيك للمرة الأولى في حياتك.

روسيل : قبل أن أنصرف، أرغب سيدي الرئيس من أجل مصلحة العمـل على الأرصفـة وفي المرفـأ، أن أجـدد دعـوتي إلى الـرأفة. يستحيـل ألاّ نجد ظـروفـاً تخفيفية لجريمـة أدع وصفها للواقعية الرهيبة لممثل النيابة.

البعض سكارى وقـد امتثلوا لأمر. الشقيقان بوابيـه كانا ومازالا مـأخوذين بـدوران، وإني لأتساءل عـن الجريمة التي يمكن أن تنسب إليهما. أما دوران، فمن يستطيع، بـأمـانـة، أن يقـول إنه مجرم عـادي؟ فـذنبـه يكمـن في نظريـاته غير المهضومة في الـدروس المسائية للجـامعات الشعبية. حقاً إن التبرئة ستكون وخيمة العاقبة، وباسم أصحاب السفن، إن سمحـت لي أن أكلمك، أقول إن

كل نظام سيصبح عندئذ مستحيلا. التبرئة ستدمر المرفأنهائيا. لكن بعد تجريم مبدئي ضروري، دع رجلاً خبيراً في هذا العمل، عاش المأساة، ويعرف كل شخوصها، يلتمس للجميع، مرة أخرى، الظروف التخفيفية.

جول : يبدو لي أنك تطلب لي السجن؟ أو ما تخجل من نفسك؟

الرئيس : أيها المتهم، أهكذا تشكر الشاهد الذي شهد لتوه بإنسانية تدعو للاحترام؟

ممثل النيابة : أشير إلى انعدام الإحساس المستهجن عند المتهم.

جول : لعل ذلك لأنك لا تعرف السيد روسيل. أما أنا فأعرفه. يعلم الله...

ممثل النيابة : ما غرضك من هذا الإشهاد الدائم لله تعالى؟ خلف أي ستار تريد أن تخفي ماديتك الخسيسة؟ أأفهم أنك كاثوليكي صالح؟

جول : وأنت لماذا تتظاهر دائما بأنك تظنني كاذباً؟ ليس الله، في لغتي، ذلك السيد العجوز الملتحي كما تصوره لنا لوحات المتاحف، ولا أب الأزلية الجلاد، إن الله في لغتي هو سر ولادتي، هو حفرة موتي المظلمة السحيقة، هو حسرتي أمام شقاء الناس، هو شفقتي على الأحياء! الله هو كل ما لا أفهمه، هو الكلمة التي أغلف بها كينونة العالم، الله هو الاسم الآخر للصمت الرهيب الذي نحيا فيه، وأيضاالذلك الجهل الذي يدفع إلى

التناحر أناساً يفترض فيهم أن يتحابوا، لأنه على هذه الأرض الضائعة والخرساء التي إنما نمضي عليها بضع سنوات. . .

الرئيس : أيها المتهم، هذه التنبؤات خارجة عن الموضوع. . .

ممثل النيابة : أقول إنه بالنسبة لنا، نحن الناس البسطاء، الله هو طفل صغير ولد لتوه، بين بقرة وحمار، عند هؤلاء الفلاحين الذين يعملون أبداً والذين تكافئهم ابتسامة هذا الطفل ليلة عيد الميلاد، لأنه بالنسبة لهؤلاء الناس، يا جول دوران، الليل يوحي بابن الرب، وليس بوقع جمجمة تحطم على أرض المدن.

روسيل : سيدي ممثل النيابة، ذلك الذي ذكرته في معرض حديثك. ألم تكن الرحمة هي دائما ما يقدمه؟

ممثل النيابة : عليّ أن أتكلم باسم المجتمع، هذا المجتمع الذي يتعين علي أن أدافع عنه.

الرئيس : أذكر الشاهد أنه يتوجب عليه أن يعتمد في شهادته على الوقائع.

روسيل : (منزعجاً) لكن الوقائع صريحة وتتكلم من ذات نفسها: إضراب، أمر، وجثة. (ينسحب روسيل. فينهض المحامون تحية له. انطباع عظيم لدى القضاة. جول مهزوم. الأضواء تتابعه. ثم إظلام على منصة الشهود، وعندما تضاء مجدداً. . .)

الطبيب فوفيل : أقسم أن أقول الحق ولا شيء غير الحق! لقد شاهدت أثناء الإضراب، العمال يتناولون في الندوة حساءهم الأسود بأنفة ووقار. أريد أن أذكر أيضا أنه بأمر من دوران تم نقل الفحم مجانا إلى المستشفى حتى لا يعاني المرضى من الإضراب.

ممثل النيابة : الواقع أن الشاهد دكتور في الطب، لكن ألا تراه يشغل منصبا ما في رابطة تدعى، فيما يبدو، رابطة حقوق الإنسان والمواطن؟

الطبيب فوفيل : إنى رئيسها المحلي.

ممثل النيابة : رابطة ذات توجه سياسي؟

الطبيب فوفيل : فلسفي، على الأصح.

ممثل النيابة : أوليس المتهم دوران أيضا عضوا في هذه الرابطة المشاغبة بعض الشيء؟

الطبيب فوفيل : أوليس لكافة الناس حقوق يعملون على إقرارها؟

ممثل النيابة : أشكرك، يا دكتور، لكنك وصلت متأخراً جداً، وبرغم صداقتك لزميلك (أي جول) وواسع علمك فلن تتمكن، ولو بدافع محبتك لرابطتك، أن تعيد الحياة إلى الضحية الذي فارق الحياة دون مساعدة طبية، ودون اعتراف من أحد بحقوقه كإنسان وكمواطن.

المحامي : هل لي يا سيدي الرئيس، أن أعرب عن دهشتي، ليس من عبقرية، بل من تعسف السيد ممثل النيابة؟

الرئيس : المحكمة تشكر الشاهد. (إضاءة. الأب على المنصة يرفع يده) لست ملزما بأداء القسم، فالقانون يحترم بعض التكافل الأسري.

الأب : لكن يمكنني أن أقول: أن أقول: «أقسم» لأني مثل جول لست كاذباً.

جول : أبي!

الأب : (وقد رأى جول) ولدي!

جول : لم يتبادر إلى ذهني قط يا والدي، أن تصل بي الأمور إلى هذه الحال.

الرئيس : (للأب) توجه نحو المحكمة. (ثم وقد راح يصغي مع كل المحكمة إلى محلّف غير ظاهر) ماذا تقول؟ إني لا أسمع! حسناً، حسناً! (للأب) هل سمعت السؤال؟ المحلف الثالث يسأل الشاهد إن كان علم أن المتهم أراد قتله.

الأب : (الذي لا يفهم). ماذا؟

جول : يسألونك إن كنت تعلم أني أردت اغتيالك.

الأب : إنهم مجانين!

الرئيس : أرجو من الشاهد أن يزن كلامه.

الأب : ابني يغتالني؟! لمّا مرضت فإن ولدي هو الذي وقف إلى جانبي، وها أنا الآن محروم من العمل.

المحامي : ألم تعش دائماً في وفاق(*) تام مع ابنك؟

الأب : لا أعلم إن كنا ذكيين، لكننا شريفان. وأم جول محقة إذ تردد إنه ليس عدلاً إن غدونا تعساء.

جول : والدي، حينما أعود إلى البيت، نعود سعداء من جديد.

الأب : إننا ننتظرك يا ولدي، أنا وأمك، لكن أسرع، لأن الوقت طويل جداً. في الليل خصوصاً، عندما يستعصي علينا النوم إذ نفكر فيك وأنت في السجن.

ممثل النيابة : لم يجب الشاهد بعد على سؤال السيد المحلف الثالث. أصحيح أن ابنك أعلن أنه قد يطلب حذفك كما طلب حذف كابرون، لو عملت أثناء الإضراب.

الأب : لو عملت أثناء الإضراب؟ حسناً، الآن أنا أعرف الجواب: إن كان ولدي قال ذلك، فقد أصاب القول.

ممثل النيابة : هل أنت نقابي؟

الأب : أنا؟ لا، أبداً.

ممثل النيابة : (بلهجة انتصار) إذاً كيف كان بوسع المتهم أن يطلب حذفك من نقابة لا تنتمي إليها؟ ها هي ذي لفظة «حذف» قد عرفت أخيراً على أكمل وجه، أيها السادة!

جول : كنت أعني أنه لو كان والدي، أثناء الإضراب، عضواً في النقابة...

---

* إن كلمة Intelligence معناها وفاق وذكاء. لذا نرى الأب في رده على المحامي يأخذ المعنى الثاني.

ممثل النيابة : ما عدنا بحاجة إلى أي تفسير! إن كلمة «حذف» لا علاقة لها، لا من قريب ولا من بعيد، بأي نقابة، الحذف هو الموت! وهذه الكلمة اعتبارا من هذه اللحظة، لن تفارقني إلى نهاية المحاكمة، حيث سألفظها للمرة الأخيرة بكل راحة ضمير.

الأب : بماذا تهذي كل تلك العصافير هناك!

الرئيس : أذكرك للمرة الأخيرة بضرورة احترام المحكمة وأن تتكلم بأدب.

الأب : بأدب؟ لو أن أحداً سعى إلى توريط ابنك البريء ليدخله السجن، فأي أغنية كنت ستغني وقتئذ، أنت يا ذا الأدب! لكم أتوق إلى سماعها.

الرئيس : أيها الحارسان اخرجا الشاهد.

جول : أبي!

الأب : آه! أسرع يا جول، فأمك المسكينة تشيخ! (للحارسين) أما أنتما فلا تلمساني!

الرئيس : أيها الحارسان، اطردا الشاهد! وإني أطلب من الدفاع أن يلزم شهوده بقدر يسير من الاحترام إن أراد من المحكمة أن تواصل الاستماع إليهم. (جول يبكي) فليدخل الشاهد الثاني على أخلاق المتهم (حركة إضاءة. جوليا مذعورة) اقتربي. أيضاً! ارفعي اليد اليمنى، قولي: «أقسم».

جوليا : (ذاهلة) أقسم، أقسم، نعم أقسم أنه إنسان شريف. في الماضي كان حريا أن يعتبر قديسا، لأن القديسين قد سجنوا دائما، وعذبوا من قبل السلطات القائمة . .

الرئيس : أرجو من الشاهدة أن تخفف من حدة كلامها، وذلك لمصلحة المتهم.

جوليا : عفواً سيدي الرئيس، لكني في عزلة قاعة الشهود. أكرر منذ يومين كل عباراتي، وأنا أختنق، وكل الحقائق التي داخلي تود الخروج في آن واحد. لقد عشت إلى جانب هذا الرجل ثلاث سنوات، وأنا أريد، أمام عدالة بلادي، أن أقول الحقيقة. لقد أخطأت الشرطة. . .

ممثل النيابة : (مقهقهاً) حقاً؟ رئيس الأمن؟ المدافع الوحيد عن المتهم؟

جوليا : لقد قرأت كل الصحف منذ التوقيف. وهي كلها تتحدث بشكل عشوائي عما تجهله. عندماأفكرفيماتجرأت على نشره! قاتل؟ هذا الرجل الذي كان يريد نشر السعادة؟ كل أقواله قد شوِّهت. . . حتى أرباب العمل كان يجد لهم أعذاراً، في سبيل تبرير مواقف الآخرين راح يتهم نفسه أولاً. إنه يريد دائما أن يكون المذنب الوحيد. . .

ممثل النيابة : (مقهقها) هل قلت شيئاً غير ذلك؟

جوليا : . . . لأن قلبه يفيض (ممثل النيابة يقلد بقبضته حركة سحق رأس على الأرض). من لم يمر بمحنتنا لن يعرف أبداً الفرق القائم بين الصورة التي تصنعها الإشاعة لرجل

وماهـو في الواقـع. إننا بحقـارة نضع بـإصرار أقنعة على وجوه جيراننا، وكأننا لا نجـرؤ أن ننظر جهارا إلى بعضنا البعض، وكـأننا لا نجرؤ على النظـر إلى إخوتنا وأخـواتنا دون أن نواريهم خلـف قناع يطمئـن نفوسنـا. لكن لماذا نلبس جـول دوران، وهو الطيبـة بعينها، لبـاس قاتـل؟ هذا الرجل الرؤوف. . . أبداً لم أسمعـه يرفع صوته، أبداً لم يره أحـد غاضبـاً، إنه رجـل يعجز عـن تعنيف طفـل صغير. . . (تبكي)

جول : جوليا!

جوليا : طفلنا الذي ينتظرك هو أيضا.

ممثل النيابة : أيها السادة، أعترف بتـأثري، عينـاي تغرورقـان شفقة. الكلمات تخونني، لكن مازال لدي منهـا ما يكفي لأسأل هذه الشاهدة على أخلاق المتهم، من تكون.

جوليا : من أكون؟

ممثل النيابة : نعم، وضعك الاجتماعي.

جوليا : عاملة مصنع.

ممثل النيابة : أرجوك يـا آنسة، لا تحاولي خـداع المحكمة. المتهـم كما نعلم يقيم دعـوى طلاق، وهذا يعني أن التفـريق لم يتم بعد. هذا يعني أن دوران متزوج. وعليه، من تكون هذه الشاهـدة المثيرة للشفقة؟ فتـاة تعاشر المتهـم بصورة غير شرعية، بل وأماً أيضاً!

جوليا : فتاة أم؟ جول!

جول : (ينهض رافعا قبضته) وغد! وغد!

(همهمة)

الرئيس : أيها المتهم، عليك أن تسحب أقوالك فوراً!

جول : أيصل بـه الأمر لهذه الحقـارة! هل أنـا إذاً خطير إلى هذه الدرجة؟

ممثل النيابة : أرجوك أن تدع المتهم الذي لا يغضب أبداً، العاجز عن تعنيف طفـل ليظهر أخيراً وهو رافـع قبضته كاشفـا عن وجهه الحقيقي! وجه تلك الليلة التي أمر فيها بالاغتيال ورتبه!

الرئيس : حفاظا على اعتبار المحكمة آمرك أن تسحب قولك!

جول : نعم. إنما هم صم وعمي.

ممثل النيابة : لكنهم ليسوا صماً بحيـث لا يسمعون صراخ ضحيتك، ولا عمياً بحيث لا يرون جثة رجل اغتيـل لأنه كان يريد أن يعمـل كـي يطعـم أطفالـه الشرعيين مطـروحـة على الأرض.

(تجهش جوليا بالبكاء)

الرئيس : أيها الحارسان اطردا الشاهدة.

(خروج)

جول : لماذا كلما جـاء امرؤ على الأرض يقـول لأشقائه : «أحبـوا بعضكم بعضاً»، تحدث هذه الثورة من الحقد والنفاق؟

ممثل النيابة : باسم المجتمع أطالب بثمن الدم. في حكمكم ستظهرون إن كنتم مع أمن المجتمع والتطور، أو مع الفوضى والقلاقل...

المحامي : سادتي المحلفين، إنهم يدينون هنا العمل النقابي في حين أن المطلوب منكم هو النظر في جناية يعاقب عليها الحق العام. باستثناء السيد رئيس المحلفين، وهو دكتور في الطب، فأنتم جميعا من سكان الريف. وبالتالي لا أعرف كيف أشرح لكم ضرورة العمل النقابي؟

ممثل النيابة : هناك رجل قتل. العين بالعين، والسن بالسن، والرأس بالرأس. ثمن الدم.

المحامي : من خلال رجل ينظر في براءته أو مسئوليته الجنائية يندددون بالطبقة العاملة... اصغوا إلي، أود أن أحاول أن أشرح لكم... (يخفت الضوء إلى درجة الإظلام. على خلفية طبل يقرع نسمع) يجب ألا يكون حكمكم انتقامًا!

(يزداد ضجيج «قرع الطبل». تعود الإضاءة إلى حالتها الطبيعية. ووسط الصمت المطبق).

صوت : محكمة!

(ينهض الحضور. يدخل القضاة)

الرئيس : نظرا لأن المحلفين قد أعلنوا، أن ماتيو مذنب لأنه في ٩ سبتمبر(أيلول) ١٩١٠ ارتكب عامدا متعمدا جريمة قتل، ونظراً لأن المحلفين قد أقروا وجود الأسباب

المخففة، فإن المحكمة تحكم على ماتيو بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً، (يجلس ماتيو) وعلى كويانـدر بالأشغال الشاقة لمدة ثمانية أعوام. (يجلس كويا ندر). وبما أن المحلفين قد رأوا أن الشقيقين لويس وغاستون بوابيه غير مذنبين، فإننا نأمر بإخلاء سبيلهما على الفور (فرح الشقيقين بوابيه، ودوران) وبما أن المحلفين قد أعلنوا أن دوران مذنب لتسببه في الجريمة، عن طريق العطايا والوعود، والتهديد، وسوء استغلال السلطة، والمكائد، وكمين مدبر، فإن المحكمة تحكم على جول دوران بالإعدام، وسيتم قطع رأس المحكوم في إحدى الساحات العامة.

جول : (واضعا يديه على عنقه) سيقطع رأسي؟ هذا ليس مستحيلاً! أيها السادة، هذا خطأ آخر! أماه، إنهم يريدون الآن قطع عنقي!

(تسمع صرخة جوليا. ممثل النيابة يفرك يديه لقد كسب الجولة)

الرئيس : رفعت الجلسة.

(قرع طبول، أضواء على....)

المشهد الثالث عشر

(في مقدمة المسرح على اليسار بداية شارع. إلى نهاية المشهد والمسرحية يتواصل قرع الطبل بإيقاعات متنوعة).

روسيل : مغفلون! مغفلون!

أوليفييه : لكن يا عزيزي، من قال لنا إنه كان مذنباً، إن لم تكن أنت؟

روسيل : ليس الأمر أن نعرف إن كان هذا المغفل يستحق الموت أو لا يستحقه، بل إن كان هذا الموت لمصلحتنا أو لغير مصلحتنا. وإني أقول إنه في غير مصلحتنا! خمس سنوات يا سيدي الرئيس، ثم يخرج من السجن مخبولاً، مجهولا منتهيا، ثم يتوارى عن الأنظار. لكنه ميتاً فلن نستطيع الخلاص منه أبداً. كنت أريد أن أضع بين المحلفين رجالاً لنا. المحافظ ارتاب فينا. ذلك المغفل اعتقد أني أريد العقوبة القصوى. حسناً، فلتطب نفس المحافظ الآن، فالمتاعب وشيكة!

أوليفييه : اللعبة تمت يا عزيزي، لنترك الكلام في هذا الموضوع.

روسيل : لشد ما أخشى أن يعاود الآخرون الكلام فيه، وبأسرع ما يمكن.

(يخرجان)

في مقدمة المسرح اليمنى يضاء جزء من ديكور محطة.

عوارض السكة مائلة. الطبل يقلد هدير قطار يسير. على شاشة يظهر عنوان جريدة: «والد جول دوران يحاول الانتحار بإلقاء نفسه تحت قطار في محطة روان».

جوليا : أي نفس شريفة تستطيع تحمل هذه الفضيحة؟

الأم : (مبتهلة) لتتم مشيئتك يا رب. . .

جوليا : كلا! لن أستسلم للمحنة، ولسوف أندد بالفضيحة. . . (القرع يزداد) وإذا ما دعا الأمر فسوف أدعو الناس جميعا إلى الثورة. . .

(ستارة مقدمة المسرح تنفرج، تظهر إلى اليسار زنزانة دوران، النور مضاء).

جول : (محلوق الرأس، يرسف في الأغلال) أيها الحارس، أطفىء النور! أيها الحارس! إني بريء! اطفىء النور!

الحارس : القانون، هو القانون! سنطفىء لك النور حينما نقطع عنقك! في الخارج تظنون جميعكم أن الأمر مجرد تسلية! والآن اتضحت الأمور! أولاً، المحلفون يخلون في أكثر الأحيان سبيل القتلة. لذا فإني إذ أقبض على واحد منهم فسوف اعتني بك. بالقانون، ليل نهار النور مضاء، والأغلال في قدميك، ريثما يقطع عنقك، الرأس في جهة والجسد في جهة أخرى. . .

جول : أطفىء النور. أريد النوم. . . رأسي ينفجر.

الحارس : كلا ثم كلا. وعندما يبرد، نضعه برفق على رف. (يضحك)

جول : جوليا! جوليا! أنت التي لن أراها أبداً.

(قرع طبل في أعلى منصة - تحتها إلى اليسار الزنزانة، وماهي إلا لحظات حتى يظهر، إلى اليمين، ركن من صالون بوجنهارت ــ مزدان بالأعلام الحمراء، يقف المندوب محاطا بالشقيقين بوابيه والعاملين الآخرين).

المندوب : فتحت الجلسة أيها الرفاق، إن واحداً منكم، وبأمر من القضاء، سوف يعدم على المقصلة. (صياح) إنه بريء، وقد أدين لأنه كان بريئاً! هل ستدعون هذه الشناعة ترتكب؟ أولاً أعلنوا الإضراب في كل جمعيات المدينة! (صياح) ووجهوا نداء إلى جميع نقابات العالم قاطبة، لأن جريمة ترتكب ضد عامل في مكان ما من العالم تهم الطبقة العاملة في سائر أنحاء العالم والكون! لنطالب بالعفو الفوري عن دوران وإعادة النظر في القضية! وقعوا جميعكم من أجل العفو عن دوران! أنا الذي شاهدت والدي، ليس مقطوع الرأس بل مفتوح البطن، من قبل هذه القوى العمياء التي ندعوها بقوى الأمن... (صياح، تظهر جوليا) أيها الرفاق، إن شريكة حياة جول دوران تريد أن تخبركم بأمر ما.

جوليا : (تعتلي المنصة. هتاف) إن المواطنة، أرمة كابرون، تريد أن يعرف الجميع أنها وقعت على عريضة العفو عن دوران، لأن إعدامه، كما قالت لي، سيخلّف حقدا أبديا بين الوسط العمالي الذي تنتمي وبناتها الثلاث إليه... (هتاف) لقد اتخذت قرارها في وضع مأساوي... لكنها تعلم أنه كانت هناك شهادات

كاذبة مقصودة، وهي تريد أن تقول ذلك أمام القضاة، رغم أنهم أخطروها أنه سيقبض عليها عندئذ كشريكة في الجرم.

(صياح. يحضر عامل وهو يلهث فيسلم ورقة إلى المندوب)

المندوب : أيها المواطنون! احتجاجا على الحكم الصادر على دوران، فإن مرفأ دنكيرك قد أعلن الإضراب! (هتاف، ينشدون الانترناسيونال. يصعد عامل آخر على المنصة). وكذلك الأمر بالنسبة لمرافىء بوردو ومارسيليا وشربور التي تعلن تضامنها! (هتاف، ثم، وبإشارة من المندوب، يصمت الجميع، يسمع كلام بعيد، صراخ ، شجار، وجمل إسبانية). أيها الرفاق، إن مرفأ بيلباو في حالة حصار. لقد ثار عمال الفحم في إسبانيا من أجل إطلاق سراح جول دوران (هتاف). الحركة تمتد إلى إيطاليا. نابولي مضربة.

رسول : (يعتلي المنصة) أيها المواطنون! ليفربول قد أعلنت الإضراب!

رسول آخر : إن حركتنا تأخذ بعداً يذهل ويلقي الرعب في قلوب أرباب العمل. لقد قررت نقابات شيكاغو إعلان إضراب تضامني.

المندوب : شيكاغو! قلعة العمل النقابي! شيكاغو، مدينة الشهداء الستة الذين نحتفل بذكراهم في أول مايو (أيار)

(هتاف. طبل)

جوليا : استلمت رسالة من رفيقنا جول دوران. إنه يكتب إليّ من السجن: «لا أظن أبداً أن أناسا عديمي الذمة إلى هذه الدرجة يستطيعون الفوز!»

(هتاف، كلا، كلا!)

المندوب : لنواصل المعركة إلى أن ننتزعه من زنزانة الإعدام، حيث يرقب هذا البريء كل ليلة بزوغ الفجر في جزع، ورأسه محلوقة، وقدماه مغلولتان.

رسول : نقابات استراليا، عمال سيدني، بحارة ملبورن...

رسول آخر : عمال كارديف، نيوكاسل، وبيرمنغهام...

رسول آخر : مرافيء آنفير، وكاديكس وهامبورغ مضربة! عاش جول دوران!

(هتاف)

المندوب : إن القيصر الطاغية، امبراطور روسيا، اللص، قواد الجمهورية الفرنسية، الذي سرق منا مرة أخرى وللتو خمسين مليون روبل، قد أصدر يوم أمس فقط ثلاثة عشر حكم إعدام جديد، نفذت كلها. (صياح) هل يريد أن يعطي دروسا لرئيسنا فاليار فيحوله إلى قاطع أعناق؟

جوليا : إن عاملات فرنسا يدعون للإضراب العام من أجل إنقاذ جول دوران.

(هتاف تحت المنصة إلى اليمين، يظهر ركن من صالون بوجنهارت)

ليز : (في لباس الفروسية) كم أنت مضطرب يا عزيزي روسيل.

روسيل : أتفهمين الوضع جيدا؟

ليز : ألأن عمالنا يحدثون بعض الشغب في الشوارع؟

روسيل : . . . في شوارع العالم كله.

أوليفييه : ماذا ينتظرون لتنفيذ الحكم؟

روسيل : حقاً أن شهيداً ميتاً أقل إثارة للمشاكل عموماً من شهيد على قيد الحياة. . . لكنهم سيطلقون سراحه. . . فبعض شهودنا تراجعوا عن أقوالهم.

ليز : لماذا؟

روسيل : إنهم خائفون!

ليز : (تقهقه) هم أيضا؟

روسيل : لا شيء غير الحرب يمكن أن ينقذ البلد اليوم.

أوليفييه : الحرب!

روسيل : ما لم تحدث حرب، فسوف تحدث ثورة! في روسيا لم يسمح بأي تظاهرة تأييد لدوران. النظام مستتب هناك. وفي حالة الحرب لن يسمح القيصر أبداً للثورة أن تستقر في فرنسا.

ليز : (لأوليفييه) إن نشبت الحرب، فماذا ستصبح؟

أوليفييه : ملازما في الخيالة، سوف ألتحق بفرقتي منذ اليوم الأول.

ليز : لروسيل وأنت؟

روسيل : (مكتئباً) رقيبا في المشاة، الفيلق ١٢٩ . سألتحق أيضاً منذ اليوم الأول.

ليز : كل هذا، وأنا أصطاد.

أوليفييه : (لروسيل) ولو كان بريئا، فهو قد خسر ليدفع الثمن! لما توفي لوك هل أغلقت بورصات العالم كله أبوابها احتجاجا؟

ليز : لكن، حذار من أن تلقيا مصرعيكما في الحرب.

أوليفييه : ليز، إنها لراحة كبيرة أن يعلم المرء أن روحه بين يدي الله.

روسيل : نعم، لكنهم سيخلون سبيله! ولسوف يصبح رئيس المرفأ!

(المنصة، تحضر جوليا)

جوليا : أيها الرفاق! المواطن جان جوراس والمواطن أناتول فرانس من الأكاديمية الفرنسية هما في هذه اللحظة في قصر الإليزية حيث لا يلتمسان، بل يطالبان بالعفو عن جول دوران. (هتاف) ليس العفو من أجل إرساله إلى السجن المؤبد، بل الحرية الفورية. لأنه مصداقية لحكم صادر، بناء على شهادات زور. . .

المندوب : إننا لا نعرف سوى كلمة تجمع واحدة الحرية لدوران أو الإضراب الشامل!

(هتاف، طبل. تظهر تحت المنصة زنزانة دوران، بلا نور).

جول : أشعل النور! أشعل النور!

الحارس : الضوء للمحكوم عليهم بالإعدام، أما أنت فقد عدل حكم إعدامك إلى السجن سبع سنوات. الآن ستبقى سبع سنوات في الظلام. هل فهمت أيها المزعج؟

جول : أشعل النور!

الحارس : ما عاد بوسعي أن أقطع عنقك، لكن، إن سمعت صوتك مرة أخرى، فسوف أقطع عنك الحساء.

جول : لقد حكموا عليك بالإعدام مثلي لأنك كنت بريئا، فاستغلوك لتجريم أبرياء آخرين، ياياسوع، الأشرار يختبئون خلفك، لكنني سأكشف النقاب عنهم. سأحطم جدران كل السجون بغضبي.

(يضرب الجدار بقبضته، قرع طبول)

الحارس : كف عن هذه الضوضاء وإلا ألبستك سترة المجانين.

جول : أشعل النور!

الحارس : حسناً، سأضعك تحت الدش ثم أقيدك.

(يدخل إلى الزنزانة. صراخ. ظلام. نعود إلى المنصة)

المندوب : الحكم قد ألغي. سيخلى سبيل دوران اليوم! (هتاف) والدته ووالده وشريكة حياته العظيمة قد ركبوا لتوهم قطار الساعة العاشرة وعشر دقائق من أجل إحضار شهيدنا من السجن حيث أقام في زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام، ثم في زنزانة المحكوم عليهم بالمؤبد. هذا المساء وفي ختام نضالنا المثمر يكون جول بيننا. (هتاف) الواحد في سبيل الكل، كان يردد دوران، الكل في سبيل الواحد، كان جوابنا! فلنتواجد جميعاً، أمام المحطة، حاملين الأعلام والزهور، لنستقبل أطهر فرد فينا برفقة أسرته السعيدة أخيراً! (أمام الزنزانة المظلمة، الأب، الأم، جوليا، مسئول مستشفى الأمراض العقلية في كاترمار، مسئول السجن والحارس، وقد أصبح الآن رقيقاً كالفراشة. الأم تحمل أكياساً وقبعة لجول. القبعة تسقط من يدها، فتساعدها جوليا على التقاطها، فتستعيدها منها لأنها تريد أن تحمل كل شيء بنفسها. «قرع طبل خافت وطويل»)

الأم : (لمدير السجن). كنت أقول للجميع : ابني بريء. وكان الجيران يظهرون عدم التصديق.

الأب : والشهود الذين يتراجعون عن أقوالهم! هؤلاء الخنازير الذين يعترفون أنهم كذبوا.

الأم : وأنا التي كنت أحترم القضاء لأني كنت أعتقد أنه لا يمكن أن يخطىء.

الطبيب : سيقول ابنك ذلك، ولـلأسف، سوف يردده على مسامعك دون توقف : لقد صلب المسيح بناء على حكم نظامي جداً. . .

المدير : أيها الطبيب، هل ستتسبب له رؤية عائلته في صدمة فرح؟

الأم : «طبيب» ابننا ليس مريضاً؟

المدير : الطبيب هو مدير مستشفى كاترمار للأمراض العصبية.

الأب : مستشفى المجانين؟

الطبيب : لم يحتمل ابنكما السجن الانفرادي، ولا الشكوك التي أحاطت به، ولا الظلم والإدانة.

جوليا : ماذا تريد أن تقول؟

الأم : (تنحني لالتقاط القبعة، فيستبقها الحارس) شكرا لك يا سيدي، هذا لطف منك. لقد أحضرت بذلته الجديدة واشتريت قبعة.

الأب : هل تأخذ الإجراءات وقتا طويلاً؟ لأننا قبل ركوب قطار الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة، نود الذهاب لتناول الغداء أربعتنا، في المطعم الذي كنا نقصده أثناء المحاكمة، فنعود إليه رافعي الرأس.

الأم : لا، سنذهب إلى مكان آخر! إن رائحة طعامه تقزز نفسي.

جوليا : أيها الطبيب. . .

المدير : (للحارس) افتح وأضيء النور.

الحارس : أمرك سيدي المدير.

(تضاء الزنزانة)

الأب : جول!

الأم : (وقد جثت على الأرض) شكرا لك يا إلهي، ولمريم العذراء، ولسيدة الأمواج.

جول : كلا! لقد تخلى عني والدي!

الأب : أنا؟ أنا تخليت عنك يا بني؟!

الأم : ولدي!

جول : (ينزوي في ركن من الزنزانة) أطفئوا النور، فلا أحد سينتزعني من سواد الفحم.

الطبيب : (للأب) كي يتقبل في وحدته فكرة إعدامه، اعتبر نفسه يسوع المسيح واستمر على هذا الاعتقاد.

الأب : ماذا؟

الطبيب : إنه يعتبر نفسه يسوع المسيح.

الأم : هل آمن ابننا؟

الطبيب : ليس تماما.

الأم : إليك بذلتك الجديدة، يا ولدي، وقبعة...

جول : لن أغادر هذا القبر إلا محاطا بكافة إخوتي...

جوليا : جول! إنهم ينتظرونك جميعا على رصيف المحطة . . .

المدير : (للأب) إن ابنك يتعرض لنوبات عنف، خطيرة على من يحيط به.

الأم : وماذا بعد؟

الأب : (ممسكا المدير من تلابيبه) الأرض كلها تعلم أن ابننا بريء.

الطبيب : هذا ما اعتقدته دائما. فقد كنت رئيس المحلفين الذين أدانوا ابنكم.

جوليا : أنت، يا مدير مستشفى الأمراض العقلية؟

الطبيب : هذا غير متوقع، لكن هذا ما جرى. وقد كنت الوحيد الذي صوت على البراءة.

جول : أطفئوا النور. لا تضيئوا العذاب، فهو عبثي!

جوليا : وهل اعتقد حقاً سائر المحلفين أنه كان مذنباً؟

الطبيب : من أجل طمأنينتهم، لأنهم كانوا خائفين على محاصيلهم، خائفين على مدخراتهم. . .

الأب : إليّ بعنوان كافة سائر المحلفين.

الأم : لا تغضب يا أبا جول. يكفيني ما ألمّ بي من حزن. . .

الأب : أيحق لهم أن يذهبوا بعقل بريء ويواصلوا العيش بكل راحة بال؟

جوليا : والقضاة؟ ماذا حل بالقضاة؟

الأم : سامحهم الله!

الأب : لكن أتراهم يستمرون في إصدار الأحكام؟

الطبيب : هذه مهنتهم.

الأب : إذاً فالعدالة هي أيضا بلد الخنازير!

جوليا : هل ستأخذونه إلى مستشفى الأمراض العقلية؟ أهناك أمل في شفائه؟

الطبيب : نعم، لكن بمعجزة . . .

الأم : (بانفعال شديد) سأحتاج أيضا إلى معجزة كي أجد ولدي؟

الطبيب : (للأب) ستوقع عنه ورقة إخلاء سبيله. وحكومة الجمهورية تتكفل بسائر نفقات المستشفى.

الأم : وماذا أفادنا كل العذاب الذي تعذبناه؟

جوليا : سيدي المدير، أيحق للذين فقدوا عقلهم الزواج؟

الطبيب : لا يا آنستي. لا يحق للمجنون أن يتزوج.

(تنهار جوليا)

جول : أنقذوا كل البشر فوراً وإلا حطمت كل شيء، فشقاء البشر ما عاد يطيق الانتظار.

(يسيطر الحارس على جول. الأم تبكي بين ذراعي الأب).

جوليا : جول، وطفلنا الذي لن يعرفك.

جول : وشقاء البشر، ماذا يفعل به أولئك الذين يعيشون في رغد عيش؟

(تضاء المنصة ثانية. قرع طبل بطيء مأسوي)

المندوب : أيها المواطنـون، لم يستطع رفيقنـا دوران ركوب القطـار. لن يتسنى لنا أن نرى بعد الآن رفيقنا جول دوران.

(الرايات الحمر تنكَّس. قرع الطبل يخف والنور ينطفىء ببطء).

النهاية

اقتسام الظهيرة

تـأليــــف : بــول كلـوديــل
ترجمة وتقديم : محمود قاسم
مراجعـــة : د. عبدالغفار مكاوي

العنوان الأصلي للمسرحية

Partage de Midi

مقدمة

رغم أن بول كلـوديل واحد من أشهر كتـاب المسرح الفرنسي الحديث، إلا أن أحدا من المترجمين العرب لم يجرؤ على الاقتراب من مسرحياته لعدة أسباب، لعل من أهمها صعوبة وخصوصية اللغة التي يكتب بها. فهي لغة ذات مذاق خاص، وتعبيرات «كلـوديلية» سواء في مفـرداتها أو في معانيها أو في تـركيبات عباراتها.

ورغم أن العالم العربي مليء بسلاسل الكتب المهتمة بترجمة المسرح العالمي، إلا أن أيـا من هـذه السلاسـل لم ينشر مسرحية واحـدة للكاتـب، الذي أثـار مسرحـه الكثير من النقـاش، لا فيما يتعلـق باللغـة فحسـب، بل فيما يتعلـق بموقفه من الدين والحياة والمجتمع.

وقد اخترنـا أن نقدم مسرحيـة «اقتسام الظهيرة» لكلـوديل لكـونها إحدى مسرحياته التـي لا يبدي فيها الكاتـب شيئا من مواقفـه وآرائه المتشددة، وإنما حاول فيها أن يصنـع تناغما لغــويا خاصـا، لا هــو بالشعر، ولا هـو بالنثر، ولا هو بالشعـر المنثور. فهو يختلف تمامـا عن لغة كل المسرحيين المعـاصرين والأقدمين. وكما تقول كلـودين شونيه فـإن «لغة كلوديل، هـي في المقام الأول ثرية بمجموعة من المعاني المترجمة في إيقاع واحد، وتعكس بعض صور العالم، وهي مصنوعة في المقام الأول لتتناسب مع حس المفكر»(١).

ويهمنا قبل أن نتناول مسرح كلوديل ولغته، أن نستعرض حياته، والعوامل المؤثرة فيها، والمحيطة بها.

ولـد بـول لـوي ــ شـارل مـاري كلـوديـل في مـدينـة فيينيـف ــ سير فير Villeneuve sur - Fere في السـادس مــن أغسطـس عــام١٨٦٨ في أسرة بسيطة لأب يعمـل موظفا في تسجيل العقـارات، وهو الابن الثـالث والأخير لأبيه بعـد شقيقتيه لويز وكـامي، وقد اتسمت هـذه الأسرة بالتدين الشـديد، فعم أبيه هـو القس سرفو الذي مات بعـد عام واحد من وفاة بـول، وترك أثره

الملحوظ في الأب وبقية أعضاء الأسرة. . فما أن اقترب الصغير من سن الخامسة حتى أرسله أبوه إلى مدرسة الأخوات المسيحيات في بارلوديك كي يتلقى تعليمه الأولي. . ووجد نفسه في جو ديني عليه أن يتعلم فيه كل ما يتعلق بالدين والحياة والآخرة. . وقد ظل الصغير في هذه المدرسة إلى أن بلغ الثانية عشرة من عمره، ورحلت الأسرة إلى مدينة واسى للإقامة المؤقتة بها. . إذ ما لبث الأب أن شد رحاله مع أفراد أسرته إلى باريس في عام١٨٨٢ للإقامة الدائمة بها. والتحق الصغير بمدرسة ليسيه لوى لوجران، وفي هذه المدرسة أبدى نبوغا في نظم الشعر، ودراسته، لدرجة أنه حصل في عام ١٨٨٣ على جائزة الشعر الأولى، وقام المستشرق والمؤرخ المعروف إرنست رينان بتسليم الجائزة للشاعر الصغير. وكان هذا اللقاء سببا في تحول ملحوظ في حياة كلوديل الذي أعلن أن رينان كان ماثلا دائما في خياله طوال إبداعه وكتاباته. .

وقد سعى كلوديل إلى مقابلة كتاب عصره، ومحاولة السير في ركابهم. ففي عام ١٨٨٥ قرر أن يسير في جنازة الشاعر والروائي فيكتور هيجو تعبيرا عما يكنه له من إعجاب وحب، ورغبة في رؤية الأدباء عن قرب وهم يحضرون مراسم الجنازة.

وإذا كان كلوديل قد اعتبر أن لقاءه برينان هو الخطوة الأولى نحو طريق مهده جيدا من أجل السير على دربه، فإنه يؤكد أن يوم ٢٥ ديسمبر ١٨٨٦ هو نقطة التحول الحقيقية. ففي هذا اليوم قرأ لأول مرة ديوان الشاعر رامبو «فصل في الجحيم»، وفيه كتب قصيدته «هدى». . التي اعتبرت من أبرز أعماله وأكثرها تميزا. . وفي العام التالي انبهر الشاب حين سافر إلى روما، وفي شوارع المدينة راح ينظم الكثير من القصائد التي استوحاها من التوراة ومنها «مايو المظلم» و«أغنية الخريف» وأرسلها إلى الشاعر الرمزي مالارميه تعبيرا عن إعجابه به.

يقول أندريه آلتيه إن كلوديل تأثر تأثيرا كبيرا بأشعار رامبو، وخاصة في

ديوانيه «إضاءات» و«فصل في الجحيم»، في تشكيل لغته الشعرية وإبداع أشعاره الأولى. وإذا كان كلوديل مديناً لرامبو، فإن العلاقة بين الاثنين قد ذهبت من الناحية الأدبية، إلى أبعد حد ممكن. لقد كان رامبو بمثابة الأب الروحي لكل إبداع كلوديل فيما بعد، وسيطر على مفاهيم الكاتب ومعرفته، وكأنه قد رشف من إبداعه مثلما يرتشف الرضيع من ثدي أمه.. (٢).

ويرى آلتيه أن كلوديل تأثر أيضا في هذه السنوات بأشعار فيكتور هيجو. فقد علمه كيف يتأمل الأشياء، وكيف يتصل بها ويحاورها ويعرفها ويتحد معها حتى النخاع، ومثلما جاء في كتابه «القصائد».

هكذا عندما تتكلم أيها الشاعر، عن المباهج المتعددة.

وأنت تسمي كل شيء باسمه.

كالأب، الذي تناديه بغموض في منبعه وماضيه.

فأنت تسهم في خلقه، وتندمج في وجوده.

وفي عام١٨٨٩ نشر كلوديل الطبعة الأولى من كتابه «الرأس الذهبية».. كما اتجه في تلك الفترة للاهتمام بالعلوم. وربما دفعه إلى ذلك إعجابه الشديد، كما سبق القول بـ «إرنست رينان» الذي نشر في عام١٨٩٠ كتابه «مستقبل العلم»، وقرر أن يسير على هدي أستاذه فالتحق بمدرسة الشرقيات من أجل دراسة اللغات الشرقية، وقضى الفصل الدراسي الأول في مدرسة الشئون الخارجية، لكنه لم يلبث أن توقف عن استكمال الدراسة، وراح يتردد على كاتدرائية نوتردام كي يستقي منابعه الأخرى.. وحينئذ نشر قصيدته «المدينة» في كتيب صغير..

في تلك السنوات تعددت اهتمامات كلوديل وحاول أن يجد لنفسه خطا أدبيا متميزا دون أن يستقر بشكل واضح.. فراح يترجم فصولا من مسرحية أورستيس لأسخيلوس، ثم توقف عن الترجمة كي يكمل كتابا آخر له عنوانه «الشابة النرجسية» عام١٩٠٣، وهو نفس العام الذي عيِّن فيه قنصلا بمدينة بوسطن بالولايات المتحدة، وظل هناك لمدة عامين أنهى خلالهما كتابه

«التبادل»، ونظم بعض القصائد النثرية التي نشرت فيما بعد تحت عنوان «معرفة الشرق»، هذا الشرق الذي جذب إليه الكاتب بشكل ملحوظ فأخذ يتطلع إلى السفر إليه. وبالفعل قرر أن يسافر إلى شنغهاي والإقامة بها بعض الوقت. . وسعى إلى أن يتولى منصبا دبلوماسيا هناك، ونجح في أن يصبح نائبا للقنصل الفرنسي في إحدى المدن الصينية، وما لبثت الحياة الوظيفية أن استغرقته بعض الوقت، فراح يفاوض من أجل إقامة خط حديدي بين المدينة التي يقيم بها «هان كيو» وبين العاصمة «بكين». . وحتى لا ينسى الشاعر الذي ينبض في داخله، كان يسعى إلى إعادة طبع كتبه مرة أخرى. . مثل «الشابة النرجسية» و«المدينة»، وفي عام ١٨٩٨ غادر الصين إلى اليابان للإقامة بها بضعة أسابيع قبل أن يعود إلى بلاده.

وفي باريس وجد الشاعر نفسه يعاود سيرته الأولى. . فكتب القصائد النثرية الغريبة الشكل واللغة، ونشر بعض قصائده التي سميت بـ «خمس قصائد كبيرة».

وفي عام١٩٠١ عاد كلوديل مرة أخرى إلى الصين. وفي مدينة «فو-تشيو» راح يعد قصائده للجزء الثاني من كتابه «معرفة الشرق». وتابع نشر أعماله، وقرر أن يتجه لأول مرة للمسرح، فنشر مسرحيته الأولى «الشجرة» عام ١٩٠٣.

وفي عام١٩٠٥ أنهى كلوديل فترة إقامته وعمله في الصين، وعاد إلى فرنسا مرة أخرى حيث تم تعيينه قنصلا من الدرجة الأولى، وعكف في نفس العام على ترجمة أشعار الكاتب الأمريكي إدجار آلان بو بعنوان «حكايات الأسود». . وانتهى من تأليف مسرحية «اقتسام الظهيرة». .

وفي عام١٩٠٦ تزوج بول كلوديل من ابنة أحد المهندسين المعماريين ثم رحل مع زوجته إلى الصين كي يعمل قنصلا في العاصمة بكين، وسكرتيرا أول لدولته هناك، وفي تلك الفترة عكف على تأليف كتابه «روح الماء». . ورغم وجود زوجته معه، ورغم إقامته السابقة في الصين، فإنه كان يحس بغربة شديدة مما دفعه إلى كتابة مجموعة من المراسلات المتبادلة مع صديقه الكاتب

جاك ريفيير لم تتوقف حتى عام١٩١٤ . وفي عام ١٩٠٧ انتهى الكاتب من تأليف مجموعة أخرى من إبداعاته منها «تسبيحة البتول» و«القطوف»، وبينما هو يكتب «الرهينة» رزق بابنه الأول بيير في عام ١٩٠٨ . . وفي ابريل من العام التالي عاد مرة أخرى إلى فرنسا قبل أن يسافر للعمل في براغ محطته الدبلوماسية الثالثة بعد كل من الولايات المتحدة والصين، وأقام هناك لسنوات أخرى لم ينقطع خلالها عن الحركة الأدبية الفرنسية. ففي عام١٩١١ أسس «المجلة الفرنسية الجديدة» بالاشتراك مع كل من أندريه جيد وجاك ريفيير وجاستون جاليمار، وفي عام١٩١٣ رحل إلى هامبروج بألمانيا ليعمل قنصلا عاما، وهناك قرر أن يكمل ترجمة مسرحية أورستيس، كما بدأ في تأليف مسرحية «الخبز الجاف»، وقد ظل كلوديل في هامبروج إلى أن اندلعت الحرب العالمية، وأنهى هناك مسرحيته «الخبز الجاف» ثم كتابه «قربان الزمن». وفي عام١٩١٥ سافر إلى روما من أجل الإشراف على مشروع الخط الحديدي بين فرنسا وإيطاليا، ثم رحل إلى البرازيل حيث انتهى من تأليف «الأب المهان»، وانتهى من ترجمة مسرحية أورستيس كاملة ودفع بها إلى الناشر.

ورغم أن كلوديل قد ترقى في المناصب الدبلوماسية، فإنه لم يتوقف عن الإبداع، بل عرف في تلك السنوات بغزارة إنتاجه. فقد تتباعت أعماله المسرحية والشعرية ومنها مثلا في ١٩١٧ ، «الدب والقمر» و«الإنسان ورغبته» وديوانه «أوراق القديسين» عام ١٩١٨ ، ثم عاد إلى اليابان سفيرا في عام١٩٢١ حيث عكف على تأليف مسرحيته الشهيرة «حذاء الشيطان»، وتوالت أعماله في طوكيو فنشر «المرأة وظلها»، إلا أن زلزالا أصاب المدينة عام١٩٢٣ ، وفقد خلاله الجزء الثالث من «حذاء الشيطان» مما دفعه إلى أن يعيد كتابة المسرحية بالكامل، ونشر انطباعاته عن اليابان تحت عنوان «نظرة على الروح اليابانية».

ووسط غزارة إنتاج الكاتب، كانت التنقلات الدبلوماسية لا تنتهي، فسافر في نهاية عام١٩٢٦ إلى واشنطن للعمل سفيرا لبلاده، وهناك كتب «الطائر الأزرق في الشمس المشرقة».

وقد أقام هناك قرابة ست سنوات لم تشهد خصوبة المرحلة اليابانية، إلا أنه عندما عين في بلجيكا سفيرا لبلاده عام ١٩٣٣ راح يمطر المطابع بالعديد من المؤلفات منها «جان دارك في المحرقة» عام١٩٣٤ و«السيف والمرآة» عام١٩٣٥. وشغلته أمور الحياة فتوقف لسنوات عديدة عن الكتابة شهد خلالها الموت يتسرب إلى عائلته، ففقد أخته كامي كلوديل وابنه الأصغر وفي عام١٩٤٦ تم انتخابه عضوا في الأكاديمية الفرنسية. وتوقف تماما عن الإبداع حتى وفاته في ٢٢ ابريل عام١٩٥٥.

والغريب أن آخر كتاب قرأه جان كلوديل في حياته قبل الرحيل كان عن رامبو الذي تأثر به تأثرا واضحا في كل كتاباته.

يقول أندريه آلتيه في كتابه عن كلوديل أنه لم يكن يؤمن بضرورة المعرفة للأديب. فقد كان يخاف من تأثير المعرفة على الإبداع، ولذلك لم يحاول أن يتخصص في نوع معين من الكتابة.

وقد كان كلوديل يعتقد بأن هناك قنوات خاصة تربط بين فنون الإبداع التي مارسها، لا سيما الشعر والدراما وبعض الصفحات من سيرته الذاتية التي كان يكتبها بين وقت وآخر(٣).

ولعل أهم مدخل إلى كلوديل هو الحديث عن لغة المسرح عنده بصفة خاصة، لأن هذه اللغة تنعكس على شعره، ومفتاح الدخول إلى لغته هي العبارة التي قالها الناقد جول رينار في يومياته «يتكلم كلوديل مثل آلة الكلام، فشفتاه تتحركان بتثاقل واضح عاكسة العنف الموجود في الجو، فهو يتكلم بنظام مضرب التنس»(٤).

وسوف نلاحظ صدق هذه العبارة على كل الحوار الذي كتبه كلوديل على لسان أبطاله في مسرحياته وليس فقط في «اقتسام الظهيرة»، ولعل هذه اللغة أن تكون نابعة من إعجاب كلوديل الواضح بأشعار وشخصية الشاعر رامبو، الذي كان يرى أن لغة الشعر هي لغة الكلام الآلي. وأن على المثقفين ألا يقربوا إبداع الشعر لأن الثقافة تفسد تلقائيته، وكلما ارتفعت حصيلة المرء من

المعرفة، ضعفت طبيعة الشاعر فيه وأخذ يحسب العبارات التي ينتقيها بما يتناسب مع ماينظمه . .

وقد أكد الشاعر هذا الرأي في إحدى مقالاته التي نشرت في كتاب «أوضاع واقتراحات» عندما قال :

«يتضارب الفكر بين كل من المخ والعقل، وجهازنا التفكيري يحمل عبئا ثقيلا لايتفق مع الخط المتقطع، وهو يشع بالضوء ويهتز من الأفكار الجديدة والصور، والذكريات والمفاهيم والمصطلحات ثم يتحدد قبل أن يعي الفكر نفسه في مشهد جديد. ومن خلال هذه المادة الأولية، تصيب الأديب حالة تجل أو إشعاع في عقله وذوقه، وتقوده إلى هدف ربما يكون أكثر أو أقل غريزية فيعمل، ولكن من المستحيل أن نعطي صورة حقيقية عن مسار الفكر إذا لم يؤخذ التناوب في الحسبان.

ومنذ أن كتب الشاعر أولى قصائده، ومرورا بكل أشعاره وحوارات شخوصه في المسرحيات وهو مؤمن بضرورة الابتعاد عن آلة الكلام التي يستخدمها المرء في حياته اليومية، عن الكلمات المنمقة المتسقة التي تجعل المعنى على وتيرة واحدة ولنفس الكلمة، مما يفقدها روحها ونبضها وانعكاساتها المرتبطة بإحساس التوتر والسعادة الحقيقية مثلا. فالكلمة المنطوقة والمكتوبة هي في الغالب حالة معرفية عن شيء يفوقها، حالة وجدانية وإحساس داخلي. لذلك كان على الكاتب، والشاعر بصفة خاصة، أن يستخدم تعبيرات خاصة هي مثل اللون في اللوحة، ليس من أجل «الديكور» والتجميل، بل لأجل أن تعكس حالة نفسية خاصة من الفنان إلى المتلقي. يجب أن تكون الكلمة الشعرية، والحوارية، عند كلوديل أشبه بالنغمة الموسيقية ذات المعنى المجرد ماديا. ولذلك فإن حالة المعرفة، وحالة البهجة والسعادة لا تتعارضان فيما بينهما إذا استخدمت الكلمة الصادقة التعبير عن الحالة النفسية البعيدة عن النمطية. ويمكن القول، كما يرى أندريه آلتيه، إن المسيرة التي تؤدي إلى الإبداع هي محاولة لممارسة البهجة. والاختلاف الرئيسي

بين كـاتب وآخـر هو العبـارة التـي يستخدمهـا مـن أجل التعبير عـن حالـة الأشياء. وكما يقـول كلوديـل: «نحن نعلـم القارىء، نشركـه معنا في حـالتنا الإبداعية والشعـرية، ونضع في الفم السري لعقلـه عرضا لشيء ما بشعـور ما يتناسب مع فكره وتركيبه العضوي الطبيعي للمفاهيم».

وسوف نـرى تطبيقا واضحـا لهذه المقولات في مسرحيـة «اقتسام الظهيرة». لكن مـن أبرز ماجـاء من تعبيرات للكاتـب، وهي تـركيبات يصعب تـرجمتها بدقة، ماورد في إحدى مسرحياته:

واحد، واحد. واحد. واحد. واحد.

بأن (لاشيء) بأن (لاشيء)، بأن (لاشيء)

الهجاء الأساسي، في وقت ضعيف وزمن قوي.

ويرى «آلتيه» أن كلوديل أراد العودة بلغته وأشخاصه إلى الطبيعة حين كان الإنسـان يتعلـم الكلمات للمـرة الأولى وبمعـانيهـا المجـردة. ولقـد كـانـت الكلمات، ولاتـزال، عاجـزة عن الـوفاء بكـل مـا تحمله النفـس من جيشـان الأحاسيس. والشاعر هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يستخدم الكلمات كي يخلصها من معنـاها التقليدي، وهو الذي يمكنه أن يتـأمل الجمال الكوني كي يعكسه في مشهد من مشاهده الإبداعية(٥).

وإذا كان كلـوديل قد استقى هـذه المفاهيم من رامبـو، فإنه مديـن من ناحيـة أخرى لمالارميه الذي أعطـاه الدرس الأكبر ذات يوم حين قـال له: كل ما أتيت به إلى الأدب، أنني لم أحاول أن أردد وأنا أكتب أحد المشاهد: «ماهـذا؟» بل حاولـت أن أصف الأمر بـأفضل مايقـال وأن أردد حقيقة: «ماذا يعني هذا؟»..

هكذا حاول كلوديل أن يحطم الحدود بين المعاني التقليدية للكلمات والمعاني المنشودة لها في مفهومه الخاص، مؤمنا بأن أهمية الكلمة التي يستخدمها تجيء من الـرد على السؤال الذي سبـق أن طرحه وهـو: «ماذا تعني هـذه الكلمة؟»

والبحث عن المعنى هو هدف الشاعر والكاتب في المقام الأول قبل إيجاد الكلمة المنشودة. ومن هنا تجيء صعوبة النص. فعلى الكلمة أن تقترب تماما من معناها الذي يريده الكاتب، والذي يحسه أبطال مسرحياته.

ويستطرد أندريه آلتيه قائلا: «يجب أن نحدد أولا أن هذا الشعر الذي يكتبه كلوديل، لا يعود إلى أصوله إلا بمحاولة أمينة لتجريد الهجاء الأساسي».

وقد وصف لنا كلوديل ذلك في الطبعة الثانية من مسرحيته «المدينة» عن الشاعر الذي أصبح قديسا:

يابني! عندما كنت شاعرا بين البشر،
أبدعت هذا الشعر الذي لا يقاس بالقافية ولا بالوزن،
وأنا أزخمه في سر قلبي بإحساس مزدوج وليس له نظير،
فيه يرتشف الإنسان الحياة، ويندمج داخل المشهد النهائي للزفير.

وحول هذا النص قال ستانسيلاف فيميه: «إن الشعر الثري الذي كتبه كلوديل هو في الأساس نبض القلب، وحركة النفس، وهو لا يتميز في تلك الحقبة بالشعر الدرامي لمسرحه».

فهناك لحظة يكون على الشاعر فيها أن يبرهن على حاجته للانطلاق وإصابته بالملل والتخلص من التوتر الدرامي، وعليه أن يتبنى بعض الأشعار، ويعاود تنظيم كلمات القصائد التي سبق أن كتبها(٦).

آمن كلوديل بأن المسرح هو أهم فنون الدراما التي يمكن أن يستخدم فيه مفاهيمه حول اللغة والشعر، فهو قائم على الحوار المكثف والمتعاقب الذي يعبر عن آراء الشخوص ومشاعرها في حالات متتابعة، متناقضة أو متناسقة فيما بينها، ولذلك اهتم بالمسرح من خلال ما أسماه بالشعر المنثور الذي لم يبتعد فيه عن تأثره بشاعره المفضل رامبو.

ولا يمكن الحديث عن لغة الشعر عند كلوديل دون أن نقرن اللغة بالزمن الذي تتردد فيه أو المكان الذي ينوء بأصدائها. فالزمن عند الكاتب يؤدي

دورا هاما، والكاتب يسعى في المقام الأول إلى معرفة الزمن، والتخاطب معه والاندماج داخله حتى لو انعدم من بين يديه، وقد خصص الكاتب أندريه فاشون كتابا بأكمله عن «الزمان والمكان في أعمال بول كلوديل». . (٧)، أكد فيه أن الشاعر قد اهتم بإيجاد زمنه الخاص من أجل الانطلاق من هذا العالم، وذلك في محاولة للاتجاه الحقيقي ناحية الله، محطما كافة أشكال الأزمنة التقليدية المتعارف عليها، والتي تمكننا من قياس الحد الذي يرتبط به عمله بالزمن، والشهر هو في الأصل مجرد مشروع، وأسلوب وجود، وبهذه السمات الأساسية لا يكون التعبير الكلوديلي الشعري سوى حالة من التخيل البالغ الخصوصية والخيالية، مرتبطة بإبداع وزمن الشاعر للتوحد، ورغم ذلك فإن كلوديل لم يكن أبدا مشروعا، وإنما كان محاولة للقفز بالشعر ناحية الله، وهو الكائن في كل زمان ومكان. ويستخدم كلوديل لغة موسيقية شعرية في مخاطبة الله بما يتناسب مع مكانته القدسية والروحية، وقد ساعده ذلك على أن يحس بمدى عجز الكلمات عن التعبير عن الخالق العظيم الذي أبدع الأشياء في صورتها العظمى التي نراها في الكون. ولذلك فاللغة التي يناجي بها الشاعر ربه هي في المقام الأول لغة مفهومة للخالق العظيم.

ويؤمن كلوديل بأنه لا توجد مصادفات في الشعر الحقيقي. . بمعنى أن تلعب المصادفة دورا في تميز قصيدة أو إبداع لنفس الكاتب عن آخر. . فاللغة هي الأداة الأولى في نفس الشاعر ويمكنه استخدامها بما يمتلك من أدوات هذه اللغة، وذلك مثلما جاء في كتابه «ربة الفن»:

«فلأعرف دوما ما أقول، فلأكن ملحوظة في عمل! فلأفن في حركتي! لا شيء عدا لكزة يد صغيرة كي أسود. لا فليس وزني كنجم ثقيل عبرة مرئية متشابكة كجموع النمل».

ويهمنا هنا أن نشير إشارة عابرة، إلى العلاقة التي ربطت بين بول كلوديل وبين خالقه الذي أحبه حتى النخاع، وكرس أكثر كتاباته للتعبير عما يجيش في قلبه نحوه. . فالله وحده هو مركز الكون، وهو الكائن الوحيد الموجود بينما

البشر فانون، والعدم موجود دائما خارج الكيان الإلهي، والخلق هو فكر الله كي يفني العدم. فكل ماهو موجود أو على قيد الحياة هو نتاج يتخلله الوجود مع العدم، وذلك مثلما جاء في مسرحية «حذاء الشيطان» حيث طرح السؤال التالي:

دون كامي: هكذا، ماهو العدم الذي ود الله أن يضعه في صدر أمره؟

دونا بروشئيز: هل كان ينقصه شيء؟

فالله يسمح للخلق أن يستقبلوا شرف العدم، ومسيرة الوجود ناحية العدم ربما كانت هي الحب النقي، والأشياء لا تتحقق بوجود الله بداخلها، أو كما يؤكد كلوديل «هذا العالم الواسع الذي يحوطنا بالذين يجيدون الحب والخيانة، واللقاء والفراق».

هذه لمحات من رأي وموقف كلوديل من المسرح. فهو، كما جاء في كتاب «آلتيه»، المقياس الذي يقيس به الشاعر مستوى زمنه وعصره.

وكلوديل لم يحاول أن يتكلم من مقعد المتفرج، بل أن يتكلم من مكان عال. لقد كان عليه اختيار لغته الخاصة التي يجب على الجمهور أن يفهمها ويرتقي إليها كي يحدث التلاقي بين الكاتب والجمهور.

وقد حاول كلوديل أن يطبق مفاهيمه عن الشعر في كل مسرحياته، ابتداء من أعماله المبكرة إلى آخر مسرحياته، وكان يسجل هذه الآراء في يومياته، كما كان يمليها على النقاد الذين يتابعون أعماله. ومن المعروف أن كلوديل كانت تربطه علاقة غريبة بالنصوص المسرحية التي يكتبها. فهو دائما في حالة تأليف لهذه المسرحيات، يضيف إليها أو يحذف منها مايشاء.. وعند الطبعات الجديدة لهذه النصوص كان يجري الكثير من الإضافات والتغييرات للنص المطبوع.

يتحدث بول كلوديل عن اللغة الشعرية في مسرحيته قائلا:

«أعتقد أن الفكرة الأساسية لهذا العمل باللغة-البساطة وأنه ليس من السهل أن نلخصها في بضع كلمات.

لقد صدمت دوماً من واقع المعرفة المنطوقة. أي سلطة المعرفة الداخلية للإنسان، فهي أصل المعنى، وهي تعني الذكاء، وهي تشكل الوجود الداخلي للإنسان. هناك دائما في الحياة، وفي المسرح أشياء عديدة تمتزج، هناك الذكرى، والإرادة، والذكاء ويقال إن كل هذه الكليات تشغل في كل إنسان ركنا صغيرا، وإنها الواحدة وراء الأخرى ليست سوى علاقات يمكن أن تقول «عالمية» رسمية. ولكن يمكننا أن نعرضها بشكل منفصل. أجد هذه الفكرة مزيفة تماما، وأجد أنه ليست هناك كليات إنسانية معزولة أو منفصلة عن الأخرى، وأنه يمكن أن نوظفها دون أن تكون للأشياء الأخرى أي أهمية. حتى في علوم الرياضة، فالذكرى، والإرادة، والإحساس، والشعر، والوجدان، تلعب هذا الدور، لكل منها دور منفصل، وفي المعرفة الفنية وفي المعرفة الحسية فإن هذه الأمور قد اتفق عليها علميا فوراء المشاعر المنطوقة تكمن الذكرى، ويوجد الذكاء، وهذا كله شيء مهم. ويمكن إضافة أن الإنسان في داخله كائن لا ينفصل، مثلما يقول الإنجليز «لا يمكن فصل مكونات العجة» وأرى أنه لا يمكن، مثلما يفكر الهندوس مثلا، أن ننثر الإنسان في طبقات مثلما يفعلون مع الجماد. يقال إن للبصل ١٧ طبقة، ويبدو أننا نفترض أن للوجود الإنساني طبقات متراكبة يمكن أن نعزلها. أنا لا أؤمن بذلك، فالوجود الإنساني كلي وكامل، ولكل إنسان كلياته، وقد خلقه الله هكذا»(٨).

وقد آمن كلوديل بأن الإنسان في حالة صيرورة، وأن النص بالضرورة يجب أن يعيش في صيرورة. فقد أخذ يغير من هيكل مسرحية «المدينة» التي كتبها في فترة مبكرة من عمره حتى آخر طبعة لها في حياته، وكم وجد متعة في هذا التغيير.

والدليل على هذا أيضا أنه انتهى من تأليف مسرحية «اقتسام الظهيرة» في عام١٩٠٦، واختار أن يصوغها باللغة التي اختارها لنفسه في بقية مسرحياته، وهي لغة الشعر المنثور أو النثر الشعري، وقد ساعده في ذلك موضوع المسرحية نفسها: حكاية الزوجة التي يعيش في حياتها ثلاثة رجال، المرأة الملتهبة

المشاعر بين زوجها وحبيبها سهلـة الانتقال بين هذا وذاك، تتصرف كما تشاء، ويمكنها أن تعيش لحظتها، فتحس أنها أبدية . .

يتحدث كلـوديل عـن عام١٩٠٦ الـذي كتب فيـه هذه المسرحيـة قائلا: «تعتبر هذه السنة بالنسبة لي بمثابة تغير جـذري لوجودي يمكن أن نشبهه بأنه حالـة من التدفق، أو التغير الكـامل. لقد تـزوجت، مما يعني أننـي تحملت مسئوليـات جديـدة، ولأول مرة تبدو الأمـور واضحة أمامـي على مسافـة تمتد بعيدا، مما دفعني أن أعتبر فني كحالة انبثاق واكتشاف، وأن هناك اختلافا.

«في عام١٩٠٦ كنـت أعد دراساتي. وشكـل هذا العـام بداية للتـوغل في المنابع التي رحت استلهمها. وبصفة عامة يمكن أن أقول أن هذا العالم بدأت في الرضـى به، وفي ممـارسته، وكل مـا فعلته حتـى تلك الآونة هـو حالـة من التقصي، والبحث في جهات مختلفة، البحث عن أشياء أكثر أو أقل نجاحا، رغم أنها تحقـق وجوداً أستطيع أن أكـون راضيا به عـن اقتناع. لم تكن أمـامي أمـور جسيمة علي أن أغيرهـا، بل علي أن أعمـل من جـديد كـل ما سبـق أن عملته، وكل ما فعلته في أعمالي السابقة . . .»[٩].

تـدور الأحـداث في مسرحيـة «اقتســام الظهيرة» في إحـدى المستعمـرات الفرنسيـة في الهند الصينية. والشخصيـة الأساسيـة هي امرأة محاطـة برجلين، وعليهـا أن تصنع تـوافقـا خاصـا فيما بينهما . . هي امـرأة متقلبـة العواطـف، مشتعلـة الأحاسيـس، يمكنها أن تنطـق نفـس التعبير بنفس الحرارة لـرجلين مختلفين، أحدهما زوجهـا والآخر عشيقهـا . لقد أحـاطت هـذه المرأة «إيزة» نفسهـا بـرجلين: الأول الثـري «ميـزا» الذي يملـك الأسـاطيـل والضيـاع في الصين، والآخـر «أمالـريك» زوجهـا منذ عـدة سنوات الـذي تدفعـه ظروفـه الاختيارية والجبرية إلى الرحيل.

وهي امرأة مدللة، تنظر إلى لرجل ككائن أساسي في حياتها، ولابد أن تحاط برجل يرفه عنها، فإذا رحل الزوج وتركها مع طفليها، حرصت أن تتدثر برجل جديد يلهيها بنفس الكلمات. فهي تـردد في المشهد الأول من المسرحية مخاطبة الرجلين، قبل أن تتكشف حدود العلاقة بين الثلاثة:

«. . لابد أن تبقيا هنا أنتما الاثنـان كي تتحدثا معا وترفها عنـي» ثم ترسل الخادم سيزكي ليبحث لها عن مقعدها الطويـل، وعن مروحتها والوسائد التي ستتكىء عليها، فضلا عن علبة الأظافر وكتاب وقنينة الملح الخاصة بها. .

وإيزة كما يردد زوجها لعشيـق المستقبل ميزا هي امرأة فاتنـة. إنه يقول له في بساطة بالغة: «إذا كنت تريدها، فلا تنتظر شيئا ياعزيزي، إنها امرأة رائعة».

ترحـل هذه المرأة لأول مرة في حياتها مـن مارسيليا إلى إحـدى المستعمرات الفـرنسية، مـن جو المدينـة الفرنسيـة المنعـش إلى جو حـار خانـق، تاركـة في مارسيليا العـالم الذي تحبه. امرأة يرى زوجها أنها يمكـن أن تعطي نفسها لأي شخص برعونة. «إنها للأسف مثـل مهرة كبيرة لاهثة، نوع من فرس السباق، يمكن أن يسليني بالركوب فوق ظهره لو كان لدي وقت، لكنها بلا فارس، مع هذه الجيـاد الصغيرة التي تتبعها، إنها تجري كالفـرس العاري تماما، أراهـا وقد تملكها الجنون، تحطم كل شيء، وتحطم حتـى نفسها، إنها غريبة بيننا، وكأنها ليست من بلـدها وجنسها، كأنها زعيمة نسـائية، تقيدها التـزامات ضخمة، وسرج كبير من الذهب».

لم تكن إيزة واقعة بين أكثر من رجل يحبها بقدر ماكانت تجيد القفز بينهما. وكأنها لاعبة سيرك مـاهرة تتعلق بالحبـل كي تعود لتقفز إلى الطـرف الآخر وقد ملأهـا الحماس نفسه، وهـي تتكلم ــ مثلا ــ إلى زوجها حين يتركهـا إلى عمله الـذي سيغيب فيـه عاما بـأكمله بحميـة غـريبة وبكلمات دافئـة كلها تـودد واستعطاف كـي يبقى إلى جـوارها، حتى إذا مـااختفى عـن الناظـرين ارتمت بنفس الحمية بين ذراعي ميزا الحبيب الولهان.

يقول إرنست بومون إن الفكرة الأساسيـة التي تقوم عليها مسرحية «اقتسام الظهيرة» هي أنه يوجد فيما بين ميزا وإيزة علاقـة خاصة، ترجع إلى ما يتمتع به كل منهما مـن صفات شخصية. فهناك ضرورة يمثلهـا كل منهما للآخـر، من أجل الامتثـال لإرادة السماء في عيونهما، فكل مـن الاثنين يشكل قدرا لـلآخر، فهما يبحثان عن الرضا الحسي، والسقوط في الخطيئة، وهما في النهاية ينفصلان بالطريقة التي ينفصل بها الكثير من العشاق.

فعندما يحدث التعارف بين ميزا وإيزة في الفصل الأول، وعندما يسأل ميزا المرأة عما بينهما فإنها ترد: ياميزا. أنا إيزة، إنه أنا. وفيما بعد. يضيف ميزا «أنت إيزة. أعرف أنك إيزة» وفي مقابر هونج كونج تترك المرأة ميزا وهي تردد نفس الكلمات. «إنها أنا! ياميزا، أنا». وعندما تعود إلى ميزا الجريح في منزل الخيانة فإن أولى الكلمات التي ترددها: «ها أنذا ياميزا، إنها أنا».

هذا التأكيد على الذات من إيزة يضع التأكيد على ما تعنيه المرأة داخل نفسها، فهي تحس أنها قدرية، ليس في إطار الزواج التقليدي، وليس في إطار متعة الكبار، ولكن من خلال المعاناة والإحباط اللذين عانتهما من الظروف.

هناك رباط طبيعي يربط بين ميزا وإيزة، ومع ذلك فإنه لا يفصلهما قط. مهما ابتعد جسداهما، وتدفعهما حاجتهما الواحد تجاه الآخر بلا توقف. ميزا محاولا البحث عن المرأة في منزل الخطيئة، أما هي فعليها أن تعود كي تموت معه، ويجب علينا أن نعتبره عرفانا متناغما للعلاقات التي تربط بينهما، وتؤكد هذه الجاذبية القوية للعاشقين على فكرة صعود الإنسان إلى السماء..

«اقتسام الظهيرة» إذاً علامة على نهاية المعركة بين الروح والجسد التي دارت طوال اثني عشر عاما، وبسببها نجح كلوديل في أن يجتاز بنا جدار الصوت مثلما يقال في أيامنا، ولكن الجدار أعمى وأصم ويمكن أن نرى خلفه، ونسمع نداء السماء من ورائه، بفضل كشف معركة الجسد ضد الروح، وكشف الظهيرة. فالانتصار النهائي ليس فقط للروح ولكن للقلب الذي ينبض تحت الجسد..

تبدو إيزة امرأة ذات طابع خاص وسمات محددة، ربما أكثر من كل النساء في مسرحيات كلوديل الأخرى، مثل «لالا» في «المدينة» و«ليشي البرنو» في «التبادل»، فهذه المرأة تمتلك موهبة استفزاز الرجال، وتحريك غرائزهم ورغباتهم. فهي تعلن إلى ميزا، مثلا، أن النساء قد خلقن من أجل إثارة المتاعب لدى الرجال وهذا التعليق يدل على ماتتسم به هذه المرأة. فهي تعكس رأياً خاصا للكاتب في المرأة.

وإيزة هي إحـدى النساء اللاتي يولـدن الحب والرغبة لدى الـرجل، وهذا يسبـب لها سعادة، وذلـك بعكـس ميـزا. فالتجـربـة التـي أحدثهـا الإغـراء التقليدي تـدل على شيء عميق من الـرغبة الساذجة التـي تنتاب الرجـل نحو المرأة، وعلى سبيل المثال الرغبة المحددة التـي يحس بها أماليك، فهناك أشياء ما تنتـابه وتسبـب له الألم، ولا يصبح لـه من منقـذ سوى الموت، فـالموت هو عتبة الحياة الخالدة التي على الحبيبين أن يتمتعا بها معا.

ويقول إرنسـت بومـون إن إيزة في «اقتسام الظهيرة» تكـرار لإما بـوفاري في رواية جوستاف فلوبير. هذه المرأة الناضجة اليائسة الرومانسية، محاطة بعاشق يتمناها من كل قلبـه، وهو بالنسبة لها أشبه بقناة المتعة، فإيـزة وميزا يحمل كل منهما كيان الآخر. . . ويعاهدان الله أن يكون كل منهما للآخر(١١).

ويقول إرنست بومون أيضا في كتـابه «معنى الحب في مسرح كلوديل»: إن الحب هو الموضوع العميق في العمل الدرامي لكل أعمال كلوديل، وهو يشكل الاهتمام الأساسي لدى الكـاتب لأنه كما يرد «ليس هناك سـوى حب واحد»، وهو يرتبط بالأسلوب الذي عبر به كلوديل عن الحب المقدس الإنساني، الذي عرف كيف يعبر عنـه بالكثير من الشجن المكثـف. وكي نعالج هـذا الموضوع فعلينا أن نتوغل في أعماق عمل كلوديل(١٢).

تبدأ المواجهات في اللقاء الطويل الذي يتم بين ميزا وإيزة قبل رحيل الزوج إذ تردد إيزة: «والمرأة بداخلي لن تستطيع أن تمتنع عن إجابتك.

أشعر أن هـذه المرأة لن تكن طيبة أبـدا معك، بل ستكون نحسـا عليك. كما أتوقع أن تصدر منى أشياء مرعبة.

ليس الأمر، أبدا، مجرد لعبة معك.

لا أحب مطلقا أن أهب نفسي كلها بصورة كاملة.

ولا أريد أن أمـوت، فمازلت شابة، وليـس الموت جميلا، والحياة هـي التي بدت لي جميلة، فكم صعدت الحياة إلى رأسي فوق هذه السفينة!

لهذا يجب أن ينتهي كل شيء بيننا.

ميزا. لقد قيل كل شيء.

كل شيء انتهى بيننا، أعترف أننا لم نكن نحب بعضنا البعض، فلنعاهد على ألا يحب أحد منا الآخر.

قل لي أنك لن تحبني، قل لن أحبك ياإيزة».

وعندما يخبرها زوجها الثاني دوسيز برغبته في الرحيل، تتفنن في خلق الكلمات الجميلة وتتوسل إليه ألا يتركها ويرحل، وبينما يصر الزوج على رغبته في الرحيل، تجد المرأة لذة في توسلاتها إلى الرجل الذي عاشت معه قرابة عشر سنوات، وتردد قائلة: «لست سوى امرأة تخاف. مهما كنت. وبعد كل هذا».

فهي تخاف من هذا البلد الذي لا تعرفه، وهو الصين، وتحس بأشياء مرعبة تنتظرها، ويطول الحوار بين دوسيز وامرأته إيزة حول العواطف والرحيل والوحدة والغربة. «كم هو مرعب أن تموت، وأن نكون موتى. ويذهب الزوج، ثم يدخل ميزا ليدور حوار ملتهب وكأن زوجا لم يرحل قبل دقائق: «لست ياعزيزي ميزا مجرد رجل، وإنما أنت لي، وأنا التي هي امرأة، أنا الرجل في داخلك، وأنت المرأة معي. اقطف قلبك بدون أن تعرف كيف، وآخذه، وأضمه للأبد بين نهدي! وليس من الضروري أن أكون قادرة على فهم حبيبي ميزا، ولا من الضروري مناداتي بكلمات يعرفها الآخرون مثل يا«حمامتي» أحيانا، و«ياحبيبتي» التي لم تقلها لي».

ويتفنن الاثنان في المداعبة وصياغة الكلمات الملتهبة:

«أنا سعيدة. سعيدة أن أكون كل شيء في حياتك،\
سعيدة أن أمتلك كل شيء.\
لكن ماذا، أرني عينيك\
اللتين لهما نفس لون عينيّ\
ولا تبعدهما عني لحظة واحدة

إن رؤية عينيك تثير في الاضطراب والرغبة».

وفي الحوار الطويل الذي بين الاثنين نسمعها تهتف به:

«هل أنا امرأتك، لا امرأة رجل آخر؟

لا تسيء لهذه العلاقة المقدسة بيننا.

لا، ليس هذا زواجا يوحد كل شيء بكل شيء آخر،

وإنما هي القطيعة والقسم المميت والاختيار الذي وقع عليك وحدك!»

وإيزة هي الشخصية المحورية في المسرحية، رغم كل هذه العلاقات الحميمة. فالرجال مجرد كائنات لخلق الشعور بحب ملتهب وفياض. إنها تردد لحبيب ثالث هو أماليك أنها تحبه، ثم تقول:

«لم يعد هناك من يؤذيني ويهينني وكل هذا الذي فعلته! أنا أم واحدة أخرى؟ خدعت زوجي، وتخليت عن أطفالي، أطفالي المساكين، تركتهم، لا أعرف حتى أين هم، وهذا البائس الذي أحببته وأحبني أكثر من حياته، ما إن تركني، حتى خنته، واستسلمت لك مع طفله الذي حملته في أحشائي..».

لم تقع إيزة في أحضان رجل واحد، ولم تخنه فقط مع ميزا الذي راحت تغزل له كل الكلمات الحلوة مغلفة في إطار كاذب ملعون، ولكنها استعذبت كل هذه العلاقات، رغم أن الزوج كان في ذاكرتها وهي تبث لواعجها إلى رجال آخرين مثل ميزا وأماليك.

وقد مارست إيزة خيانة زوجها دوسيز مع حبيبها ميزا، ثم خانت ميزا بعد رحيله لمدة عام مع أماليك.. وعند عودة ميزا من غربته نكتشف أن طفل خطيئة ثان كانت تحمله في أحشائها:

«ماذا فعلت ياإيزة لطفلنا؟

هل مات؟

إيزة، أنت لم تتركيه يموت، اعطني طفلي أنقذه.

هل مات. هل قتلتيه؟

إذا كان هنا فسأعرف كيف أعثر عليه».

وفي أجزاء الحوار الأخير بين ميـزا وإيزة تؤكد لـه أن الأشياء بالنسبـة لها قد فقدت معـانيها «أرى الآن كل شيء كأننـي قد رأيت كلي، وليس هنـاك سوى الحب بيننا».

ثم تردد:

«أوه ياميزا، لو عرفت كم أن هذا مخيف بالنسبة لامرأة، أن تنظر إلى نفسها في المرآة وأن تـرى نفسها تشيـخ، وهذه النقـاط الحمـراء المخيفة، أن تلمسهـا الأصابع وأن تفكر أننا لم نعد أنفسنا أبدا. هـذا الجسد الذي كان يوما ما لفتاة شابة وردية ولامعة كالسيف ووجهها النشيط جامد كالجلمود».

وأخيرا فقد كتب كلوديل ذات يوم إلى جان لوي بارو الذي جسّد شخصية ميزا على المسرح:

«تعرف أنني لم أحب أن أسمع النـاس يتكلمون عن «اقتسام الظهيرة» على المسرح، وأنني قد سبق أن سحبت كل نسخ المسرحية في طبعتها الأولى، فهي ليست سوى تجربة عانيت منها كثيرا في شبـابي وظلت تلاحقني طيلة حياتي، واليوم أيضـا، لا يزال الأمـر حيا، ليس هـذا فقط مـا أسعى لادخـاره في هذا العالم، فهناك مشاعر داخلية كثيرة تحزنني دون أن تصيبني بالملل»(١٣).

ويقول كلوديل كذلك: «حاولت دائما أن أكون موضوعيا بشأن إيزة بشكل خاص. وأن أشير إلى أنها تقول ما تؤمن به. ليس علينا أن نغالي في هذه الأدوار سواء دراميا أو ميلودراميا، حيث يمكـن للمرأة أن تخدع رجلا، ثم تطلب منه الغفران، ولأن الرجل كبير وكريم فيسامحهـا بكرامة. أنا لا أحب ذلك، وأجد أن هذا غني، أجد أن هـذا أقل إنسانية. فعندما تعـود إيزة في المشهد الأخير، فإن أول كلمة ترددها أنها لا تطلب الغفران. ماذا قال ميزا: «أسامحك. أليس كذلك؟» إنها هي التي منحت الغفران لميزا. هل هذا حق الحق؟ ومن الأعماق فيتركها. وقـالت لـه: «لعلك تـرى أنني فعلـت خيرا وأنا أتـركك، ويجب أن تشكرني».

يهمنا أن نـذكر أن الأسماء الغـريبة التي اختـارها كلـوديل لأبطـاله لم تجيء اعتباطا. فإيزة YSÉ اسم يوناني يعني المساواة، أما اسم MESA فهو يعني النصف، أما اسم أمـالريك AMALRIC فهو اسم بـائع مظلات في شارع ماجنتا، كان كلـوديل يتمتع وهو ينطقه على ثلاث مرات: آ ـ مال ـ ريك.. ويعني اسم دوسيز DECIZ القطع.

المترجم

الحواشي

١ - Introduction a Paul Claudel. Claudine Chonez, Albin Michel, Paris, 1947, P17

٢ ـ Claudel, André Alter. Seghers, C968, P13.

٣ ـ المصدر السابق ص٩.

٤ - المصدر السابق ص١٩.

٥ - المصدر السابق ص٢٠.

٦ - المصدر السابق ص٢٢.

٧ - Le temps et l'espace dans L'oeuvre de Paul Claudel, Seuil, Paris 1965 P91.

٨ ـ Claudel, Le point de vue de dieu, Andre Blanc, Edition du centurion, Paris 190 P93

٩ ـ المصدر السابق ص٢٠٦

١٠ - المصدر السابق.

١١ - Claudel. André Salter P45.

١٢ - المصدر السابق ص٤٦.

١٣ - المصدر السابق.

الفصل الأول

(على ظهر إحدى البواخـر العملاقة ، في وسط المحيط الهندي بين الجزيرة العربية وسيلان)

ميزا ـ أمالريك

أمالريك : تركت نفسك تفتن بمعسول الكلام .

ميزا : لم تتم العملية بعد .

أمالريك : إذن لا تقم بها ـ صدقني ، إنني أحبك ـ فلا تقم بها .

ميزا : العملية لا تبدو لي سيئة .

أمالريك : وماذا عن الرجل الذي يقوم بها؟

ميزا : حسنا ، إن له صفاته الطيبة .

أمالريك : إني أمقـت الضعفـاء وأخاف منهـم . قـم بها وحـدك ، خذها فقط معك ! ها أنت مثل المياه المعدنية الفوارة التي تفتـح معها زجـاجة مليئـة بـالصودا لا تعـرف أبدا أيـن تضعها . ها أنا أقولها لـك ، خذ حذرك ياصغيري ميزا . وماذا تقول عن زوجته؟ ها هـم أولاء .

(تظهر إيـزة ودوسيز على سطح السفينـة ، وهما يصعدان الدرج . يقرع الجرس ثماني دقات)

إيزة : حانت الظهيرة .

دوسيز : سنحدد مكان السفينة .

(صوت سارية السفينة)

ميزا : يالها من صرخة وسط نيران هذه الصحراء!

دوسيز : سس! انظروا!

(يفتح الخريطة)

إيزة : لا تفتح الخريطة، بحق السماء .

أماليك : لقد أصبت بالعمى، كأنها طلقة بندقية! لا يمكن أن تكون هذه شمسا!

دوسيز : إنها الصاعقة! كم نشعر أننا نتضاءل ونستهلك داخل هذا الفرن العاكس!

أماليك : كل شيء نقي إلى حد مخيف، بين الضوء والمرآة، ونحس أننا شديدو الوضوح، كحشرة وقعت بين لوحين من الزجاج .

ميزا : كم هو جميل! وكم هو صعب! فالبحر يتألق في الظهيرة. احمرت مياهه كالبقرة الذبيحة التي توسم بالنار. أما هي، كما تعرفون! فعشيقها كما يقال، ـ حسنا ـ يبدو كالتمثال الذي نراه في المتاحف. ياه، هذه المرة لم يعد هو عشيقها، بل الجلاد الذي يضحي بها. لم

تعد هذه أبداً قبلات، بل السكين داخل أحشائها! وهي في مواجهته ترد له ضربة بضربة، بلا شكل محدد، أو لون، نقية، مطلقة، هائلة، وملتهبة. يسطع النور عليها فلا تعكس شيئا غيره.

إيزة : آه، الجو حار! كم تبقى من الأيام حتى نصل إلى نار مينيكوي؟

ميزا : إنني أتذكر قناديل الليل الصغيرة فوق المياه.

دوسيز : هل تعرف كم يوما تبقى ياأماليك؟

أماليك : الحق لا! ولا كم من الأيام مرت بالضبط منذ أبحرنا، فأنا لا أعلم عن ذلك شيئا.

ميزا : الأيام متشابهة لدرجة يمكن معها القول بأنها ليست سوى يوم واحد طويل أبيض وأسود.

أماليك : إنني أحب هذا اليوم الطويل الساكن. أشعر أنني على سجيتي، وأعشق هذه الساعة العظيمة التي لا ظلال لها، فأنا موجود وحي، أنا لا أعرق، أدخن سيجاري وأشعر بالرضى.

إيزة : إنه راض! وأنت أيضا ياسيد ميزا؟ هل أنت راض، أما أنا فلست راضية، لابد أن أذهب لأرى الأطفال. . ابقوا هنا. . إنني أمنعكما من الذهاب إلى غرفة التدخين. يجب أن تبقيا هنا أنتما الاثنان، كي تتحدثا معي وترفها

عنـي. سيـز، اذهـب لتحضر لي مقعـدي الطـويـل، وكذلـك مروحتـي والوسـائد. وكذلـك علبة الأظـافر، وكتابي، وقنينة الملح الخاصة بي، هذا كل شيء.

(يخرج الاثنان معا).

أماليريك : هوذاك، أليست فاتنة؟

ميزا : تعلم أنني لاأعرف شيئا عن النساء.

أماليريك : هذا صحيـح، والنساء أيضا لن يعـرفن شيئا عنـك. أنا أحبك وأعرفـك، وهي تحبني، وهذه حقيقـة. على كل حال أنت تروق لها، وهي خائفـة منك، وتريد أن تعرف ماهي فكرتك عنها.

ميزا : أظن أنها متأنقة بشكل مبتذل.

أماليريك : إذا كنت تـريدها. فلا تنتظـر شيئا. ياعزيـزي إنها امرأة رائعة.

ميزا : ولهذا لا تكف عن الثرثرة منذ أن غادرنا مارسيليا.

أماليريك : رغم أن هـذا صحيح، فإنك لا تعـرفه! هه هـه! ولأنك مشتت الذهن بطبعك، فأعتقـد أنني قد وضعت الفكرة في رأسك! هـذه التمثيلية التي أديتها في الليلـة الماضية! وهذه السيجـارة التي أعطيـت لك. لقـد التهمتها عـن آخرها بكل إخلاص، رغم أنـك لا تدخن! هيا لا تكن مضطربا.

ميزا : يالك من أبله.

أماليك : ياعزيزي، أنا لاأحب سوى الشقراوات.

إنها ليست لعوبا، لا تعتقد ذلك! إنها محاربة، إنها غازية! لابد لها أن تسيطر وتطغى، أو تهب نفسها لأي شخص برعونة كوحش ضخم هلوك. إنها فرس سباق يمكن أن يمتعني امتطاء ظهره لو كان لدي وقت. لكنها بلا فارس، مع هذه الجياد الصغيرة التي تتبعها. إنها تجري كالفرس العاري تماما، أراها وقد تملكها الجنون، تحطم كل شيء، تحطم حتى نفسها. إنها غريبة بيننا، كأنها ليست من بلدها وجنسها. كأنها زعيمة نسائية، تقيدها التزامات ضخمة وسرج كبير من الذهب، لكن زوجها هذا، هذا الولد الرقيق، هذا البروفانسي النحيف ذو العينين الحانيتين، هذا النوع من المهندسين الخائبين. لعلك ترى جيدا أنه بلاء عليها، فهو لم يفلح إلا في أن يهبها الأبناء. ومن المرعب أن تراهم جميعا ذاهبين إلى الصين. سيكونون معك. ثق في ذلك، يافتاي الصغير. هاهم قادمون.

(تدخل إيزة)

(ويدخل دوسيز، وهو يجر ويحمل الأشياء التي طلبت منه ويضعها فوق السطح)

إيزة : (ضاحكة، وهي تنظر إلى ثلاثتهم الواحد بعد الآخر) لست راضية! (وهي تشير إلى ميزا) وهاهو شخص آخر غير راض! (ثم وهي تشير إلى دوسيز) وثالث غير راض! يضايقه أنه ذهب يبحث عن مقعدي. رغم أنني لم أكن في الحقيقة في حاجة إليه. إذن، لماذا هو غير سعيد؟ رغم أنه يبدو دائما وكأنه يضحك. أما أنا فسعيدة!.

(تنفجر ضاحكة)

ميزا : أنت سعيدة، وأما لريك راض.

دوسيز : لأنه ناجح.

أماليك : أنا؟! لقد أفلست تماما في العام الماضي. وأصبحت نظيفا مثل كوب بيرة مغسول! ورغم ذلك! سأبدأ من جديد.

ميزا : لأن هذا ضروري.

أماليك : لأن الأشغال كثيرة، ولأن هناك أشياء كثيرة ضرورية بالنسبة لي، وأشياء كثيرة أنا ضروري لها.

إيزة : أماليك سوف تنجح لأنك ماهر، وتجيد تماما ما تقوم به.

ميزا : إن له يدين رائعتين (لأن الأشياء مثل البقرة التي ترفض أن تنقاد لأحد إذا أرادت ذلك).

دوسيز : إنه يعتمد على موارده الخاصة. وهو واثق دائما من موضعه في كل مكان.

إيزة : أمـا أنا فليـس لي مكان سـوى مقعد طـويل مـربوط بـه حقيبة، ومجموعة من المفاتيح في حقيبتي. هذا هو بيتي، وهذه هي أشيائي!

ميزا : (مشيرا نحو الشمس) هـاهو بيتنا أيتها الجماعـة الضالة! ألا تجدونه متـوهجا كما ينبغي؟ سواء رضينـا أم لم نرض، فما جدوى ذلك؟ انظروا إلى الشمـس التي تنشر مليارات الأشعة وتنشغل بالأرض كالعجوز المنهمكة في غرز الإبرة والصوف.

إيزة : إنها تقتلني! لا أستطيع أن أحتمل قوتها!

أماليك : من قـوة الشمس أستمد قوة حيـاتي. رائع أن ترى الموت وجها لوجه، وأنا قادر على مقاومته.

ميزا : الظهيرة في السماء! الظهيرة في مـركز حيـاتنـا. وها نحـن معا، ندور حول عمر لحظتنا نفسه وسط الأفق المكتمل، أحــرارا طلقــاء، منفصلين عــن الأرض، نتطلــع إلى الخلف، وإلى الأمام.

إيزة : خلفنا الماء، والماء أمامنا أيضا.

دوسيز : كم هو مرير أن ينتهي شبابك!

ميزا : كم هو مشين أن تنتهي من الحياة!

أماليك : كم هو جميل ألا تكون ميتا، بل أن تكون حيا!

إيزة : كان الصباح أجمل.

ميزا : سيكون المساء أكثر جمالا. هل لاحظت بالأمس كيف ولد من قلب البحر الهائل أوراقه الخضراء، والبحيرات الوردية وأشجار التبغ، وخطوط النار الحمراء داخل الفراغ الجياش بالسواد الناصع، لون يسيل كالزيت من لون آخر هو أساس كل الألوان. كذلك يستمتع الشاب مع الفتاة باللون الأكثر اخضراراً، أما القديس فينتصر في يومه الأخير، عندما ينسكب في النهاية العطر الذي نضج طويلا في أعماق قلبه.

أماليك : هذه الساعة التي نحن فيها. هي أفضل الساعات، أنا لا أطلب سوى شيء واحد هو وضوح الرؤية، رؤية الأشياء كما هي عليه رؤية دقيقة، فهذا أجمل من أن أراها كما أريد لها أن تكون. أريد أن أعرف ماأعمله وما ينبغي عليّ عمله.

دوسيز : لم يعد لدينا وقت نضيعه.

ميزا : نحن لا نفتقد الوقت، بل هو الذي يفتقدنا.

أماليك : دعه يعمل. إذا واتتني الفرصة، فلن أضيعها أبداً.

إيزة : ومع ذلك فالأمر غريب! إن الطيور والأسماك الرمادية لديها مكان تمارس فيه شؤونها، في ثقب، تحت جذع شجرة الصفصاف. أما نحن الأربعة فلم نستطع أن ندبر لنا مكانا. ها نحن نتأرجح فوق سطح هذه السفينة، وسط بحر مستحيل! أنتم أيضا، أنتم أحرار!

أما أنا فـامرأة مسكينة مع هؤلاء الأطفال الـذين يتشبثون بي ولكـل واحـد منهم أربعـة أطـراف! وعلي أن أعيـش كصبي مع هؤلاء الرجال الثلاثـة الذين لا يتركونني أبدا! ومنزلي هو هـذا المقعد الطويل وثمانية طـرود فوق إيصال الأمتعة، وثلاث حقائب داخـل القمرة، وثلاث حقائب وصنـدوقان في المخـزن، ثـم حقيبة صغيرة وأخـرى كبيرة للقبعات. يالقبعاتي المسكينة!

ميزا : هذا هـو العمر الذي يشعـر فيه الإنسـان بالقلق لكـونه حرا.

أماليك : ليست هذه بشائر سيئة. فلندقق في وجوهنا كأننا نلعب البوكـر، بعد تـوزيع الأوراق. ها نحـن مرتبطـون معا في نفس اللعبة مثـل إشارات الاتجاهات الأربعة، ومـن منا يعرف خيوط الصـوف التي يدخرها لنا القـدر كي نغزلها معا نحن الأربعة؟

دوسيز : لم يعد لـدينا وقت نضيعـه. . وليس أمامنـا شيء صعب نمارسه. ميزا، كلمة أخرى إذا سمحت.

(يتجهان إلى يمين السفينة)

(تتمدد إيـزة فوق المقعد الطويـل وتأخذ كتـابها. يجلس أماليك على مقربة منها وهـو يدخن وينظر إليها. بعد لحظة واحدة يلقي سيجارته. ترفـع إيزة عينيها ناحيته ثم تضع كتابها)

إيزة : ألم تكن تعرف أننا فوق ظهر سفينة؟

أماليك : لقد أبحرنا بالفعل عندما تعرفت عليك. بقوا جميعهم في الخلف. ولم يعد هناك سوانا، نحن الاثنان في الطرف الآخر وهذه العجوز التي تدير ظهرها للهواء.

إيزة : وهل تعرفت عليّ هكذا بسرعة؟ ألم أتغير كثيرا عما كنت عليه قبل عشر سنوات؟

أماليك : أنت، أنت نفسك، حسنا، نظرة واحدة كانت تكفيني، هي نفسها التي عرفتها، نفس القوام ونفس اللون الأسود الذي ظهر فجأة في الهواء، حرة، ممشوقة، ناعمة، ومليئة بالتصميم.

إيزة : وجميلة دائما؟

(تنظر إليه، وتضحك، يحمر وجهها. . صمت)

أماليك : لقد تعرفت عليك جيدا.

إيزة : أتذكر. كنت أرتدي معطفي الطويل وقبعتي المصنوعة من اللباد.

أماليك : كنت هي. كنت أنت.

إيزة : وكنت سعيدة! اخبرني. رغم كل شيء، فنحن في الأعماق دائما مانكون سعداء بالرحيل، بترك الحانوت بأكمله خلف ظهورنا. هييه! لا قبعات، ولا مناديل يلوح بها أحد لنا.

أماليك : لا.

إيزة : ولا امرأة صغيرة مسكينة تتجمل من أعماق قلبها! لا أرملة لطيفة، ولا عذراء صغيرة ممشوقة القوام مثل المقرعة، ومستديرة كالصفارة.

(تضحك)

حسنٌ. لا أهمية لذلك. لقد كنت راضية! كم كان كل شيء قذرا! واحدة من هذه السموات الشريرة، المدمرة، التي أحبها. والبحر يقفز فوقنا، ذلك الوثني! هكذا كان البحر! لكن هذا، هنا، إنه مثل الأرضية التي نتزحلق عليها في سأم. وقد ابيضت لدرجة تسبب الضيق، كما تقول، ويالها من دناسة رائعة، نمارسها هنا فوقه! لكنك تقول إنك تحب هذه المياه الناعسة.

أماليك : أحبها. . أحب أن أشعر بأنني أستطيع أن أخترقها. وأكره أن يقودني أحد من يدي، أو يضحك علي، أو يطوّحني كيف يشاء، أو يلعب بي كالكرة، أو يقلبني على رأسي. مثلما حدث عند تلك القمم القريبة من جزيرة كريت، آوو لالا! عندما عصفت بي الريح المجنونة التي لا يعرف المرء هويتها ولا هدفها، كل شيء هنا منته، في الوقت المناسب! كل شيء مستقر. الكون اكتسب ملامحه الأولى، مثلما حدث في بدء الخليقة: المياه، السماء، وأنا بين الاثنين مثل البطل «ازدوبار».

إيزة : أماريك! أنت لم تكره دائما هـذه الريـح المجنونـة التي لا يعرف الإنسان هويتها ولا هدفها.

(صمت)

أماريك : إيزة، لماذا لم تريديني في تلك اللحظة؟

إيزة : لم يكن لديك مال.

أماريك : ثم ماذا؟

إيزة : بـدوت لي شـديد القـوة، شـديـد الثقة بنفسـك. هـذه الطـريقة في صـك الأسنـان! أحـب أن يكون النـاس في حاجة إليّ! أنت ترى أنه يمكن الاستغناء عنك.

أماريك : ثم ماذا؟

إيزة : ثم شعرت بـأنني ضعيفة للغايـة بجانبك. وقد غـاظني ذلك..

أماريك : ولهذ السبب تزوجته؟

إيزة : أنا أحبه، لقد أحببته.

أماريك : يا إلهي! ولكنه ليس الأقوى!

إيزة : عندما ينظر إليّ بطـريقة ما أحس بالخجل. عنـدما ينظر إلي بعينيه الـواسعتين ذواتي الأهداب الطـويلة (لـه عينان شبيهتان بعيـون امرأة)، بعينيه السـوداوين الواسعـــتين

(لا يمكنك أن ترى أي شيء في عينيه)، فإن قلبي يتحول عني. آه. في البداية تركته يفعل مايريد. حاولت ولم أستطع مقاومته.

أماليك : ولهذا أنت غاضبة منه، أما هو فيحبك رغم ذلك.

إيزة : إنه لا يحبني! فهو يحبني بطريقته، ولا يحب إلا نفسه. إنني أتذكر ليلة زفافنا، وكل هؤلاء الأطفال الذين أنجبتهم الواحد تلو الآخر! لأنني فقدت أحدهم.

محاولات الهروب، المخاوف، المغامرات! وهكذا مرت معظم سنوات شبابي!

أماليك : وفي خلال ذلك! إيزة، إيزة، إيزة. عندما التقينا في ذلك الصباح الساطع الضوء. في يوم الأحد البارد، الباهر، ياإيزة، في الساعة العاشرة فوق البحر! أي ريح وحشية كانت تعصف تحت الشمس الرائعة! كم كان الهواء يصفر ويلسع، وكانت الرياح الشمالية القاسية تمشط المياه المتموجة، ويتقلب البحر كله، صاخباً، مدويا، متموجا في الشمس الخائفة من العاصفة!. في مساء الأمس السابق، تحت ضوء القمر، في أعمق أعماق الليل، عندما وجد الساهرون أنفسهم محاصرين في مضيق صقلية، وقاموا ينظفون البخار من فوق الكوة، ووجدوا أوربا كلها مغطاة بالجليد، هائلة ورمادية، بلا صوت، ولا وجه، تستقبلهم أثناء النوم.

في ذلك اليوم المشرق لعيد الغطاس تركنا كورسيكا خلفنا، بيضاء تماما، مشرقة وضاءة مثل زوجة في صباح رنان! كنت عائدة ياإيزة من مصر، أما أنا فكنت خارجا من أقصى أطراف العالم، من عمق البحر، بعد أن تلقيت أول ضربة في حياتي ولم أكن أملك شيئا في جيبي، سوى قبضة صلبة وأصابع تعلمت كيف تحسب، وفجأة هب الهواء كالصفعة، فطيّر كل أمشاطك، وضربت وجهي خصلة من شعرك! وهاهي ذي الفتاة الشابة العظيمة، تستدير ضاحكة، تنظر إليّ وأنظر إليها.

إيزة : مازلت أتذكر هذا، كنت قد أطلقت ذقنك في ذلك الوقت، وكانت خشنة مثل الفرشاة! كم كنت قوية ومرحة في تلك اللحظات! كم ضحكت كثيرا، وكم كنت في حالة طيبة! وكم كنت جميلة أيضا! ثم جاءت الحياة، وجاء الأطفال. وهاأنت تراني الآن متضائلة ومطيعة، كحصان عجوز أبيض يتبع اليد التي تجذبه، وهو ينقل أرجله الأربعة واحدة بعد الأخرى.

(تضحك بصوت عال)

أمالريك : هيا هيا! أرى أننا مازلنا نعرف كيف نضحك!

إيزة : لقد حبسوني في سجن، وأنا الآن حرة، ورائحة البحر تزكم أنفي! كان يجب ألا تصدقني بسرعة، كان يجب ألا تأخذ كل كلمة مني على محمل الصدق، لقد كنت مجنونة

بالفعل في تلك اللحظة! إنه لأمر غريب! أشعر أنني مازلت فتاة صغيرة! لم يكن لي أبوان يتوليان تربيتي ياأماريك، وكنت غريبة، لا أحسن استخدام جميع الكلمات على الوجه الصحيح، لقد نشأت وحدي، على طريقتي، ويجب ألاّ تخطىء في الحكم عليّ. ولو كنت مع شخص آخر فلربما تغيّر كل شيء.

أماريك : هذه العيون الجميلة اللامعة! أرى الآن الدموع في عينيك! كم أنت حمقاء.

(يضحكان معا)

إيزة : وها أنا أرحل من جديد، كما ترى، إلى أين؟ لا أعلم.

أماريك : كيف؟ أليس لزوجك أعماله في الصين؟

إيزة : لاشيء أبدا، سوى ثقته في العثور على فرصة.

أماريك : ياه، إنه كشجرة المطاط الجاهزة دائما للامتصاص والانتفاخ. إنها متسلقة شرهة! وسوف يجد شجرته. أرى أنه يتحدث كثيرا. مع زميلنا ميزا.

(صمت)

أخبرني ميزا عن خط السكة الحديد الذي يمدونه تجاه سيام، وعن الخطوط التلغرافية ناحية دولة شان، هل تعرفين ذلك؟.

إيزة : لا أعرف أي شيء مطلقا، إننا نرتب أنفسنا دائما!

أماريك : ميزا. أود أن أتحدث معه. إنه لا ينظر إلى شيء. وإذا انتبه، فهو لا ينتبه إليك، بل إلى ما تقولينه فحسب، وكأن صوتك يتردد من تلقاء نفسه. وإذا ما استجاب للشيء، أو لم يستجب له، فإن وجهه يضيء أو يكفهر. فترين كل مايفكر فيه، وهذا شيء مثير للشفقة! إنه فظ مثل أولئك الذين يحملون في أنفسهم. (يستطرد بطريقة خطابية) «قضية كبرى يدافعون عنها»! أعتقد أنه شخص متبلد.

إيزة : لا تسخر.

أماريك : أنا لا أسخر. ها أنت ذي غاضبة. إنني أحبه، فلا تغضبي.

إيزة : أحب هذا الغلام، وأريده أن يحبني ويقدرني. لماذا تصحبني دائما ولا تبعد عني قيد أنملة؟ ماذا يظن الناس؟ إنني أراه ينظر إلينا. وأنا واثقة أنه رآنا ذاك اليوم عندما عانقتني.

أماريك : إذن فسوف أتركك.

إيزة : عندما رأيته بمفرده، اقتربت منه في الليلة الماضية، كما تعرف، عندما أحضرنا ذلك المسكين ليونار، الذي غنى لنا بعض أغاني المقاهي. ولم يبق هو معنا. هل تذكر؟ كنت أرتدي ثوبا من الكريب الصيني الأسود، وقلت إنه كان يناسبني. ثم ذهبت لأستند عليه، فأخذ يهينني بشدة وبصوت خفيض، حسنا، لقد عاملني كما لم أعامل من قبل! طلبت منه الصفح، وبكيت بدموع ساخنة، كفتاة صغيرة.

أماليريك : مسكينة ياإيزة!

إيزة : أجل. معك حق، مسكينة إيـزة! إيزة! إيزة! مسكينة، مسكينة إيزة.

أماليريك : مسكين ياميزا!

إيزة : ويقولون إنه يشغل منصبا كبيرا في الصين.

أماليريك : كان يعمل في شبابه مفوضـا للجمرك. إنه يتحدث بكل اللهجات، وهو مستشار لنـواب الملك في الجنوب، وله نفوذ في هـذه المناطـق، هو شخـص غامـض، متعب، لديه «آراء أخرى» ويقول إنها المرة الأخيرة التي يعود فيها، الهوس الديني، هذه العملية التـي يكلمه فيها زوجك، وأنا لا أعلم عنها شيئا، قد صدمته. أما أنا فقد نصحته بأن يثق فيه. إنه يبحث عـن أحد يعمل معه في خطوطه الحديدية. إنها عملية كبيرة، عملية كبيرة للغاية. والقول بـأن الجو مـلائم، حسـن، حســن، لـن يكـون قـولا صحيحا، لكن زوجك تعود على هذه البلاد الحارة.

إيزة : أعرف أنه مشغول دائما بالكهرباء.

أماليريك : عظيم، نتركهما معا إذن، ميـزا وهو، أما أنا فسـوف آخذ إيزة معي، سأصطحب إيزة معي أينما ذهبت.

إيزة : حقـا؟ أتعتقد أن مـن الممكـن أخـذي، أتعتقد أن مـن الممكن اصطحابي هكذا؟

أمالريك : إذا أردت بطبيعة الحال! وعندما أريد أيتها المحاربة، سأضع يدي على كتفك، سآخذ إيزة، سأمسك إيزة، سأصطحب إيزة، بهذه اليد، هذه اليد التي ترينها، وهي يد غليظة خشنة.

إيزة : إذاً فلتتحمل عواقب ذلك، فأنا لا أحمل الحظ والسعادة أينما ذهبت.

أمالريك : إيزة، هذا صحيح، فلم الانتظار؟ إن يديّ جذابتان، وأنت تعرفين جيدا أنك لن تجدي القوة التي تنقصك إلا معي، وأنني الرجل المناسب.

إيزة : دعني.

(ينظر إليها مفكرا، تركز نظرها على كتابها، يأخذ سيجارا ويبتعد).

(يدخل ميزا، الذي يتجه يسارا ناحية إيزة، يقف مترددا بعد أن يرى أنها لا تنظر إليه).

ميزا : ماذا تقرئين؟ ماهذا الشيء المستهلك القديم الذي يشبه كتب الحب؟

إيزة : كتاب في الحب.

ميزا : صفحة ٢٥٠ . لقد أحسنت إذ نزعت منه صفحاته الخارجية. الصعوبة في النهاية. إنها دائما نفس الشيء. الموت أو المرأة الحكيمة.

إيزة : إنها دائما بـالغة الطـول. ينبغـي أن تكون قصـص الحب مفاجئة كالزهرة مثلا، أو كالعطر، فتعرف أنك حصلت عليـه كله، حصلـت على كل شيء، وأنـك تشمه كلـه دفعـة واحدة، ممـا يجعلـك تقول آه! لا شيء غير هـذا، عطـر حقيقي، نـافـذ، يجعلـك تبتسم قليـلا، آه، ثـم تمضي.

ميزا : إنه ليس زهرة نشمها.

إيزة : الحب؟ لقد كنا نتكلـم عن كتاب. أما الحـــب نفسه، فلا أعرف ماهو.

ميزا : حسنٌ، ولا أنا. ومع ذلك أستطيع أن أفهم..

إيزة : لا يجب أن تفهـم، يـاسيــدي المسكين! يجب أن تفقـد الوعي. أما عن نفسي، فإننـي شريــرة إلى الحـــد الذي لا يمكننـي من ذلـك. إنها عملية لابـد من القيـام بها، وماهـي إلا قطعة قطـن مغموسـة في الإثير توضـع تحت أنفك لتخـديرك. أنـت تعرف نـوم آدم، فهو مـذكور في كتب التعاليم. وبهذه الطريقة خلقت أول امرأة. امرأة، تكلم، فكر قليلا! كل الكـائنات الموجودة بداخلي! لابد من تركها تعمل، لابـد أن تموت بين ذراعي الرجل الذي يحبها، وهل تتشكـــك البريئـــة فيما يوجـد بداخلهـا وما سيخرج منها؟ على الإطـلاق! إنها لا تعرف شيئا! أم النساء هي والرجال!

ميزا : ما الذي يمكن أن يطلب من أي امرأة؟

إيزة : أشياء كثيرة، فيما يبدو لي. منها هذا الطفل الذي يتخلق لكي يولد.

ميزا : أيتعلق الأمر بالأطفال! لقد أخطأت فهم ما أردت أن أقوله في ذلك اليوم ،إنني أفترض أنه نوع من العدوان، نوع من الزلزلة لكيان الإنسان.

(يحاول الكلام، يتلعثم، يتلجلج، يغلق فمه وينظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر، وترتجف شفتاه، بينما تستغرق هي في الضحك بصوت عال)

إيزة : تكلم ياأستاذ، إنني أسمعك! يجب ألا يتملكك الغضب.

ميزا : هذا هو كل مايجري لمن يطلب كل شيء من امرأة أخرى! ذلك ما أردت أن أقوله، ولم تكن هناك حاجة للضحك بغباء. إن الأمر لا يتعلق بالطفل! فهو الذي يستفيد، لكي يولد، لا ندري كيف. من تلك اللحظة التي نبلغ فيها الخلود، لكن أي حب لا يعدو أن يكون ملهاة تتم بين الرجل والمرأة، فهذه القضايا غير مثارة.

إيزة : الملهاة مسلية في بعض الأحيان.

ميزا : ليس لدي أدنى فكرة.

إيزة : ومع ذلك فـأنت تتكلم أفضل مـن كتابي، عندما تـريد ذلك، كـم تلمع عيناك أيها الأستـاذ، عندمـا تضطر إلى التفلسف، لك عيون رمادية جميلة، أحب أن أنظر إليك وأنت تنصـت، وتغلي من داخلـك! أحب أن أسمعـك تتكلّم، حتى لـو لم أفهم ماتقول. كـن معلمي! لا تفزع أبدا! فأنـا غير متعلمة، أنا حمقاء، لا تحكـم علي خطأ، فلست سيئـة كما تعتقد، إنـني لا أفكر، لم يعلمنـي أحد ذلك، لم يكلمنـي أحد مثلما كلمتني في الليلـة الماضية. أعرف هذا، إنك على حق، وأنا سيئة.

ميزا : ليس من حقي أن أحكم عليك.

(صمت)

إيزة : ابق مكانك. لا تذهب.

ميزا : لاأريد أن أذهب.

إيزة : ومع ذلك لا نعرف أبدا فيم تفكـر! هانحن الاثنان معا. أنت وأنا، ياله من شيء محزن! هنالك شيء معلق بيننا، حالـة دقيقة من الجفـاء يكفي أقـل هاجس لإربـاكها. ياميزا المسكين، إنني أراك شديـد التعاسة! لا تعتقد أبدا أنني فرحة.

ميزا : لست تعيسا.

إيزة : أنت بحاجة إلى الرعاية ــ فقد أخبروني أنك لا تأكل ـ لم هذا العبوس؟

ميزا : من أخبرك بهذا؟ لست تعيسا على الإطلاق. وليس عندي ما أقوله لك. اذهبي وتحدثي مع أماليريك! لن تقومي بدور الأم، لن تقومي بدور اللعوب. إذا كنت أشعر بالحزن فهذا من شأني. هذا على الأقل من شأني.

إيزة : لا تكن عنيفا هكذا!

ميزا : إنك تريدين أن تحمليني على الكلام! تكلمي. أيسليك أن تريني أخور كالعجل؟ تعرفين جيدا أن هؤلاء الشياطين المساكين من الرجال، هؤلاء الصبية الكبار، لا يحبون شيئا أكثر من الكلام، والكذب، وإظهار مشاعرهم النبيلة، كم عانيت، كم أنا طيب. ليس عندي ما أقوله لك أنت، أنت سعيدة وهذا يكفي.

إيزة : أتعتقد أنني سعيدة؟

ميزا : ينبغي أن تكوني سعيدة. عليك أن تصبحي سعيدة.

إيزة : آه؟ حسنا، وإذا تمسكت بهذه السعادة، أيا كان الذي نسميه بهذا الاسم، سأكون امرأة أخرى! وسأستحق اللوم إذا لم أكن مستعدة لطرحه عن رأسي كما تفعل النساء عندما يصففن شعورهن!

ميزا : تمسكي قدر استطاعتك بهذا التبن المضغوط المخيف! وليضم الطفل الوديع أمه العفيفة بين ذراعيه، ولتتحسس أصابعه تلك الخصلة المجنونة التي تود الإفلات بجوار الأذن الصغيرة. أراك تضحكين، وتحمرين خجلا. أنكري أنك سعيدة.

إيزة : لا تؤنبني.

ميزا : أحب أن أنظر إليك. أنت جميلة.

إيزة : أترى هذا حقا؟ يسعدني أن تراني جميلة.

ميزا : كم يخيفني أن أراك بهذا الجمال، والنضارة، والشباب والجنون، مع هذا الرجل الذي هو زوجك، هل تعرفين البلد الذي تتجهان إليه؟

إيزة : أماالريك قال لي نفس الشيء. (ميزا يقوم بحركة) لا تتركنا! تعلم أننا سنبقى بعض الوقت في هونج كونج، حيث تعيش كما أعتقد.

(صمت)

حسنا، ألا يروق لك هذا؟

ميزا : لن أبقى في الصين فترة طويلة. ريثما أسوي بعض أعمالي.

إيزة : لمدة عام، ربما عامين؟

ميزا : نعم.. ربما.. ربما أقل أو أكثر.

إيزة : وبعد ذلك؟

ميزا : لاشيء!

إيزة : عام، عامان، ربما أكثر أو أقل، ثم لا شيء؟

ميزا : ثم لاشيء! نعم ماذا يهمك من هذا؟ إن حياتك منظمة، أما أنا فكلب أصفر! ماذا يفيدكم وجودي؟ إن كلا منكما . . .

إيزة : هل غضبت؟

ميزا : عيشي حياتك! أما أنا فلم أسع للحصول على شيء. لقد تركت كل البشر.

إيزة : ياه! بل أخذتهم معك!

ميزا : اضحكي! أنت جميلة ومرحة، وأنا متجهم ووحيد. ثم إنني لا أريد منك شيئا، وماذا عساك تفعلين بي؟ ماذا بينك وبيني؟

(صمت)

إيزة : ميزا، إنني إيزة، إنها أنا.

ميزا : فات الأوان. انتهى كل شيء. لماذا أتيت للبحث عني؟

إيزة : ألم أجدك؟

ميزا : انتهى كل شيء! أنا لم أنتظرك. لقد هيأت نفسي للاعتزال، للخروج من حياة البشر، دبرت هذا بالفعل! لماذا أتيت للبحث عني؟ لماذا جئت لإزعاجي؟

إيزة : لهذا خلقت النساء.

ميزا : كنت مخطئا، أخطأت في أن أتكلم وأن. . . أن أدخل في علاقة حميمة معك، دون حذر، كما نفعل مع طفل محبوب نسعد برؤية وجهه الجميل، وهذا الطفل امرأة، وها أنا أضحك عندما تضحك. ماذا يمكنني أن أفعل معك؟ وماذا تصنعين بي؟ قلت لك كل شيء قد انتهى إنها أنت! مثلك مثل أي واحدة أخرى سواك. ماذا ينتظر من أي امرأة، ماذا يفهم منها؟ ماذا تعطيك بعد كل شيء؟ وهذا الذي تطلبه، عليك أن تهب نفسك كاملة لها! ليست هناك وسيلة لأهبك روحي، ثم ماجدوى هذا؟ إيزة، لهذا تحولت إلى ناحية أخرى. والآن لماذا جئت تزعجينني؟ لماذا جئت تبحثين عني؟ هذا شيء قاس. لماذا قابلتك؟ وها أنت بعد أن انتبهت إليّ، تديرين وجهك الجميل نحوي. لقد فات الوقت! تعرفين أن هذا مستحيل! كما أعرف أنك لا تحبينني، ثم إنك متزوجة، وأعلم من ناحية أخرى أنك تميلين لذلك الرجل الآخر أماليك، لكن لماذا أقول كل هذا؟ وما الفائدة منه؟ افعلي مايحلو لك، فقريبا سنفترق. وما أملكه على الأ قل فهو ملك لي. ماأملكه على الأقل فهو لي.

إيزة : ماذا تخشى مني، طالما أنني المستحيل؟ أأنت خائف مني؟ أنا المستحيل. ارفع عينيك، وانظر إليّ أنا التي أنظر إليك بوجهي، كي تنظر أنت إليّ!

ميزا : أعرف أنني لا أروق لك أبدا.

إيزة : ليس هذا صحيحا على الإطـــلاق، لكنني لا أفهمك، لا أفهم مـن أنت، ولا مـاذا تريـد، ولا كيف ينبغـي أن أكون وما يجب أن أصنع معك. فأنـت فريد في نوعك. لا تقطب وجهك! نعم، أعتقـد أنك على حق، فلست بـالـرجل الـذي خلـق لأجـل امـرأة تشعـر معه بـالثقـة والأمان.

ميزا : هذا صحيح، يجب أن أبقى وحيدا.

إيزة : المهم أن نصل أولا ثم لا نبقى بعد ذلك معا.

(صمت)

ميزا : لماذا؟ لماذا حدث هذا؟ ولماذا قدر لي أن أقابلك فوق هذه السفينة، في هـذه اللحظة التي انهارت فيها قـوتي بسبب الدماء التي سالت مني؟ ألا تؤمنين بالله؟

إيزة : لا أعرف، لم أفكر أبدا في ذلك.

ميزا : لكنك تؤمنين بنفسك، وبأنك جميلة. وإيمانك يقوم على اقتناع عميق.

إيزة : إذا كنت جميلة، فهذه ليست غلطتي.

ميزا : أنت على الأقـل معروف من أنت ومـا هو شأنـك. لكن تصـوري وجود شخـص آخر معـك إلى الأبد، شخـص موجود في ذاتـه ويتحتم أن نتحمله في ذواتنا. إنـه حي، وأنـا حـي، يفكـر وفي قلبـي تفكيره، هـو الـذي خلـق

عيني، أأستطيع ألا أراه؟ وهو نفسه الذي خلق قلبي، لا يمكنني أن أتخلص منه. ألا تفهميني؟ لكن المسألة ليست مسألة فهم. هل تستطيع الكلمة أن تفهم نفسها؟ إنها تحتاج لكي تكون كلمة إلى إنسان يقرؤها. يالفرحة أن تكون محبوبا إلى أقصى حد! ياللرغبة في أن تفتح قلبك مثل كتاب مفتوح من منتصفه! وأن نكون نحن أنفسنا، إن هذا وحده، بحيث نصبح واضحين تماما، مقروئين، ونشعر بالفعل أننا منطوقون، مثل كلمة يسندها الصوت ونبرة اللفظ! ويالعذاب أن تشعر بأن كائنا آخر يتهجاك بلا نهاية! إنه لا يترك لي وقتا للراحة! لقد هربت إلى هذا الطرف القصي من العالم! وها أنذا في هذا الموضع الآخر من محيط الأرض، كشخص يقوم لقياس قاعدة ليحصل على بعد فلكي، بعيدا عن المنزل القديم الذي يبدو أشبه بالبيضة المكسورة. أنا الذي أحببت هذه المرئيات كل الحب، وتلهفت على رؤية كل شيء وتملكه لا بالعيون وحدها أو الإحساس وحده، بل بذكاء الروح، لمعرفة كل شيء حتى أكون معروفا بكليتي، لكنه لا يترك لي الوقت أبدا، وها أنا وسط كل هؤلاء الوثنيين، وهو الذي أعادني إليهم، وكأني مدين يبتزونه دون أن يعرف ماهو دينه.

إيزة : ولهذا السبب عدت إلى فرنسا؟

ميزا : ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ وأين هو خطئي؟ لقد استهلكت بعطاء شيء من ذات نفسي لا أعرفه. هذا إذن هو الأمر كله. إنني أهب نفسي. وهاأنذا بين يديك. خذي بنفسك كل مايلزمك.

إيزة : هل طردت؟

ميزا : لم أطرد. لقد وقفت أمامه، مثلما أقف أمام رجل لا يقول شيئا ولا ينطق بكلمـة. إن الأمور في الصين لا تسير على مايرام، ولقد أعادوني إلى هنا لبعض الوقت.

إيزة : تحمل الوقت.

ميزا : لقد تحملته بكل كياني! عشت في وحدة رهيبة بين الناس. لم أجد الألفـة معهم أبـدا. ليس لـدي شيء أعطيه لهم، ولست مستعدا لتلقي نفـس الشيء منهم. إنني لا أصلح لأي إنسان، ولهذا أردت أن أعيد إليه كـل ماكان عندي. ولأني أردت أن أعطـى كل شيء، كـان علي أن أسترد كـل شيء، رحلـت، ثم تحتـم علي العـودة إلى نفس المكـان، ذهب كل شيء سدى، لم يبق شيء. كنت أحس في نفسي قوة أمـل كبير! أمل لم يعد له وجـود، ووجدتني ضـائعا، فاقـد الوعي والهدف، وهكذا أعـدت مرة أخرى، عـاريا تماما، مع الحياة القديمة، مجردا من كل دليل، إلا أن أبدأ الحياة القديمـة، أبدأ الحياة القديمة من جـديد، ياإلهي! الحيـاة البعيـدة عـن الحياة، يـاإلهي، بغير انتظـار لأحـد سواك، أنت يامن لا تريد شيئا مني، وأنا بقلبي الجريح، بزيغـي وضلالي. وها أنذا أثـرثر معك! مـاذا تفهمين من كل هذا؟ ماذا يعنيك وفيم يهمك؟

إيزة : إنـني أنظـر إليك، وهـذا شيء يعنينـي، وأرى أفكـارك مشوشة كالعصافير بالقرب من الطاحونة، عندما نصفق لها بأيدينا تصعد جميعها إلى شفتيك وعينيك.

ميزا : أنت لا تفهمينني.

إيزة : أفهم أنك تعس.

ميزا : وهذا شيء يهمني وحدي.

إيزة : أليس كـذلك؟ ومن الأفضل أن تعمـل إيزة على الاهتمام بك.

(صمت)

ميزا : (بثقل) هذا مستحيل.

إيزة : نعم، هذا مستحيل.

ميزا : دعينـي أنظـر إليـك، لأنـك محرمـة. لماذا تنظـريـن إليّ هكذا؟

إيزة : ياميزا المسكين! مـن العجيب أنني لم أرك أبدا مـن قبل. إنني أحب كل ملمح من مـلامحك، في الوقت الذي لن يراك فيـه الآخرون جميـلا. ربما لم تكن عظيما بما يكفـي. إنني لا أجدك جميلا.

ميزا : إيزة أجيبي على سؤالي كـي أعرف. سنفترق بعد قليـل. لا أهمية لهذا، ولكن افـرضي أننا حرار، أنت وأنـا، فهل كنت توافقين على الزواج مني؟

إيزة : لا، لا، ياميزا.

ميزا : أنت إيزة، أعرف أنك إيزة.

إيزة : هذا صحيح. لماذا قلت ماقلتـه منذ لحظـة؟ لا أدري. لا أعرف ماذا أصابني فجأة. إنـه شيء جديد مفاجىء. شيء جديد تماما، هو الذي دفعني إليه، وماكدت أنطق الكلمة، حتى صدمت، أتعرف دائما ماتقوله؟

ميزا : أعرف أنك لا تحبينني.

إيزة : وهذا هـو مافـاجأني! هذا مـافهمته بغتـة! أنا التـي كان يمكن أن تحبني.

ميزا : دعينـي إذن أنظر إليـك. مـا أسرّ أن أجدك معـي. إذا مـددت يـدي، استطعت أن ألمسـك، وإذا تكلمـت، أجبتني وسمعت ما أقوله لك.

إيزة : لم تكـن تنتظرني، ولم أنتبـه إليـك، لكنني احترمتـك، لم أكن لعوبا معك، ولا أميل إلى التفكير في شيء كهذا.

ميزا : لماذا قابلتك الآن؟ آه، لقد خلقت، لقد خلقت للبهجة والفرح، كـالنحلة السكرى، ككـرة قذرة في بوق الـزهرة المخصبة! من القسوة أن تحتفظ بكـل قلبك. من القسوة ألا تكـون محبوبـا. مـن القسـوة أن تكون وحيـدا. مـن القسـوة أن تنتظـر، وتتحمـل، وتنتظـر، وتنتظـر على الدوام. وها أنذا في هذه السـاعة من الظهيرة حيث يرى المرء بوضـوح كل مـاهو قريـب. حيث لا يـرى أبدا أي شيء آخر. هـا أنت إذن! آه، كـم يبدو الحاضر المبـاشر قريبا من أيدينا ومـن فوقنا، كشيء يملك قوة الضرورة. ربـاه إنني بـلا حول وقـوة. لا أستطيع، لا أستطيـع أن أنتظـر أكثر مـن هـذا!. لكـن لا بأس. سينتهـي هـذا

أيضا. كوني سعيدة! سأبقى وحيدا. ولن تعرفي شيئا عن عذابي. إنه على الأقل شيء يخصني.

إيزة : لا، لا، يجب ألا تحبني. لا، ياميزا، يجب ألا تحبني أبدا، لن يكون لي ذلك الخير مطلقا. تعلم أنني امرأة مسكينة. ابق ميزا الذي أحتاج إليه، هذا الرجل الغليظ الطيب الذي كلمني بالأمس أثناء الليل. من سيستحق احترامي وحبي إن أحببتني؟ لا، يجب ألا تحبني أبدا! لقد أردت فقط أن أتحدث معك، واعتقدت أنني أقوى منك بصورة ما. وها أنذا الآن كالبلهاء التي لا تعرف ماذا تقول، كشخص أُجبر على الصمت وراح ينصت. تعلم أنني امرأة مسكينة، وأنك إذا ما خاطبتني بطريقة ما، فلا حاجة لك لأن ترفع صوتك، لكن إذا ناديتني باسمي أو باسمك، باسم تعرفه ولا أعرفه، فسوف أصغى إليك، والمرأة بداخلي لن تستطيع أن تمتنع عن إجابتك. أشعر أن هذه المرأة لن تكون طيبة أبدا معك، بل ستكون نحسا عليك، كما أتوقع أن تصدر مني أشياء مرعبة. ليس الأمر أبدا مجرد لعبة معك. لا أحب مطلقا أن أهب نفسي بصورة كاملة. ولا أريد أن أموت، فمازلت شابة والموت ليس جميلا، والحياة هي التي بدت لي جميلة، فكم صعدت الحياة إلى رأسي فوق هذه السفينة! لهذا يجب أن ينتهي كل شيء بيننا. ميزا، لقد قيل كل شيء بيننا. كل شيء انتهى بيننا. فلنتعاهد على ألا يحب أحدنا الآخر. قل إنك لن تحبني. قل لن أحبك ياإيزة.

ميزا : لن أحبك ياإيزة.

إيزة : لن أحبك ياإيزة.

ميزا : لن أحبك.

(ينظر كل منهما للآخر)

إيزة : (بصوت خفيض) كررها مرة أخرى لأسمعها.

ميزا : لن أحبك

(يرجع أماليك)

أماليك : كان عليكما الحضور لرؤية بقرتنا وهي تذبح. إننا نقوم الآن بسلخها، وهو منظر يستحق المشاهدة. هذا وردي وأزرق، وذلك قزحي وبلون الصدف، لكن البحر هو الذي يفوقها صخبا وضجيجا! إننا نشعر بها وهي ترتب نفسها، وتتهيأ للمساء. أوه! لم تعد تصدر عنها أي حركة، ولكن يالها من بقرة سمينة، نحس أنها أشبه بالقطيفة السميكة، أو بظهر امرأة! سوف ترون زينتها! ليست كثيابكم الرثة. فلم تعد النساء تحسن اختيار ملابسها جيدا. هذا ماقاله لي ميزا.

إيزة : أهذا صحيح؟

أماليك : إنني أكذب، لا تتهميه. لكن فيم كنتما تتحدثان؟ إنه لا يتركك. لم أعد أعرفه. لقد غيرت عزيزنا ميزا.

إيزة : كان يلقنني درسا في الأخلاق. فهو أستاذي.

أمالريك : وأنت أستاذته أيضا.

إيزة : إنني أتعلم منه. فهو يعرف النساء. ولا يتأخر عن إسداء النصيحة. هو واحد من أولئك الرجال المتأهبين دائما للتضحية بحياتهم وتقديمها لك، بشرط أن يتخلص منك. متطرف، متطرف، مرهف الحس إلى أقصى حد، ودائما أكثر مما يجب. أليس كذلك؟ لهذه الأسباب أحب صغيري ميزا. وأنا مثله أيضا.

ميزا : هذا صحيح. فالوجود بالقرب من امرأة شيء جميل، وكأني أجلس في الظل، وأتلذذ بسماعها وهي تتكلم بحكمة بالغة، وتخبرني بأمور قاسية، وخبيثة، أمور عملية، ودنيئة غاية الدناءة، من النوع الذي تبرع فيه النساء. هذا شيء يريحني.

أمالريك : أهي أشياء كالتي يسمعها زوجك، إنه يبتسم، ويبدو عليه أنه سيتكلم، لكنه لا يقول شيئا، فهو هادىء وراض.

إيزة : يالفتاي المسكين!

أمالريك : أتحبينه؟

إيزة : أنا رجل! وأحبه مثلما تحب امرأة!

(تضحك بصوت عال)

ميزا : لا يصح أن تضحكي بصوت عال.

إيزة : لكن هذا الأسلوب يناسبني ياأستاذي! فلست فرنسية.

(تضحك)

أماليك : انظري إليه عندما تضحكين!

إيزة : أحب الرجل عندما يكون وحيداً وفي ظهره عظمة كبيرة صلبة.

أماليك : الإعجاب المألوف من النساء بالزنجي ورجل المطافئ.

ميزا : وأنا أحب رجالنا الذين يقلبون النار، عندما يهبطون نحونا من السماء، وليس معهم سوى أسنانهم البيضاء لكي يصلوا في صحراء هذا المحيط! عندما يحرثون طول اليوم في الغبار، كي يطعموا السلطان الأصفر. بأي كرامة نستولي باقتناع على نصيبه المحدود من المياه. إننا نحن البيض نثرثر ونسخر، ونرتدي الفساتين والسراويل، ونخزن المياه بلا ظمأ، نحن أكلة الخنازير.

أماليك : الحقيقة أننا لن نجني شيئاً من وراء هذه الرحلة البحرية.

ميزا : من المقرز أن نجلس على نفس المائدة. مع كل هذا القطيع من الحيوانات الجرباء!

إيزة : يـالطباعـك الغـريبة! أمـا أنـا فهـذا يسليني، ومـا أرق وألطـف وأغرب أن تـرى كـل هـؤلاء الناس يتحـركـون، ويتكلمون، ويجلسـون، ويستديرون، ويدسـون أيديهم في جيوب سراويلهم، شيء يبعث على الضحك. وهذه الباخـرة بكل مقصوراتها، وكـل أبوابها التـي نستطيع أن نفتحها ونغلقهـا. ويالها مـن لعبة جميلـة مثل صنـدوق تحنيط النباتات والحيوانات، بكل مافيها من أنواع! شيء عجيب أن تشـاهد كيـف يتقاربـون ويتعارفـون، كيف يرتدون ثيابهم، ويصففون شعـورهم، ويلبسون الأحذية وأربطـة العنـق، والكتـاب الذي يحملـونـه في أيـديهم، وأظافرهم، وطرف اللســان الذي يظهر بين الشفتين مثل لوزة ضخمة! لا شيء سوى يد تنفتح وتضطرب، وتبدو منهمكة في أصابعها الصغيرة! وكم أفهم كلامها.

ميزا : إنهم يضايقونني، لا أستطيع أن أحتملهم.

إيزة : وهم ما رأيهم فيك؟

ميزا : لا أدري. لا يشغلني ذلك. فأنا لا أفكر في الآخرين.

إيزة : ميزا! ميزا!

ميزا : فعلا، هذا صحيح! فأنا لا أفكر إلا في نفسي.

إيزة : لقد اكتشفتها بنفسك، وأنكرت أن النساء يصلحن لأي شيء. أنت مشغول بنفسـك فقط، نفسك وحدهـا هي التي تشغلك. أسهل على الإنسان يـاميزا أن يضع نفسه تحت تصرف الناس من أن يهبهم نفسه.

ميزا : هذا صحيح.

إيزة : تعلم شيئا من النساء! من يهب نفسه كما ينبغي، يجبر غيره على قبوله! سعيدة هي المرأة التي وجدت الإنسان الذي تهبه نفسها! وهاهو ذا الرجل الأحمق تذهله تلك المرأة العجيبة، ذلك الشيء الكبير الثقيل المزعج! بملابسها الكثيرة، وشعرها الغزير، ماذا يفعل بكل هذا؟ إنه لا يستطيع أن يتخلص منها، ولا يريد أن يتحرر من أسرها. سعيدة هي المرأة التي تجد من تهبه نفسها! مثل هذه المرأة لا تطلب أبدا أن تسترد نفسها! لكن من ذلك الذي يحتاج لها هي وحدها، كل الوقت، وليس لأخرى أيضا؟ إنها تهب نفسها لك، فماذا تحصل عليه في مقابل ذلك؟.

أماريك : كل هذا عسير عليّ. بحق الشيطان! إذا كان على الرجل أن يساوره القلق الدائم على زوجته، ويظل في شك إذا كان قد وضع حبه لجيرمين أو بترونيل في موضعه، ويتحقق باستمرار من حالة قلبه، فيالها من مشكلة! إن العواطف هي التي تهم النساء، وهي أشبه بتلك العلب الصغيرة التي يرتبن فيها الخيوط والشرائط، وكل أنواع الأزرار، وأسلاك المشدات. والشيء المقزز أنهن مريضات طول الوقت، وفي النهاية، فهي هنا، أليس كذلك؟ وسنفتقدها إذا غابت، وهو شيء لطيف أن تحصل عليها من وقت لآخر. مارأيك ياميزا؟ كن صريحا يابني، هل أنا على حق أم لا؟

إيزة : أمالريك. . . وماذا سيقول إذاً صديقنا المسافر على الدوام وعلى ظهره جلد حيوان؟ «أنت أرنب» يا أمالريك. . أنت أرنب.

(تضحك بصوت عال)

أمالريك : ها هو زوجك ينضم إلينا مترفعا وصامتا كعادته.

(يدخل دوسيز)

أمالريك : (يناديه) دوسيز، سنصبح جميعا أغنياء!

دوسيز : شيء عظيم!

أمالريك : لا يوجد أدنى شك في هذا الموضوع! وقبل كل شيء، ألا نحتاج جميعا إلى النقود؟ اسأل هذه السيدة التي أمامك، واسأل ميزا، الذي يبدو كرجل بلاجيوب! وبصرف النظر عنك وعني، أخبرك أنني أشم رائحة الثروة في الهواء! هيا إذن، فأنا أعرفها! أعرف هذه الرائحة! ألا تشمون ريحها؟ آه، أحس أن قلبي يتمدد وينبسط، لقد عبرنا خطا معينا! أتعرف على شرقي القديم! إنه يبدو لي مثلما يبدو متجر اللوفر الكبير، المتلىء بالأقمشة والصابون! بالنسبة لمدام ديبينال أو فاسي سيربليز. إنها الهند أمامنا. ألا تسمعها من شدة الزحام تكاد الأذن تحس رفيف مليارات العيون. يالها من فرصة ألا تكون في فرنسا! فلن نرجع أبدا إلى الوراء! كم بدا لي كل هذا الكلأ بلا طعم! ومنظر الخضرة المقززة المحرومة من ضوء الشمس! وذلك الفرن الشاحب الذي يسمى الحمام الساخن!

دوسيز : لقد عبرنا السويس مرة أخرى.

ميزا : الحقيقة أن الإنسان لا يعبرها إلا مرة واحدة، أظن أننا جميعا قد عبرناها في هذه المرة.

أماليك : مرحى! لن نعبرها مرة أخرى. مرحى! لن نرجع مرة أخرى للوراء! إذن سنكون جميعا في العام القادم بين الأموات. مرحى مرحى!

إيزة : ياله من دعاء جميل.

أماليك : في كل الأحوال، يجب علينا جميعا أن نصبح أثرياء، وإلا فالخطأ خطؤنا جميعا. هذا هو ماتوصلنا إليه. أريد أن أجمع ثروة مهولة! مرحى! إنني أعرف الشرق البديع. عنيف أنا وفوضوي وملىء بالبراغيث![*] وهناك الشمس شمس من طلعة الصباح! والأخضر أخضر، والحرارة القاتلة في كل مكان، عندما تكون حمراء، حمراء! وأنت مثل النمر وسط حيوانات أضعف منك. كان الأفضل بدلا من هذه التجارة الحقيرة، أن تطعن السيف في الزند مثيرا الفزع. أن تدخل تلك المدن القديمة، المكتظة باللحم البشري، وأنت مدجج بالسلاح، وتصمم على الرجوع بأربعة أطنان لكل منا، مليئة بالحلي والجواهر، ومعها عينات من آذان الخائنات، وأصابع مقطوعة لنساء وفتيات، أو الهلاك بشرف وسط الرفاق! وسيكون هذا أفضل من أن يغرق المرء في عرقه وهو يرتدي «المنامة» أمام حاجز الشرفة.

---

* هذه الجملة مكتوبة باللغة الإنجليزية في الأصل الفرنسي.

إيزة : وهل ستحتفظ لي بالآلىء؟

أماالريك : لامانع لـدي. تمني فقط أن أجد الأيدي العـاملة لمزارعي المزروعة بـالمطاط! إن مـرور الزمـن لا يغير شيئا هنـاك، فالشمس دائما هي الشمس، والمحيـط الهندي هو نفس المحيـط، هذا الـوثني الجارح الـذي تربّـى على الريـاح الموسمية! الدرجـة العاشرة أفضل للبحار مـن أن يشغل الدرجة الستين، وهـذا يزيد على بلجيكا، وشبـه جزيرة لبرادور، والشارع الخامس والعشرين في نيـويورك، وهو شارع جميل وأكثر من هذا أن الأرض وحشية صلبة، لكن بلاد الماء هذه يعرف الرجل المسك بالدقة كيف تتحرك! كل هذا يبقى على حاله دائما. تكلمـوا، هل تعرفون أين نحـن الآن؟ هـل تفهمـون أحـوال التجـارة؟ اسمعـوا، سأعطيكم فكرة عن الاقتصاد السياسي.

ميزا : أنت ثمل، ياأماالريك.

دوسيز : لا يبدو هذا أبدا عليه. إنـه «رحالة» حقيقي. انظروا إلى عينيه الصغيرتين اللتين ترمشان.

أماالريك : إلى اليسار، بابـل، بكل أسواقها، وأنهارهـا المنحدرة من أرمينيا، وعلى اليمين، خط الاستواء، وأفريقيا، حسن، هـل تدركـون الآن معنـى التجارة؟ القـوارب الصغيرة في الرياح الموسمية الشمالية التي تصفـع سبأ، وموانىء جزر السلمـون، ومسقط، والهنـد، ومنبـع الـرافديـن. غنيـة بالحديد، والمنسوجات، وما يلـزم من سلاسل وقيود كي

نحصل منها على مانريد، ناحية زيمبابوي، والمدن البيضاوية، ثم نعود إلى الرياح الموسمية في الجنوب وقد امتلأت جيوبنا بلحم قبائل شام المنحدرة من أصول أندونيسية، ومعنا زنوج، وزنجيات ، وزنوج صغار يصيحون، ويأكلون ويرقصون ويغنون، ويبكون، ويتبولون! وأحيانا، في الصباح، تظهر الأرداف السوداء للسفينة الكبيرة الواقفة وسط ريش الدجاج وقشور الموز على البحر الذي يلفظ الأسماك الطائرة! هذا مايناسب المطاط!

ميزا : هاهي ذي الشمس تغرب! وهاهو ذا البحر كالطاووس الملون أو كآلهة الحظ الهندية لاكشمي الزرقاء وسط موشور أزرق!

إيزة : آه، لقد عبرنا السويس حقا!

ميزا : ولن نعبرها مرة أخرى. أنت على حق، هنا أقدم مكان على البحر، هنا أغنى المصادر، أكبر مخازن الصباغة، الزجاج العميق، البحر الواسع من النبيذ الذي يشرق عليه البدر المحمر والشمس القرمزية! لكن انظروا الآن حيث تهبط الشمس! إنه اللون الوردي! نقي مثل عنق صبية، عذب مثل امرأة! لامع كالخزف، رقيق كخمار الكشمير القديم، الذي كان يلبسه فقهاء القانون. آه! شيء مشين أن نلوث لك الصدر الجميل! ونعكر بمراكبنا أعماق هذه المياه المقدسة(*) المليئة ببيض الأسماك الإلهية!

* Marie-Salope نوع من المراكب المخصصة لصيد المحار من أعماق البحر.

إيزة : (بصوت خفيض) هاهي ذي الشمس تغرب، وهاهو ذا الهواء الخفيف يرتفع!

(صمت)

ميزا : (بصوت خفيض) هاهي ذي الشمس تغرب، هاهو ذا البحر يتحرك، والقلب المذنب يرتجف لحظة تحت سماء تتنهد هاهو ذا البحر من الذهب الخالص، كالعين في اتجاه المصباح (وهو يتلو نصا) «عيناها لهما لون مختلف. ويغير البحر لونه مثل عيون امرأة نضمها بين ذراعينا». هي مقارنة صحيحة تماما، رقيقة رقة اللحم، أعلى الذراع، مع كل هذا المزيج من الألوان، بدءا من لون الكبريت إلى الأزرق الصافي والقرمزي. مثل عين الضوء لا يمكن الاستيلاء عليها أبدا كأن مياهها تنسكب من نبع آخر.

(جرس الغذاء)

دوسيز : لقد دق الجرس، حان وقت الانصراف لارتداء ملابس العشاء.

أمالريك : امرأة! هذا تعبير لم أتوقعه من ميزا الذي أعرفه من رحلتي الأولى. إيه، إيه! هو أيضا قد عبر السويس! إيه ياميزا، إنه السن الذي وصلنا إليه! السن الملائم لتحقيق الذات!

ميزا : من المستحيل التوقف في أي مكان.

دوسيز : هيا للعشاء.

(ينهضون جميعا)

أماليك : (آخر من يخرج وهو يقرأ بصوت عال) البحر مثل عيون المرأة. فهمت! البحر مثل عيون المرأة تضمها بين ذراعيك.

الفصل الثاني

(هونج كونج، المقابر مليئة بالأشجار الكثيفة في «هابى فالي» (الوادي السعيد). ومن هناك، تنكشف طرق عديدة وميدان سباق، ومصنع، وميناء صغير، والبحر، ومن الخلف يظهر الساحل الصيني. الوقت عصر يوم كئيب في شهر أبريل. السماء ملبدة بالغيوم وعاصفة)

ميزا : المكان جميل هنا (يقرأ الكتابة المنقوشة على قبر) الاسم سميث. كان شابا صغيرا، هاهي الشجرة. (ويعاملها كأنه لا يراها) هنا. قالت لي أن أنتظرها عند سميث كمن يحدد لك موعدا في الساعة الخامسة عند الحلواني. يالها من نزهة غريبة في مستنقع المراطقة هذا! أكره هذه المقابر الأوربية. وهاأنذا أجد نفسي بين هؤلاء الملاعين!

(ينظر حوله)

منظر جميل. راعوا أن يكون فيه ميدان سباق، والطريق الذي يعبره كل الناس. حياة كاملة، مصنع يتصاعد منه الدخان، والميناء بسفنه، وأرض الأحياء في الناحية الأخرى. إنني أرتعد. أحس بطعم معدني في فمي. لست ميتا، بل أشعر بجمال الحياة. كم أحب هذه المقابر الصينية التي تنبت تربتها الزهور من الأرض الساخنة الجافة كالجير! لكن نحن الغربيون، رجالا

ونساء، لا يهم أن نطرح في أي مكـان، في مقبرة مبللة، العجوز الأحمر، والشـاب الذي كان يجيد لعـب التنس، والفتاة المسكينة بملابسها الـداخلية من الحرير الوردي! وإذا ما طفـا التابـوت، وضعوا بداخلـه قطعة قـذرة من الرصاص ليغوص في الماء. هذا هو الذي يجعلك تحتسي كأسك مـن الويسكي. ما هذه الشعلة المتـوهجة خلال الأغصان؟ أرى مصابيح مضاءة. إنها مقبرة المجوس.

(يتجول بين المقابر وهو يقرأ الكتابات المنقوشة عليها)

لتخليد ذكرى جنود فيلق البحرية القتلى أثناء الهجوم على قلعة بوكاتيجري. بلومكيت، قائد السفينة.

(يقف شاردا، ثم يعود إلى انتباهه بمجهود)

هـه، بلومكيـت... كـاري بنسـوزان، ماتـت في الشهـر السادس مـن عمرها. وودز ــ إنه العجوز كـوكي ـ جـونز، ك. س ـ بـاكستر ـ موظف تـأمين، لي بوتان دي جـوزافيه ـ وكون، سمسـار عقارات، ليكن الخلـود من نصيبـي، كم أتذكر كل هذا! بحار سنة١٨٥٩ الذي أردته رصاصة قاتلة أو الزهري المنتشر في المعسكر. والأعزب العجوز الذي مات من الهذيـان الرعـاش. مأسـوفا عليـه من كـل أصدقـائه، والأطفـال التعساء الـذين يهلكـون في قيظ يـوليو كسمكـة مختنقة في زهرية نسوا أن يغيّروا ماءها. والجميع محرومون من بركة السماء. مساكين غرباء عن أرض الوطن.

(ينظر)

أي ظل هذا فوق الأرض! إن خطوتي تصيح. ويخيل إليّ أنني أتكلم في مغارة.

فوقي سماء مسدودة، يغمرها ضوء نهار باهت. لقد أصبت في عقلي، وداهمني التبلد. لا شيء سوى الشر المستشري في روحي. هذا على الأقل شيء يخصني.

(وهو يقرأ) «أنا على الأقل أتعذب. أنا على الأقل شقي إلى أبعد حد». هذه الآلام في قلبي، هذه العذوبة المرة السامة» لم يبق لدي شيء أفعله. لقد أصابني الشلل. روحي في داخلي مثل قطعة من الذهب بين يدي مقامر! (يبتعد)

(يدخل دوسيز وإيزة)

دوسيز : ياعزيزتي. أسألك الصفح. يجب أن أتركك هنا. ستقولين إنني لا أحسن التصرف؟ كم يوما مرّ علينا هنا؟ وهذه عملية يبدو أنها تسير على مايرام. دعيني أدبر الأمر وحدي! لكنك تشكين دائما في. علي أن أقابل صديقي «آه فات»، هناك، في ميناء السفن الشراعية. سأتناول العشاء معه هذا المساء، ونناقش الترتيبات الأخيرة. سأرحل إلى ساتو.

إيزة : أليس في هذا خطر عليك؟

دوسيز : لا أعتقد هذا. لا أدري. لماذا تسألينني هذا السؤال؟ هل تظنين أنني خائف؟ لعلها لمسة لطيفة منك ندل على «الطيبة والإخلاص»

(يكتب الحروف الصينية في الهواء بأصبعه)

إيزة : ما أسرع أن تتعلم اللغات!

دوسيز : أعرف بالفعل الكثير من الحروف. وقد جمعت في هذه الفترة عددا من الأختام.

إيزة : أعرف أنك ذكي، سيز، يمكنك أن تتصرف كشخص آخر إذا أردت. لماذا تتحول فجأة وتصبح كالطفل؟

دوسيز : سترين إن كنت طفلا! من الحمالين القادمين من بينانج أو سنغافورة الذين نفتش توابيتهم وإذا وجد بها أفيون أو بنادق فسيكون ذلك صدمة شديدة لي. هل تعلمين أنهم يستعدون هناك لإقامة جمهورية صغيرة ولطيفة على قدميها؟ شيء مسل. دستور الولايات المتحدة، الذي صدقت عليه الأرواح الثلاثة للواء السماوي، مع بعض المساهمات غير المباشرة من الضرائب. ماذا يقول عمنا الماركيز، لو عرف أنني أساعد في تأسيس جمهورية، وماذا تريدين ياعزيزتي، يجب أن نعيش، يالها من مهنة لرجل رُبي تربية حسنة. مارأيك في هذا الموضوع؟

إيزة : لماذا تكلمني عن هذا؟ ماذا تريد مني أن أعرف، وكل هؤلاء الصفر يثيرون اشمئزازي. لماذا لا تحتفظ بهذه المسألة لنفسك؟ إن وجود أحد يخالفك في الرأي مصدر تعذيب لك.

دوسيز : ليس هذا ماقلته لميزا في ذلك المساء. منبهه من نومه . . .

إيزة : صدقه.

دوسيز : لا بأس. إنه صديقنا.

إيزة : لنستفد منه إذن.

دوسيز : يالقسوتك! أنا لم أستطع أن أتعود عليك. هذا الهوس الذي يدفعك إلى الإلحاح والمبالغة! يجب أن نأخذ الحياة بخفة! إنني أحب هذا الغلام، ويسعدني أن يؤدي لي خدمة، ثم إنه لا دخل له في كل هذا.

إيزة : ومتى ستعود؟

دوسيز : خلال شهر. أعتقد هذا. لا أعرف بالضبط.

إيزة : أنت لا تعرف شيئا بالضبط.

دوسيز : نحن مرتاحون في هذا الفندق، وقد تعودت على الفنادق.

إيزة : (وقد خفضت عينيها) لا ترحل.

(صمت)

دوسيز : قلت لك هذا شيء لابد منه!.

إيزة : ياصديقي، لا ترحل.

(صمت)

دوسيز : لابد، لابد ياإيزة.

إيزة : لا تتركني وحدي.

دوسيز : لاخطر بالمرة.

إيزة : يجب ألا تتركني هنا وحدي.

دوسيز : يجب أن تكوني عاقلة.

إيزة : ما أنا إلا امرأة. إنني خائفة. مهما يكن فأنت بعد كل شيء مسئول عن حمايتي. إنني خائفة! أعرف أن هناك أشياء مرعبة تنتظرني، وأشعر بالخوف من هذا البلد الذي لا أعرفه، هذا البلد الذي تتركني فيه وحيدة، بمجرد وصولي إليه، ومازلت أشعر بالدوار والاهتزاز بعد مغادرة السفينة.

دوسيز : ماذا! هل إيزة هي التي تقول إنها خائفة؟

إيزة : خذني معك!

دوسيز : لا يمكنك أن تتركي أطفالك.

إيزة : لقد اهتممت دائما بأطفالك، أما أنا فلم تهتم بي أبدا!

دوسيز : لكن، ياإيزة!

إيزة : أرجوك مرة ثانية ألا تتركني وحدي. أنت تتهمني بأنني متكبرة، وأنني لا أرغب أبدا في شيء ولا أطلب أي شيء. كن راضيا إذن. فها أنت تراني ذليلة مهانة. لا تتركني. لا تتركني وحدي أبدا.

دوسيز : هكذا ينبغـي أن نعترف في النهاية بأن المرأة في حـاجة إلى زوجها! وهذه عـزيزتنا إيزة المعتزة بنفسها تتـوسل كطفل صغير ألا تترك وحدها!

إيزة : لا تسرف في الثقة بي.

دوسيز : أنت لي، شئت هذا أم أبيت. هل كانت لديك الرغبة في الزواج مني! ومع ذلك فأنا الذي أخذتك وكسبتك طوعا أو كرها، بينما عجز الآخرون.

إيزة : لا تحتقرني كثيرا، ولا تثق في أكثر من اللازم، كما لو كنت امرأة يمكن كسبها بالعناق والملاطفة. ألم أبق معك عشر سنوات؟ عشر سنوات عرفتك فيهـا وجها، وظهرا، من الأمام والخلـف، ومن أعلى وأسفل، وهأنـذا أتهم وأقدم للمحـاكمة ألم تـأخـذ مني كـل حسـابك ومتعتـك؟ ألم تنجب منـي كل أطفـالك؟ وأنـت، هل عـرفتني؟ هـل تعرف مـن أنا؟ رجـل لم يعرف زوجتـه كما لم يعرف أمـه. عشر سنوات! أنا الآن في الثلاثين. ذهـب شبابي، وكل ماكان في إمكـاني أن أعطيك قد أعطيته كلـه. لا تتركني هكذا وحدي، في الوقت الذي يوشك فيه كل شيء على الانتهاء. لا تغب.

دوسيز : إنني أعرفك أفضل مما تعرفين نفسك هذه هي إيزة المعتزة بنفسها! معي أنا! إن معرفتـي بك لا تسمح بأن أتصور أنك يمكن أن تفكري في اقتراف أي خطأ معي.

إيزة : لا أدري، إنني أحس في داخلي بغواية، لم أعد تلك الفتاة الصغيرة التي أخذتها. إنك لم تبق على ما كنت، ولست بكرا لم يمسسني أحد، ولكن هل تعتقد أنني لا أصلح إلا لإنجاب الأطفال؟ هل جمالي بلا مقابل؟ من يملكني في المستقبل، سأمنعه من امتلاك شيء آخر سواي. سأكون له، ألا يكفي هذا؟ ثمة شيء في كياني كله لم أقدمه لأحد، ثمة موت معين، سأعرف كيف أهبه إياه، ثم ألست جميلة؟ لكنك أنت، أنت غير جاد. أفهم من أي نوع أنا! من أي جنس أنحدر! لأن هناك شيئاً شريرا، شيئا مجنونا، شيئا هو الدمار والموت والضياع لنفسي وللجميع، أليست هذه غواية لا يمكنني أن أصمد أمامها؟ عما قريب سيذوى جمالي. وبدلا من أن أشيخ في سأم يوما بعد يوم، سأرفض الشيخوخة! أليس من الأفضل أن أعطيه كل شيء مرة واحدة، أن أغرسه بين يديه في نوبة من الضحك، في سخاء وأريحية منتصرة، في أثناء شبابي وروعتي، وأن أفنى مع ذلك الذي أفنيه، مثلما فني أجدادي واندثروا، في لحظة اطلاق نفير، في بريق السيف القاتل! على أنني أتمنى ألا تصيبني هذه الغواية، لأنها لا تجوز، ولن يكون فيها نبل ولا عدل، والنبل كله في المعاناة والمقاومة.

دوسيز : هل عانيت في حياتك معي؟ وما هو ذلك الشيء الذي حرمتك منه وكان في إمكاني أن أهبك إياه؟

إيزة : فلتغفر السماء أنك حرمتني من شيء ما، وأنك قد حرمتني من نفسي! إنني امرأة بعد كل شيء، وليست هذه معضلة. وماذا يلزمها غير الأمان، مثل ذبابة العسل النشيطة داخل الخلية المحكمة الإغلاق؟ وأي أمان من الحرية المخيفة، مثل أن أعطى وأوهب؟ وحاولت أن أتصور أنني سأنعم بالهدوء، إن حياتي مضمونة، وإن هناك دائما من يعيش معي، لكي يتولى قيادي ويأخذ بيدي، رجل يشاركني بعض أفكاري، ويمكنه دائما أن يكون أقوى مني. وما أهمية أن تؤذيني قليلا مادمت أحس أنك تضمني وإنني أخدمك، أما أنت، فمن يعرفك، من يمكنه أن يطمئن إليك ويجد فيك مايفهمه ويخلص له؟ إنك تهرب وتغيب. مثل طفل ضعيف ورقيق، متقلب المزاج، غامض، مملوء بالأكاذيب، يصعب رؤية شيء في عينيك. لا تنفذ رغبتك في الرحيل! لا تغب عني في منتصف حياتي!

دوسيز : كل هذا لأجل بضعة أيام أتغيبها عنك؟!

إيزة : أجل. أليست هذه هي الساعة التي يكفي فيها أي انفصال؟ إنها شيء أدق من سكين تقطع ثمرة إلى نصفين فلا يمكن وصلها بعد ذلك، من يضمن ألا أموت مثلا فور رحيلك؟ إنني خائفة من الموت. لماذا جئت بي إلى هنا؟ أنظر إلى هذا المكان الحزين!

(تنظر حولها في رعب)

دوسيز : لكنك أنت التي وجدت هذه المنطقة جميلة.

إيزة : كم هو مرعب أن نموت وأن نكون موتى .

دوسيز : لكن الأمر لا يتعلق بالموت . لا خطر هناك بالمرة . سأعود قريبا ، وعما قريب سيكون لدينا المال وسنرجع إلى فرنسا ، أرى أنك تحبينني . أعرف هذا ياقلبي . أعرفه ياذات القلب الطيب الرحيم!

إيزة : وتصمم على الرحيل؟

دوسيز : لابد من هذا . آه «فات» أقرضني المال .

إيزة : إذن فارحل . ليس لدي ما أقوله . حسن .

دوسيز : ألا تريدينني على الإطلاق؟

إيزة : لا.

(صمت)

دوسيز : إيزة! لقد فكرت فيما نصحتني به . إن فيه نصيبا من الصحة . هذان الشيئان اللذان يقدمهما لنا صديقنا ميزا . . .

إيزة : وماذا بعد؟

دوسيز : إذا بقيت هنا فالوضع غير مغر.

إيزة : ولكنه مضمون .

دوسيز : مضمون! مضمون! أليس في فمك غير هذه الكلمة؟! لقد أسأت فهمي على الدوام! إنني بحاجة للإمساك بزمام المبادرة، بحاجة إلى المال. أتعتقدين أن المخاطر تخيفني؟ صدقيني إذا قلت إنني أخشى أن أصحبك معي إلى بلاد «شان».

إيزة : ولهذا يجب ألا تذهب إليها.

دوسيز : هذه خسارة فادحة. فلن تطول الاقامة أكثر من بضع سنوات. لقد حسم وضعي، وهيأت نفسي له.

إيزة : كيف أوافق على رأيك وأنت لا تكف عن تغييره؟

دوسيز : يجب ألا تكوني قاسية. فعما قريب لن أكون معك. وداعا ياقلبي.

إيزة : وداعا ياسيز. لم تكن رجلا شريرا.

دوسيز : لاداعي للدموع ياقلبي. وداعا، ياذات القلب الطيب. لن أتركك وحدك أبدا. يسعدني أن ميزا سيكون معك.

(يقبل يدها ويخرج)

(تتبعه إيزة طويلا بعينيها وهو يبتعد، وبعد أن يختفي، تبقى ساكنة في نفس المكان)

إيزة : (ناظرة إلى ناحية أخرى) لم أعد أراه. لن أنتظره. أعتقد أنه لن يرجع أبدا.

(تبقى ساكنة، وقد ركزت عينيها على الأرض)

يدخل ميزا من الخلف

ميزا : (بصوت خفيض) هاأنذا.

(تستدير نحوه ببطء وتمد لـه يدها، يتبادلان النظرات في حرج)

إيزة : لقد تركني زوجي لتوه.

ميزا : وكيف حالك؟

إيزة : أنا؟ الأمور تسير دوما! لاشيء يمنعني أن آكل.

(تنفجر ضاحكة)

كأني جندي طيب مهـزوم. شيء عجيب. يخيل إلي أنني لم أثبت قدمي على الأرض بعـد، أميل جانبا في سيري، وأنحني، أنحني، ثـم أرتج فجأة كأني أعـاند النوم. ألا تشعر بهذا؟ أنك لا تحس وأنت في البحر أنك واقف على رجليـك. ولا شيء يبـدو معتـدلاً، يصعـب عليـك أن تتماسك، وكأنك فوق أرض تتنفس.

ميزا : هل كلمته؟

إيزة : رجوتـه ألا يرحـل، ألا يتركني هنـا وحيدة. فلـم يشأ أن ينصت إليّ.

ميزا : أنا أيضا فعلت ما استطعت. . كيف يتركك هكذا؟ لقد عرضت عليه بعض الاقتراحات، ولكنه مغرم بدسائسه، يستمتع بها ويتصور أنه يخدعني.

إيزة : هل سمعت الشائعات من كل ناحية؟ وهل هناك جديد حقا؟

ميزا : لا. . لا. . من يعرف الصين؟ ربما يحتاج الأمر سنتين، أو ثلاث، أو أربع سنوات أخرى. . متى قلت أنه سيرحل؟

إيزة : غدا.

ميزا : وكم يطول غيابه؟

إيزة : شهر. يجب أن يتركني وحدي، يجب ألا يأتي لرؤيتي.

(يبقيان صامتين دون أن يتبادلا النظر. وفجأة ترفع إيزة رأسها وتفتح له ذراعيها. وتضمه وهي تنشج وتضع رأسها في حضنه)

إيزة : ياميزا المسكين! (تداعب رأسه)

ميزا : إيزة!

إيزة : أيها الطفل المسكين ميزا، ميزا المسكين.

ميزا : انتهى كل شيء.

(ينهض وهو يترنح كالمخمور)

إيزة : (وهي تنظر إلى وجهه) تعال! تعال ولا تبق بعيدا عني طويلا.

(يتعانقان، تظل إيزة ساكنة ومستسلمة. يتوقفان)

ميزا : آه ياإيزة!

إيزة : ها أنذا، ياميزا. ها أنذا.

ميزا : أيتها المرأة بين ذراعي!

إيزة : هل تعرف الآن ماهو معنى المرأة؟

ميزا : إنني ممسك بك، لقد وجدتك.

إيزة : وأنا لك، لن أتراجع، سأتركك تفعل ما تريد.

ميزا : آه إيزة، هذا حرام.

إيزة : حقا، أن تضمني إليك حتى تكاذ تخنقني! مسكينة ياإيزة. لم أكن أصدق أنه حرام إلى هذا الحد!

ميزا : آه ياإيزة، إن السفينة التي أقلتنا قد رحلت، رأيناها تختفي في دخانها!

إيزة : ليست هذه التي تمسكها سفينة، بل امرأة حية بين ذراعيك.

ميزا : آه ياإيزة. لا تسمحي لي بأن أعود إليها!

إيزة : سأتنازل عن هذا. أنا لك.

ميزا : هذا كثير!

إيزة : هل يجب أن أتنازل عن نفسي أيضا؟

ميزا : هذا كثير!

إيزة : هل يكفي؟ أهناك شي آخر تريده مني.

ميزا : هكذا أمسكت بك! أخذت جسدك نفسه بين ذراعي ولم تبدي مقاومة، وسمعت قلبك الذي يدق بين أحشائي! صحيح أنـك لست سـوى امرأة، ولكننـي لست سـوى رجل، وهاأنذا أشعر بعجزي وبـأنني مثل إنسان جائـع لا يمكنه أن يحبس دموعه عنـد رؤية الطعام! ياعمادي! ياقوة محبـوبتي! كم كان من الظلم أن ألقـاك! بأي اسم ينبغـي علي أن أناديـك! سـأدعـوك أمي، لأن حنـانـك يغمـرني، وأدعـوك أختـي، وأمسك ذراعـك المستـديـر الأنثوي بين أصابعي، وفريستـي أيضا، ويصعد دخان حياتك من أنفي إلى رأسي، وأرتعـد منك وأنا أحس أنك أضعف المخلوقـات كحيوان الصيد الذي يمسكـونه من العنق! آه سأذهب وأنا أقـر بعجزي، وأنت بين ذراعي، مثـل شخص تكـوم جسـده، وتحت ضغـط يدي مثـل إنسان مستسلم للنـوم. أخبريني يامن لـك قوة شخص نائم، إن كنـت أنت التـي أحبها آه! إني عـاجز، وهـذا فوق طاقتي، وماكان يجب أن ألقاك، وأنت تحبينني إذا، وأنت لي، وقلبي المسكين يتخلى ويتلف.

إيزة : أنك تمسكني وتضمني بشدة إليك حتى يرتعد جسدي، ولا أحاول أن أتملـص منك، وأظل ذاهلـة كأني مصـابة بالصمم، وتلك هي التـي وجدتها شديدة الكبر والمكر! إنك لا تـدرك معنى المرأة ولا تعـرف أن من السـهل عليها ــ بصورة معجـزة وبكل الوسـائل المتاحـة لها ـ أن

تتنـازل وتتخلى، ثـم تجد نفسهـا فجـأة محتقـرة وذليلـة ومستعطفة، وثقيلة، ومخدرة، ومحرمة بين يدي عدوها، وعاجـزة عن تحريك إصبع واحـد. لست ياعزيـزي ميزا مجرد رجل، وإنما أنت لي، أنا التي هي امرأة، وأنا الرجل الذي في داخلك، وأنت المرأة معـي، أقطف قلبك دون أن تعرف كيف وآخذه، وأضمـه للأبد بين نهدي! وليس من الضروري أن أكـون قادرة على فهم حبيبـي ميزا، ولا مـن الضروري منـاداتي بكلمات يعرفهـا الآخـرون، مثـل «ياحمامتي» أحيانا (وإن يكن نـداء عذبا). و«ياحبيبتي» التي لم تقلهـا لي، وبيا «قبيحة» ويـا «غبية» ويـا «شريرة» التـي ستكـون أكثر رقـة وعـذوبـة، بل بكلمات بـالغـة السخف، مـن ذلك النوع الذي لا يثير ضجـة، بحيث لا يمكنني مطلقـا أن أفهمها، أو بـاسمي فقـط عندمـا تقـول إيزة، فـلا يكون لها مكـان إلا في فؤادي، وتغـدو ثقيلة كالطفل المجهول الذي تحمله بين أحشائنا.

ميزا : لن أعتب عليك بعد ذلك ياإيزة.

إيزة : حقا؟ أنت راض الآن؟ ياأستاذ! ألن تؤنبني قط؟

ميزا : يالي من دكتور بائس!

إيزة : هـل استفـدت مـن دروسك، يـاأستـاذي، أم لا؟ قـل ياصغيري ميزا، أليس مـن الأفضل ألا تتعالى على أحد، وإنما تكون أضعف مخلوق، مجرد رجل بين ذراعي امرأة، كشيء استقر على الأرض ولم يعـد في إمكانـه أن يسقط، مجرد رجل مسكين في نهاية الأمر بين ذراعي.

ميزا : آه، لست رجلا قويا! آه! من قال إنني رجل قوي؟ لقد كنت رجلا تضنيه الرغبة، يسعى يائسا وراء السعادة، يائسا وراء السعادة، ومهموما ومتيما، وعميقا، ومنزوعا! ومن قال إنك أنت السعادة؟ آه، لست أنت السعادة! أنت ذلك الذي حل محل السعادة! لقد ارتجفت وأنا أتعرف عليك، وتخلت روحي وانسحبت مني! وصرت كرجل يلطم وجهه، وأنا أحبك، وأقول إنني أحبك، وماعدت أقوى على التحمل، وأبغى أن أتزوجك بحب كافر وبكلمة مدانة، أنت أيها الشيء العزيز الذي ليس هوالسعادة! ما أنا إلا الشجرة أو الحيوان المقدس رمز الأنثى(*)، لم أعد أملك لسانا أستطيع به أن أدعوك امرأة، إنما أقول فحسب إنك حاضرة، مثل شخص سبقه النعاس، في اللحظة التي يخونه فيها كل شيء! هكذا كنت كصائغ الذهب تحت المصباح، تصلين مع صفير منتصف الليل الذي يجلب معه فراشة بيضاء.

إيزة : (وهي تعانقه) ليس ميزا سوى رجل يحبك.

ميزا : رجل مأخوذ.

إيزة : بل رجل ملك يميني، أمسك بك في يدي التي ألقي بها كحيوان ثقيل فوق كتفيك. وأنا، هل أنا رجل؟

(تنفجر ضاحكة)

ميزا : لا تكوني بلهاء.

---

* Femelle ربما كانت هذه إشارة لشجرة التفاح المحرمة والأفعى.

إيزة : أجب! هل أنا رجل؟

ميزا : أنت امرأة.

إيزة : ومع ذلك فلي ذراعان وساقان مثل أي رجل آخر، ويمكنني أن أرد عليك عندما تتكلم، ولكن بصورة أفضل وأجمل وأرق. لكن قل الحقيقة واصدقني : ألم تعرف امرأة أخرى أبدا؟

ميزا : إذا شئت هذه هي الحقيقة.

إيزة : الحقيقة ياميزا؟

ميزا : الحقيقة.

إيزة : أنا سعيدة. سعيدة بأن أكون كل شيء في حياتك، سعيدة أن أمتلك كل شيء. لكن ماذا، أرني عينيك اللتين لهما لون عينيّ ولا تبعدهما عني لحظة واحدة! إن رؤية عينيك تثير في الاضطراب والرغبة، وأنا، انظر إليّ أيضا، هـأنذا أمامك، وتفحص كل شيء جيدا مثل زهرية اشتريتها لتوك، زهرية تجعلها تلمع في ضوء الشمس، وتأمل الطلاء الذي يكسوها والشائبة التي تحس بالظفر، والماركة المسجلة عليها.

ميزا : أنت مضيئة ورائعة! جميلة مثل أبوللو الشاب! مستقيمة كعمود! واضحة كالشمس المشرقة! من أين ــ إلا من خيوط شمس جيدك المستدير ـ اقتبست مصباح شعرك

الـذهبي؟ أنـت نضرة مثل وردة في النـدى، مثل شجـرة السنط أو العنبر، ومثـل الزهـرة، فواحـة بالعبير! وأنـت كطير النورج، كالفجر، وكـالبحر الأخضر في الصباح، تشبهين شجـرة أكـاسيـا مـزهـــرة، وطـاووسـا في جنـة الفردوس.

إيزة : يقينا يجدر بي أن أكـون جميلة، لأقدم الهدية التـي أحملها إليك..

ميزا : هي في الحقيقة شيء لا يقدر.

إيزة : شيء مـزعـج يـاميزا، شيء جسيـم يصعـب أن تجد لـه مكانا، ولن يرضى رجل عاقل أن يدخله بيته.

ميزا : لست رجلاً عاقلاً.

إيزة : إنه الحب، يـاميزا، ولـن أدعوه شيئا طيبـا، أو مألـوفا، ويـلام الأحمق الـذي لا يعرف كيـف يستغلـه على هـواه ليستمتع بـه ويدبـر شئون بيتـه. كما تستغل النار القوية لطبخ الحسـاء وصهر الـذهب على منفـاخ الصائغ هـل تعرف ماذا تفعل ياميزا؟

ميزا : لا أعرف غيرك ياإيزة.

إيزة : أمامك إيزة في ناحية، وفي النـاحية الأخرى كـل شـــيء لا ينقصه.

ميزا : أنا أختارك ياإيزة!

إيزة : يالها من كلمة أشبه بضربة على خاصرتي! إيه يايد الحب! يـازحزحـة القلـب من مكـانـه! وياظلها يستعصـى على التعبير! تعـال إذن وكلني كما تـؤكـل ثمـرة مانجـو! كـل شيء، كل شيء، وأنا، أحق إذاً ياميـزا أنني أواجه العالم الكريـه بمفردي، وماذا يفيـد الآخرون من حبنـا؟ وإنني تخليت عـن الماضي والحاضر في وقت واحـد، فلا أسرة، ولا أطفال، ولا زوج ولا أصـدقاء. وأن العالم بـأسره من حولنا أصبح بلا مبرر ولا معنى لو خلا من وجودنا؟

ميزا : لا يوجد معنى سواك.

إيزة : أفهم، ياحبيبـي، وأحس أنني قد فهمـت، وأنني المعني بين ذراعيك وأني روحـك إيزة! وفيـم يهمنا مـا يفلعه بنـا الآخـرون، أنـت نسيـج وحدك، وأنـا نسيـج وحـدي. وأسمع صـوتك في أحشائي كصرخـة لا تحتمل، وأنهض متجهـة نحـوك بصعـوبة كشيء مهـول وكثيـف وأعمـى ومشتهي وعنيد، لكن مانرغب فيه، ليس هو الخلق، بل التدمير، آه! بحيث لا يبقى غيرك وغيري، ولا يبقى فيك سـواي، ولا فيّ إلا امتلاكـك، والسعار، والحنـان، وأن أدمرك ولا أبـالي بأرديـة الجسد الكـريهة، وعندهـا تتخلى هذه الأسنـان القاسيـة في قلبي عـن قسوتها! آه! ليسـت السعادة هـي ما أحمله إليك، بـل موتـك ومعـــه موتي، وما الضرر في أمر جلب الموت عليك، وعلى نفسي، وعلى

كل شيء، مادام الثمن هو أن نـوهب أنت وأنا لبعضنا، ونطرح، ونـنـزع، ونمزق، ونستهلك، وأشعـر بروح، في لحظة هي الخلود كله، وهي تلمس روحي، وتأخذها كما يقسر الجير الرمال على أن تحترق وتصفر؟.

ميزا : إيزة!

إيزة : هأنذا، ياميزا. لماذا تناديني؟

ميزا : لا تغتربي عنـي بعـد الآن! إننـي أقـرؤه أخيرا في عينيـك وأخـافـه، ذلـك النداء العظيـم المرعـب! وألمح خلـف عينيك اللتين تنظـران إليّ، شعلة الـروح الكبيرة السوداء التي تلتهب مـن كل ناحية مثل مـدينة التهمتها النيران. هـل تحسين الآن في صـدرك موت الحب ولهيـب القلـب المحترق؟ بين ذراعي روح مـن جنس آخـر وأنا الـزوج، وأحسـك تحتـى تشتعلين كـراهيــة، ويمـور بـأعماقـي اضطراب الخلق كـالأرض، والزبد على شفتيها، عنـدما أنتجـت ذلـك الشيء الجديـب، وفي تقلـص مخيــف أخـرجت مـادتها وجبـالها المطويـة كـأنها تفتح مخلبهـا! وهاهو قلبي مشطور نصفين، وأنـت إيزة وأرتد إليك كما يرتـد الوحـش، وأنت إيـزة! وكل شيء يتسـاوى لدي، وتحبينني، وأنا الأقوى!

إيزة : أنا حزينة ياميزا. حزينة ومفعمة، مفعمة بالحب. حزينة أنا وسعيـدة. وأشعر أننـي مهزومـة، وأنت، لا تتصـور أنني سأتـركك تذهب، أو أدع يـديك الجميلتين تفلتان

مني! وفي النهاية لم يعد هذا هو زمن الخوف، آه! كم أحس أنني امرأة بين ذراعيك، وكم أشعر بالخجل وبأنني سعيدة. وعندما أنظر إلى وجهك، أحس حينا بما يشبه لسع الخجل واللهيب، وحينا آخر بسيل من الاحتقار لكل شيء، ودوى الفرح المتأجج، لأنك لي ولأني لك، لأني حصلت على ماكنت أريد ولا أخجل منه أبدا!

ميزا : إيزة، لم يبق أحد في العالم.

إيزة : لا أحد سوانا. انظر إلى هذا المكان الكئيب.

ميزا : لاتكوني حزينة.

إيزة : انظر إلى هذه الحديقة الملعونة!

ميزا : لاتكوني حزينة ياامرأتي؟

إيزة : أنا! أنا امرأتك، لا امرأة رجل آخر؟ لا تسيء لهذه العلاقة المقدسة بيننا. لا ليس هذا زواجا يوحد كل شيء بكل شيء آخر، وإنما هي القطيعة والقسم المميت والاختيار الذي وقع عليك وحدك! إن الفتاة تدخل بيت زوجها، تتبعها عربة تجرها أربعة جياد، محملة بالملابس والأثاث للعمر كله. أما أنا فما أحمله إليك ليس شيئا هينا، إنه اسمي وشرفي. واسم هذا الرجل الذي تزوجته وفرحته، وهو الذي أقسمت أن أكون وفية له، وأطفالي المساكين، وأشياء أخرى تجل عن الوصف والتعبير. أنا المرأة المحرمة. انظر إلي ياميزا، لأنني أنا المرأة المحرمة.

ميزا : أعرف هذا.

إيزة : هل يقلل هذا من جمالي ومن الرغبة في؟

ميزا : لا يقلل منها شيئا!

إيزة : أقسم! وسأقسم أنك لي وأنني لن أتركك تذهب وأنني لك، أجل، في وجه كل شيء، ولن أكف أبدا عن حبك، أجل، حتى ولو لعنت، أجل حتى حين أكون على وشك الموت، وينصحني الناس ألا أحبك!

ميزا : لاتقولي هذه الكلمات المرعبة!

إيزة : وهذه كلمات أخرى: هذا الرجل الذي يسمى زوجي والذي أمقته، يجب ألا يبقى هنا أبدا، ويجب أن ترسله إلى مكان آخر، لا يهم أن يموت، فمن الأفضل أن يموت لكي نكون لبعضنا.

ميزا : لكن هذا لن يكون خيرا.

إيزة : هكذا؟ وهل الخير والشر إلا ما يسمح لنا بأن نحب بعضنا أو مايمنعنا عنه؟

ميزا : أعتقد أنه هو نفسه يرغب في الذهاب إلى ذلك البلد الذي حدثته عنه.

إيزة : سيطلب منك البقاء هنا، ولكن يجب ألا نسمح له بذلك، وسيكون مجبرا على أن يفعل ماتريد، كما يجب أن

ترسلـه إلى أي مكان آخر، حتى لا أراه أبـدا! وليمت إذا شـاء! من الأفضـل أن يمـوت! أنـا لم أعد أعـرف هـذا الرجل. هاهو ذا قادم.

(يدخل دوسيز)

دوسيز : صباح الخير

(يتصافح الرجلان)

إيزة : ميزا، هاهو زوجي الـذي حضر إلى هنا. في بعض أعماله التـي لا تعنيـك، وأنت يـاسيـز، هـاهو السيـد مفتـش الجمارك، انظر إليه جيـدا، إنه يتشكك فيك ويـراقبك، ولا داعي لـزيادة شكه، إنه يضـايقني، ومادمـت هنا، فـاعتن بـه. سأذهـب لـرؤية «ثـوبي العشبي»، الثـوب الأزرق والأبيـض، كما تعلـم. العنوان الـذي أعطيتـه لي ياميزا، ـ آه فات ـ يـاإلهي! ـ أردت أن أقول آه تونج ـ إلى اللقاء ياسيز.

دوسيز : إلى اللقاء.

(يريد أن يعطيها يده، ولكنها تمد له خدها ويقبلها)

إيزة : وداعا ياميزا.

(تمد له يدها)

يجب أن تأتي لرؤيتي عندما يرحل زوجي. فأنا أرملة!

(تخرج)

ميزا : كيف تسير الأمور ياسيز؟

دوسيز : بصورة مرضية. بلاد عجيبة، كل شيء يجري فيها على غير مانتصور.

ميزا : هل صحيح أنك تعرف المدعو «فات»؟

دوسيز : لا. لا أعرفه.

ميزا : أهنئك على ذلك. لن تكسب شيئا من الصينيين، وسوف تدرك هذا، قيل لي إنك سترحل، إلى أين؟

دوسيز : ربما.. غدا. لا أعرف بالضبط. سأذهب إلى مانيللا.

ميزا : حسنا، سوف أصحبك إلى السفينة.

دوسيز : لا تتعب نفسك! أرجوك! سنرحل في ساعة مبكرة.

ميزا : هل فكرت فيما قلته لك في ذلك اليوم؟

دوسيز : فكرت.

ميزا : وماذا قررت؟ إذ يجب أن أعرف.

دوسيز : حسنا، إن زوجتي هي التي تريد هذا، لا يمكنني أن أتركها بهذا الشكل، وهو ليس عملا ذكيا بالطبع، ولكنه عادي، وأعتقد أنني سأقبل الاقتراح الذي تلطفت بعرضه عليّ، سأقبل تلك الوظيفة.

ميزا : هل هذا هو رأيك النهائي؟

دوسيز : رأيي النهائي.

ميزا : إذا فسوف أهتم به، أعتقد أنك أحسنت الاختيار.

دوسيز : أرجو هذا، وإن لم يكن هو الذي حلمت به!

ميزا : أعرف هذا، فأنت شاعر، صاحب خيال! ولكنك رب أسرة، وعليك أن تحرص على ماهو إيجابي وأكيد.

دوسيز : هذا هو الذي أسمعه كل يوم.

ميزا : يلزمني الآن شخص ما للعمل بالسكة الحديد. والمطلوب أن يكون شجاعا، ذكيا، وقادرا على المبادأة، شخص من نوع أماليك، هل لديك أخبار عنه؟

دوسيز : أعتقد أنه عاد إلى مزرعته.

ميزا : إنه رجل!

دوسيز : إنه متشدق وقح.

ميزا : أنت تتمتع بصفات أخرى. فأنت مرن ورقيق. ويمكنك أن تنجح مع السكان الأصليين. لهذا فكرت فيك.

دوسيز : وماهي هذه الوظيفة التي تعرضها عليّ في الجمارك؟

ميزا : آه، لا يتعلق الأمـر هنا بالإدارة ولا بـأداء عمل محدد. إذ لا يحتـاج الأمـر إلا للحضـور بانتظـام. فـإذا مـارسـت بجانب ذلك قدراتك على استعمال إبرة طويلة أو الضرب بشـدة بـواسطة مطـرقـة قـويـة، فتخلـع لوحـا خشبيـا أوتستقطـع جزءاً، ولكنهـا مهنـة تتطلب الخبرة بنفـوس البشر، أمـا الموظف الجالـس على مكتـب فهو يفحـص خزائنـه وهو حزين، لكـن الأمر لا يتعلق بذوقـك، بل بكسب خبزك، وخبز أسرتك.

دوسيز : لست آلة! وإذا نجحت هذه المهمـة فإن حياتي تكون قد نجحت.

ميزا : إذن يجب ألا تفكر فيها.

دوسيز : دع لي فرصة أخرى للتفكير.

ميزا : لا يـاسيـز. صدقـني. فـالبلـد سيء، فيه القـراصنـة، والبـؤس، وحمى الغـابـات الحارة. لـو كنـت مكـانـك ماترددت، ولكنـي لست متزوجا. لقـد أوصتني السيدة دوسيز ألا أتـركك تـرحل. ومع ذلـك فلن يستمـر الأمر أكثر من عام أو عامين.

دوسيز : ليس لـزوجتي شـأن بهذا، وأنا أعـرف ما أفعـل. ميزا، اعتبرني من رجالك، سوف أرحل.

ميزا : أعط نفسك الوقت الكافي للتفكير.

دوسيز : لقد فكرت في كل شيء، وأنا لا أغير رأيي بسهولة.

ميزا : إذن فأنت وحدك الذي تريد هذا. سترحل ضد رغبتي، ونصيحتي.

دوسيز : مفهوم ياميزا، إني أبرىء ذمتك.

ميزا : إذاً ليكن ماتريد.

دوسيز : آه، أنت صديق!

ميزا : صديق مخلص!

دوسيز : صديق طيب مخلص!

ميزا : ولن تجد له مثيلا.

(يخرجان)

الفصل الثالث

تدور الأحداث في ميناء بجنوب الصين، أثناء إحدى حركات التمرد. منزل مشيد على الطراز «الاستعماري» القديم، في زمن «الأمراء التجار»، حجرة واسعة في الطابق الأول، محاطة بشرفات واسعة. في الخارج أشجار التين الضخمة، بفروعها التي تتدلى منها مجموعات من الجذور مشابهة لخصلات الشعر الأسود الطويل.

آثار حصار حديث العهد: أكياس من التراب، نوافذ مسدودة بالمراتب، يبدو من المنظر أن الدفاع عن النفس أصبح عديم الجدوى، إذ ثمة العديد من الفتحات في جوانب مختلفة. نشاهد في ناحية ضفتي نهر مغطى بالمراكب، وفي الخلف سورا مليئاً بالفتحات يحيط بمدينة صينية كبيرة بأبوابها ومعابدها.

في الناحية الأخرى، وفي اتجاه الغروب، توجد حقول الأرز وجبال زرقاء جميلة، من وقت لآخر نسمع دقات الصنوج، وتفجيرات الصواريخ، والأسلحة النارية، وتأتي الرياح بموسيقى مسرح بعيد ومعها صيحات الممثلين المتوحشة.

الشمس تغرب، أشعة طويلة حمراء تنفذ من خلال سور من أوراق أشجار التين وتخترق الحجرة الخاوية، وفي وسط الحجرة سرير كبير من النحاس محاط بناموسيته، وبين النافذتين تسريحة ذات مرآة متحركة، وعلى الجانب الآخر دولاب من الزجاج. ترى أشياء نسائية: مصباح أحمر بلون النبيذ، فساتين معلقة، وهنا وهناك أشياء خاصة بالرجال: حذاء ضخم، غليون، وعلى منضدة بندقية حرب مع خراطيش نحاسية متناثرة. نسمع للحظة في الحجرة المجاورة صرخات طفل سرعان ما تهدأ.

تدخل إيزة مرتدية «روب» حمام واسع من القطن الأبيض، وشعرها منسدل في جديلة طويلة على الظهر، تقف أمام المرآة وهي تنظر إلى وجهها من الأمام، والجانب، وتتأمل الأسنان وهي تباعد بين شفتيها بإصبعها الصغير، ثم تجلس وتقوم بطلاء أظافرها وهي تفكر بعمق.

وقع خطوات. يدخل أماليك. تستدير تجاهه نصف استدارة دون أن تنظر إليه، وتمد ذراعيها نحوه، يتعانقان طويلا، وعندمايحاول أن ينتزع نفسه منها تشده بعنف، يطلق صيحة.

أماليك : آه.. !

إيزة : هل آلمتك ياعزيزتي؟

أماليك : لا. لاشيء. هذه البنادق القديمة، تسبب رجة غير معقولة إلى الوراء.. لقد انخلع كتفاي. واتسخت مثل خنزير. سآخذ حماما في التو واللحظة.

إيزة : أحبك.

أماليك : وهاهي الشمس تغرب ياإيزة.

إيزة : الأمر عندي سواء.

أماليك : إنها ترحل. أترين؟ لقد انتهى كل شيء، لن يعيدوها لنا أبدا.

إيزة : كانت شمسا لطيفة. وماذا نقول عنها؟ لقد أسدت لنا خدمة طيبة، ثم إنه لا توجد شمس أخرى، من المحزن أن نودعها، وهي كالحيوان الأصفر الكبير الذي يمد رأسه فوق كتفيك، وتلاطفه على خده بهدوء. الوداع ياشمسي الجميلة! ترى هل سنموت فعلا ياأماليك؟

أماليك : إنني مضطر للرد بالإيجاب.

إيزة : أليست هناك وسيلة واحدة للهروب؟

أماليك : ولا واحدة. نحن في مصيدة. لقد نقلونا إلى هنا. إنهم يحبونني من صميم قلوبهم، وهم ليسوا أشرارا، لكن الآن بعد أن مر الرفاق من هنا، جاء دورنا، ولا مفر.

إيزة : لكنهم لن يحصلوا علينا أحياء؟

أماليك : (يغمز بعينيه) لا تخافي!

إيزة : آه! مازالت ترن في أذني الصيحات الرهيبة عندما هاجموا النادي أمس. اشتعلت النيران فجأة! وهذه السيدة التي قفزت من فوق السطوح. آه! كان شيئا رهيبا أن ترى الأجساد الصفراء وهي تتدافع مثل كعكة من الدود! حتى ليمكن القول بأن ما يجري في عرقوهم ليس دما حقيقيا. لكن ماذا قلت؟ إنه لبن النبات، مثلما شرحت لي، كما في المطاط، لبن هذه النباتات المرعبة، التي تنمو بين الأطلال!

أمالريك : إيـه يـا بيضـاء بين البيـض! شيء مضحـك، ولكنـي أحبهم! إنهم يملـؤون مركبـا كاملا، كما لـو كانـوا أعواد قمح مبعثرة. إنه ينساب إلى الداخل. لذلك لا تشعرين معهـم بأي فـراغ! إن اختيـاري كان يسير سيرا حسنـا، لكن وداعا لجوز الهند وللمطاط! يالها من فكرة تلك التي جاءت بي إلى هنا.

(يتنهد)

إيزة : لن تتركهم يأخذونني حية ـ أنصت!

(تمسك معصمه).

(ضجة في الخارج، تهدأ رويدا رويـدا، ولا يسمع سوى أصوات الصخب الصيني المستمر)

أنصت! إنهم يصيحون تا! تا! نعم تا! تا! أتسمع؟

أمالريك : لا يهم!، فهو لا يستحق أن أحك جلدي بأظافري. إنه أحد المبشريـن الذيـن يشطرونهم نصفين، أو سيـدة من البروتستانت يتلذذون بتعذيبها باتهاماتهم.

إيزة : ألن يأتوا إلى هنا؟

أمالريك : لا داعي للخوف، كما قلت. لقد استقبلونا في اليوم السابق أحسن استقبال. ثم إن الأمر فيه خـدعة، لقد جاء خادمي القديم مسـاء الأمس، ولا أدري هل هو ثعلـب أم خنزير. وغـدا، غدا سيكـون الوقـت قـد فات! فلـن يبقى أحـد! فتتت! رحلوا. طار البانج كوي تسيه في الهواء!

إيزة : هل اتخذت احتياطاتك؟

أماليك : ياله من مادة جيلاتينية رائعة! أتذكرين يوم أن انفجر لغمي، كان عملا طيبا. إن الانفجار سيقتلع البيت كما لو كان بركانا صغيرا. لا لن نموت، بل ستتلاشى في ضربة صاعقة! ويختلط الحابل بالنابل، والجسد بالروح، مع المتاجر والأثاث وكل الهزات ستصيبنا بالإغماء ومعنا الكلب، والقطط، وأنت وأنا، وابن السفاح.

(تنظر إليه نظرة مرعبة)

ياللسماء! ياله من نظرة! إنني أتسلى بإخبارك بهذه الأشياء الصغيرة فيكسو وجهك شيء أشبه بوميض طلقة المدفع التي لا نسمعها لأنها بعيدة. لا تغضبي.

إيزة : أعرف أنك تحبني.

أماليك : وأنني أحب هذا الطفل أيضا؟

إيزة : أعرف هذا..

أماليك : وكأنني أنجبته، فليس له أب غيري. لقد أخذتك وأخذته معك، أنت لي وهو لي، تلك هي نهاية القصة. وعندما عثرت عليك في الباخرة قلت لنفسي: كفى هزلا في هذه المرة! هاهي تحت أنفي مرة أخرى! «لابد أن ننهي ذلك». لم أرك بمثل هذا الجمال. فليكن! ولم يكن أمامك إلا أن تستسلمي. نعم، نعم، فرغم نظراتك

المتنمرة، أتعرفين أنني الأقوى، وهذا قدر مكتوب. لم أطلب رأيك أبدا. هذه المغرورة إيزة! بقبعاتها، ومقعدها الطويل، وضحكاتها الرنانة، وسمتها الملكي. ومع ذلك فقد أخذتها، وهاهي ذي تتبعني، خاضعة، وفية، وأنا أتقدمها كشيطان كبير. والزوج لم يعد له وجود، والأطفال مثل القطط الصغيرة الميتة. والعشيق الأخير كالفاكهة التي فرغنا من أكلها، ومسحنا فمنا، فلم يبق من طعمها سوى أثر ضئيل، والأصابع في الإناء الذي نغسل فيه أيدينا وبه قشر الليمون.

إيزة : تعلم أن هذا غير صحيح، وأنني لست بهذا السوء! إنني أحب أطفالي! وأنت تعلم أنني فكرت في الحصول عليهم وأنك قلت لي من الممكن أن أستردهم!

أماريك : ياللسماء! ويالـلأشياء التي قلتها دون أن أعلم عنها شيئا!

إيزة : وها أنا الآن معك!

أماريك : أيتها المسكينة إيزة! من المحزن أن تكوني امرأة حزينة!

(ينهض ويقبلها على خدها)

أعدي لي الشاي.

(يتجه إلى النافذة، وبينما تنشغل إيزة بتجهيز الشاي، يتطلع من الزجاج ويده فوق عينيه)

لا شيء سوى حقول الأرز المخضرة والنهر المتلألىء، وهاهو ذا الليل يحل.

(يستدير ويفاجأ بها تنتحب بجانب الغلاية ورأسها بين يديها)

ماذا جرى، ياحمامتي؟

إيزة : آه ياأماريك! كم كنت قاس! ياإلهي، ياإلهي! أيتها السماء! ماهذه القسوة!

أماريك : لا تبكي أبدا، ياطفلتي الصغيرة.

(تمسك يده وتضعها فوق جبهتها، ثم تهدأ رويدا رويدا)

(صمت)

أماريك : الماء يغلي..

(تنهض، وتضع الشاي في إبريق الشاي وتصب الماء)

أماريك : (جالسا وهو ينظر إليها)

كم كان من الممكن أن تصبحي ربة بيت طيبة!

إيزة : أليس كذلك ياعزيزي! لقد خلقت لأعيش آمنة ومصونة مثل كل النساء. أنت ترى أنني زوجة صالحة لك.

أماريك : هذا صحيح ياإيزة.

إيزة : آه، حسن أن تفكر في أننا سنموت، وأن أحدا لن يستطيع الدخول علينا، وأن كل شيء مغلق علينا! وأنه لم يعد هناك من يؤذيني ويهينني. وكل هذا الذي فعلته! أنا أم واحدة أخرى؟ خدعت زوجي، وتخليت عن أطفالي، أطفالي المساكين. تركتهم، لا أعرف حتى أين هم، وهذا البائس الذي أحببته! وأحبني أكثر من حياته، ما إن تركني حتى خنته، واستسلمت لك مع طفله الذي أحمله في أحشائي.

أماليك : لابد أن ميزا قد فوجىء. هذه هي الحقيقة.

إيزة : إنه يعرف الآن كل شيء. ياللخجل! وهذه الرسائل الأخيرة التي تلقيتها قبل أن يغلق الميناء! لست سوى امرأة مسكينة، ماذا أعرف؟ ماذا أفعل؟ الأفضل لامرأة مثلي أن تموت ولا تؤذي أحدا بعد اليوم.

أماليك : (بصوت خفيض) ألم تصنعي غير كوب واحد؟

إيزة : لم يبق سوى القليل من الشاي، وهو لا يناسب صحتي، ياعزيزي المسكين. ماعدت أشعر بجوع ولا عطش. اشرب ياصديقي! واللبن أيضا. بإمكانك أن تأخذ كل ما تبقى في العلبة. فالطفل لم يعد في حاجة إليه أما أنا فجائعة ومتعطشة للموت، حتى أختفي من الوجود ولا يحتقرني أحد.

أماليك : ولماذا يحتقرونك؟

إيزة : أنت طيب، ياأماليك. أعلم أنني لم أقترف إثما وعندما أفكر وأتأمل ما تشرحه لي، أجد أنني فعلت ماكان يجب أن أفعله، وأن الأمور لم يكن من الممكن أن تتم على وجه آخر. أما بالنسبة لميزا، فقد أسديت له خدمة عندما تركته، وكيف كان يمكنه أن يعرف مكاني؟ لكن ماذا تنتظر ياأماليك من وراء التفكير؟ هذا كثير! فالإنسان تأتي عليه لحظات يحس فيها أن الأمور زادت عن الحد، زادت عن الحد، إن هذا يكفي، إنه فوق طاقتي، وأنا الآن وحيدة تماما، مسلوبة، مسلوبة من كل ما أحبه! تعيسة أنا غاية التعاسة، عوقبت فوق ما أستحق، أتمنى الآن أن أموت، وسأكون راضية بأن أموت.

أماليك : هل وصلت الأمور إلى هذا الحد من القسوة ياإيزة؟

إيزة : لا. ليست قاسية ياقلبي! ليست قاسية ياقلبي! لا، ليست قاسية معك. ولست نادمة على شيء. إنني راضية. أجل، فالأمر سيان عندي، ومافعلته في الماضي سأفعله في المستقبل. ليس عندي الآن أطفال، وليس لي أصدقاء، أشعر بأنني مرعوبة من كل شيء، وسوف أموت، وأنا راضية بأن لم يعد لي في الوجود أحد سواك، وبأني أنا وحدي معك. قلبي، لا ياقلبي، ليس هذا قاسيا! ومع ذلك، فمن المرعب أن تكون ميتا. (تضطرب، فيمسك بيدها) أماليك، أصحيح أنه لا يوجد إله؟

أمالريك : وما الداعي له؟ لو كان موجودا لأخبرتك.

إيزة : إذن فهو غير موجود. وليس هناك ما أؤنب نفسي عليه. وكـل مافعلتـه، سـأفعله مـرة أخـرى. إنها غلطة ذلـك الرجل الـذي تزوجته. ومع ذلك تمر بـك لحظات تشعر فيها كـأن هناك أحدا ينظر إليـك ولا يرفع عينـه عنـك، ولا تستطيع الهرب منـه، ومهما حاولـت، كأن تضحـك مثلا أو تعانقني، فهو شاهـد عليك.. إنه ينظر إلينا في هـذه اللحظـة. يـاإلهي! هـل هـذا الـذي نفعلـه يليـق بجلالك؟ وهـل يحتاج الأمر مع امرأة إلى هـذا القدر من الرصانة والجد؟ برهة أخرى، صبرا، فلن يكون لنا وجود هاهنـا! نعم، يـاأمالريـك، فحالما نبـدأ في السير، تدق القـدم، كـأننا نسري في الليــل دون أن نـرى، وإن كنـا نحس بوجود جدار، في مكان مجهول على يميننا..

أمالريك : تلك هي لغة ميزا. وهذه أحلام يقظة سخيفة. وإذا كان إلهك ينظر إلينـا، فهو لا يفعل ذلـك بسبب ميـزا. لقد أنقذتك من صاحبك ميزا، لسنـا أنت وأنا مخلوقات من أحلام، بل مـن واقع. هاهي ذي الشمـس تغرب. هل يستطيـع إنسان أن يحيـا بغير الشمس؟ إنـه يكاد يكـون جزءا منها.

(صمت)

إيزة : لقد كتـب لي رسائل مخيفة! لكنـه ظلمني. أما عـن هذا الطفل الذي أنجبته منه وحملته في أحشائي، فهو لي ومن

شأني، وما شأن الرجل بهذا؟ لكنني كنت أعلم أنني أسبب له ألما فهجرته. أجل لقد ضحيت بنفسي من أجله. ولقد صحبني حيث لا أعلم بينما أردت أن أعيش! ثم قابلتك على ظهر السفينة فالتصقت بك، واعتقدت أنك الحياة، وأنك ستنقذني، وأنني سأستطيع أن أعيش معك باستقامة وشرف وإخلاص وتعقل.

أماليك : حقا إنها لحياة عجيبة، تلك التي عشتها!

إيزة : وهي طيبة أيضا. إنني راضية بها. وبضربة واحدة سأموت كل الحياة التي أعطيتها لك، سأموتها معك! أما هو، فلماذا طلب مني أن أرحل، بمجرد أن اكتشف أني أصبحت ملكا له؟ هل تحمل بقائي معه لحظة واحدة؟ اعلم أنني كنت عبئا عليه. ولقد كان من الضروري أن أرحل، وقد سألته إن كان سعيدا، فنظر إلي نظرة الواعظ المتشكك.

أماليك : وهل أحبك حقاً؟.

إيزة : كما لن تحبني أنت أبدا. وقد أحببته مثلما لم أحبك، فالواجب هو الذي يربطني بك، لأنني امرأة وفية، وأعرف ماذا فعلت. أما حالي معه فكان هو اليأس والرغبة، والأنفاس التي تعلو فجأة، ونوع من الحقد، والجسد الذي يتقلص، وقوة في صميم أحشائي كأنها قوة طفل ينتزع منها. لقد هزمتني، لكنك لا تعرف المرأة التي لم تهزم أبدا. وهذه الصحراء التي فينا، والعطش،

وشقاء الحب، وكـون الآخر حيا، واللحظة التـي نحدّق فيها في عيون بعضنا، ومعنـى أن تقتحمك روح أخرى. عـام كامـل. استمـر هذا لمدة عـام، وشعـرت أنه كـان أسيرا، لكنني لم أملكه إذ كان ثمة شيء غريب بداخله، شيء مستحيل. بـأي حق يلـومني إذاً؟ على أنـه لم يهب نفسه، وأنني ابتعدت؟ لقـد أردت أن أعيش أيضا، وأن أرى هـذه الشمس مـن جديـد، أردت أن أحيا وأجـدّد الحياة مرة بعد مرة، الحياة التي ينعم بها كل حي، وأردت أن أتحرر من حـب هو الموت! وقـد حدث هـذا وأنا على استعداد لكل شيء.

أماريك : أحبك ياإيزة.

إيزة : نعم.

(يقبلها على رأسها المحنية)

أماريك : سأخـرج الآن للقيام بجولتـي وإعداد كـل شيء. ثم إن الليل مازال متسعا أمامنا.

(يخرج).

تقوم إيـزة ببطء بعمل زينتهـا المسائيـة. تنزع الدبـابيس الفضيـة ببـطء والأمشـاط المطلية فتنطلـق كتلـة الشعـر وتنسـدل على كتفيها وعلى ظهـر المقعـد. . ضوضـاء في الخارج، لا على الدرج.

تسترق إيزة السمع وترتعش بعنف. تتوقف الخطوات خلف الباب. تظل إيزة متصلبة. ينفتح الباب. لا تدير رأسها البتة. نرى شبح رجل ينعكس على المرآة من خلال النسيج الدقيق للناموسية. تظل ساكنة لحظة.

يدخل ميزا. يمشي عدة خطوات ثم يقف على مسافة من المقعد الذي تجلس عليه. لا تأتي إيزة بأي حركة.

ميزا : (بصوت خفيض) إنه أنا ياإيزة. أنا ميزا.

(صمت)

إنه أنا.

(صمت طويل)

. . . . كل رسائلي منذ عام.

ألم تتلقي كل رسائلي منذ عام؟ لماذا لم تردي عليّ؟ لا شيء! لا كلمة واحدة، ولا سطر واحد صغير! أخبريني ماذا فعلت ياعزيزتي؟ لماذا تركتني أعاني ماعانيت؟ ماذا فعلت لك ياحبيبتي؟ لكن هذه أنت أخيرا، وهذا يكفيني! هذه أنت. أنا لا أطلب شيئا، ولا ألومك على شيء. ها أنت ياروحي، وها أنا أراك، يامحبوبتي! أنت، وهذا يكفيني. أحبك ياإيزة! صحيح أن الرغبة في رحيلك كانت رغبتي! كنت مخطئا، وقد حدست بذلك، وتأكدت أنني لن أستطيع أن أستغنى عنك، وأنك قلبي، وروحي، وخطيئة روحي، وجسد

جسدي، ولا أستطيع أن أحيا بغير إيزة، لا أصدق أبدا ماقيل لي، ويالتلك الفظائع التي أخبروني بها!

آه! كم عانيت ياإيزة! إلى هذا الحد؟ ولا كلمة واحدة منك، أيتها القاسية! لست أصدق أبدا ما أخبروني به. وهاأنا أعثر عليك، وأعرف أنك ستشرحين لي كل شيء. اغفري لي هذه الرسائل الأخيرة المخيفة، لقد كنت مجنونا! لا لا أصدق أنك تخليت عن حبك لي! لا ياإيزة، لا أصدق هذا! لا، لا، ياقلبي، لاياقلبي! تكلمي ياحبي، استديري نحوي، وقولي كلمة واحدة أسمعها وأموت من الفرح، لأنني فقدتك، وهاأنذا أجدك من جديد!

(صمت)

ماذا فعلت؟ لماذا تعاملينني هكذا؟ مازلت مصرة على الصمت، كأني غير موجود. ولو كنت في منزل الموتى لتعرفت على وحيدتي إيزة! إيزة!. ألا تسمعين رنين صوتي؟ ماذا فعلت لك ياإيزة؟ ماذا فعلت، وماذا فعلت، ياصاحبة القلب الحديدي؟ تكلمي، ما الذي تأخذينه عليّ؟ هل أستحق هذا منك؟ ماذا كان عندي ولم أعطه لك؟ أخبريني ما الذي ضننت به عليك؟ كان جسدي لك، وروحي كانت لك، كانت لك مثلما كانت لي، وقد أخذتها لتصنعي بها ماتشائين، وكأنها كانت ملكي ثم أخذتها، وكأنك كنت تعرفين كل شيء عنها. وإذا كنت قد أجبرتك على الرحيل، فأنت تعرفين أنه كان أمرا ضروريا. وقد طلبت ذلك بنفسك، إذا كان سيز غائبا، وكان علينا أن نعد كل شيء، وأن ألحق بك

بعد بضعة شهور. آه! هذه الشهور التي لم أكن أعرف فيها مكانك، مامن كلمة، كلمة واحدة منك، أيتها القاسية! لكنني الآن أخبرك أن سيز قد مات وأستطيع أن أتخذك زوجة لي. ونستطيع أن نحب بعضنا حبا بلا أسرار ولا تأنيب ضمير. ماذا؟! ألا تسمعينني؟ أهذا صحيح ياإيزة؟ هل تخليت عن حبي ياإيزة، لقد تلقيت رسالة مرعبة! لا ياإيزة، أنا لا أصدق ماجاء فيها لا. لا ياقلبي، لا أصدق هنا. لا، لا ياروحي، لا أصدقه. قولي لا، لا أليس كذلك؟ ومع ذلك فلا قيمة له، لقد نسيت كل شيء، ولا أريد أن أعرف شيئا. فأنت هنا، أنت محبوبتي، تعالى فحسب، وسأعرف كيف أستردك، ومن الذي يستطيع أن ينتزعك من قلبي؟

انهضي وسوف أنقذك، سأنقذ إيزة من الموت، ولهذا كما ترين جئت إليك.

(صمت)

ألا تصدقينني؟ أنا صيني قديم، وأعرف الأشياء السرية. ومعي شارة يحترمها الجميع. تعالي ومعك طفلك، أتسمعين؟ هل الحياة شيء هين؟ تعالي. فأنا أحمل لك الحياة.

(صمت)

تعالي وسوف أنقذك. وإذا كنت لا تريدينني فدعيني، على الأقل، أصحبك إلى أولادك.

(صمت)

إذا فهذا صحيح، إذا، إذا فهو صحيح! إذا فهو هذا الرجل، تحبينه ولا تحبينني، بل تكرهينني! تحبينه وتنامين معه. والموت، الموت معه تفضلينه على الحياة معي.

مع أنك كنت تحبينني! وقبل خمسة عشر يوما من رحيلك بالباخرة، أردت أن أقبل خدك، وكنت أنت التي ضممتني بقوة ودموعك تنهمر وأخذت فمي في فمك. خمسة عشر يوما، خمسة عشر يوما فقط!

(صمت)

أيتها الكلبة! أخبريني كيف فكرت في المرة الأولى عندما أسلمت نفسك عن عمد لهذا الكلب المتشرد، وفي أحشائك ثمرة من شخص آخر، وصحوة طفلي الأولى للحياة تختلط برجفة الأم، وتلدغها لذة الزنا المضاعفة؟ روحي التي أعطيتها لك، حياتي التي قدمتها إليك، لوثتها بالعهر والدعارة مع شخص آخر، وإذا كنت تفكرين فيه خلال تلك الأيام الثقيلة. التي كان ينضج فيها طفلي، طفلي الذي سلمته لذلك الرجل الذي طالما رقدت بين ذراعيه، وأنت مملوءة تماما بأعضاء طفلي؟

أرجوك! إنني أشعر بشيء صغير يرتعش! فلا تجعليني أرتكب جريمة كبرى! أنت لا تدركين كم نقترب في هذه اللحظة من اللعنة، ولا كيف يمكن أن يوقعنا فيها تصرف بسيط.

(صمت طويل. يقرب المصباح منها ويدقق النظر فيها)

هي نفسها. تكلمي ياإيزة، لقد تـوارت شمس الظهيرة المكتملة. هل تـذكرين المحيط الذي كـان ملكنا؟ لكن مصباح القبر يلـون خدك وأذنك وصدغـك، وينعكس في عينيك، عينيك المحدقتين في المرآة.

(يمسك شعرها بين يديه).

آه! وهـو نفس الشعـر وأعـرف رائحتـه. عندمـا كنـت أغوص فيك حتى أنفي كما أغـوص في ثقب عميق. هو نفـس الشعــر، وان تخللـت ذهبـه الآن عــروق فضيـة سميكة.

(ينفخ المصباح)

انطفأ المصباح الصغير. وانطفأت في نفس الوقت شمس حبنـا الأخيرة، شمس الظهيرة الهائلـة في أغسطس التـي تبادلنا فيها الوداع في الضـوء الوحشي الناطح، وراح كل منا يلوح للآخر في يأس عبر المدى البعيد البعيد، الوداع ياإيـزة! أنت لم تعـرفيني أبـدا! وهذا الكنـز الكبير الذي أحملـه في نفسي، لم تستطيعـي أن تقتلعيــه مـن جـذوره وتـأخذيـه، ولا أنـا عرفـت كيـف أعطيـه. لم يكن هـو خطئي، لا بل كان خطأنا المشترك وعقابنا، كان عليّ أن أعطي كل شيء، وهذا هو ذنبي الذي لم تغفريه..

مع ذلك لم أحبك لكي أتسلى بـالضحك عليك! فليتك

عرفـت ياإيـزة كيف حملتك في قلبـي وحرصـت عليك، قلبي الذي شعرت فيه ياحبيبتي بالأمان. آه ياحياتي! لو كنت هناك لـدافعت عنك وما استطاع أحـد أن ينتزعك من قلبي! لابد أيضا من تحـمل هـذا العـذاب! إنها لا تجيب أبدا! إنها هنـا، ياإلهي، إنها أمامي! هـي هنا، وليست هنـا. هي نفسها، وليست هـي على الإطلاق. كـم من ليلـة رأيتك فيهـا تتقـدمين نحوي بهذه الخطـوة الواثقـة الخفيفة، وبـابتسامـة مفعمة بـالأسرار تقولين: «يالها مـن معجزة كبيرة، يـاميزا، أبشرك بـأن طفلنا قـد ولد» وبكيـت، وضحكت، وقلـت لنفسي: هي أنـت! «لماذا لم تكتبـي لي، أيتها القـاسية!» لكنـك كنت كمـن يعرف ويلوذ بالصمت! لم تجيبـي إلا بابتسامة، ورحت أنظر إليـك وأنت ياحبيبتـي تضحكين! وهاهو الـرعب الآن!

(صمت)

لكن ليس هـذا من حقك! ليس هذا من حقـك! فأنت لسـت وحـدك! وليـس صحيحا أنـك نسيتنـي! ليـس صحيحا أنـك تخليت عن حبـي. آه ياحبيبتي الغـالية، ليس صحيحا أنك تكرهينني! وما من وسيلة ياإيزة! هل يمكنني أن أسترد ما أعطيتـك؟ ألا تحملينني أينما كنت! وهل مـن حقك ألا تكوني لي؟ أي شيء فيـك لم تمنحيني إيـاه، ولم أحصل عليـه، وآكلـه وأتنفسه؟ ولم يطعمنـي النـار واليأس والـدمـوع؟ أجيبـي! انظري كـم أعـاني! وأديـري وجهك نحـوي، ياجمالي، وقـولي إن هذا ليـس صحيحا!

(صمت)

ماذا فعلت ياإيزة بطفلنا؟

(صمت)

هل مات؟

(صمت)

إيزة! أنت لم تتركيه يموت. أعطني طفلي لأنقذه.

(صمت)

هل مات؟ هل قتلته؟

(صمت)

إذا كنا هنا فسأعرف كيف أعثر عليه.

(يتحرك ناحية الباب. صوت خطوات أماريك في الخارج. يدخل)

أماريك : من هنا؟

ميزا : إنه هنا.

(يتقدم أماريك، يشعل عود ثقاب وينظر الرجلان كل منهما إلى الآخر وجها لوجه بينما يحترق عود الثقاب، ثم ينطفيء)

أماريك : ميزا، لست سعيدا بالمرة لرؤيتك ثانية.

ميزا : لقد جئت لآخذ هذه المرأة التي هي لي، وهذا الطفل الذي هو طفلي.

أماريك : لن أعيد لك لا هذا ولا تلك.

ميزا : سآخذهما رغم أنفك.

أماريك : (بابتسامة جافة) ورغما عنها؟ مارأيك ياإيزة؟ ماقولك ياإيزة؟

(ميزا يرتجف)

قولي، ماذا تختارين؟ إما الذهاب مع هذا والحياة معه أنت والطفل، وفي هذه الحالة مدي يدك.

(صمت)

وإما الموت معي؟

(صمت، بينما تحتفظ إيزة بجمودها)

ميزا : (صارخا) هذا كثير!

(يجذب سلاحا من جيبه. يقفز أماريك عليه وينتزعه منه. صراع رهيب في الظلام. يسقط ميزا محطما فوق الأرض. أما إيزة التي ترى كل شيء في المرآة فلم تتحرك).

إيزة : (بصوت غريب دون أن تغير وضعها) قاتل!

(يشعل أماريك المصباح وينحني على جسد ميزا ويفحصه)

أمالريك : هذا هو الذي توقعته. لقد فصلت كتفه الأيمن، أما هو فأعتقد أنه قد كسر ساقه. هذا الأرعن.

(ينهض على قدميه. إيزة تبتسم في المرآة. يتجه إليها ويقبلها على خدها).

إيزة : أماليريك، هذا مخيف. لا تتركه هكذا على الأرض.

(يرفع أماليريك الجسد ويضعه على الأريكة).

أماليريك : كيف أتى إلى هنا؟

إيزة : قال إنه يحمل معه تصريح مرور.

(أماليريك يفتشه ويسحب من ملابسه لوحة صغيرة مغطاة بوجوه وأشكال غريبة يعرضها على إيزة).

أماليريك : لقد نجونا، ياإيزة.

إيزة : نجونا.

أماليريك : كم تقولينها بلا فرح؟

(ينظر إليها. صمت)

إيزة : زوجي أيضا قد مات. نستطيع أن نتزوج ياأماليريك.

أماليريك : لن نقدر على شيء أفضل من هذا. هذه ليلة رائعة. يالنا من زوجين نموذجيين!

إيزة : (تشير إلى الجسد في المرآة) ألا توجد طريقة لحمله معنا!

أماليك : (بقسوة) مستحيل.

إيزة : لا يمكن أن نتركه للصينيين.

أماليك : سيقفز على مكاننا، لقد دارت الآلة الصغيرة، وليس أمامنا إلا أن ندعها تسير.

(صمت)

إيزة : (بنفس الصوت الغريب) إذن فتش الجيوب مرة أخرى، فلا فائدة في أن نترك شيئا للموتى.

أماليك : إيزة، هذا شيء مقزز.

إيزة : لماذا؟ هيا افعل؟

(يفتش الجيوب ويسحب مظروفا مغلقا بالشمع).

أماليك : (وهو يقرأ) هذه هي وصيتي.

(يضحك ويضع الورقة في جيبه).

إيزة : لنرحل.

أماليك : جهزي نفسك. لقد رأيت الباخرة عند وصولها. سأعطي إشارة لخادمي. وسيكون كل شيء على مايرام. خذي الطفل.

(تذهب إيزة إلى الحجرة المجاورة دون أن تنظر إلى ميزا، يمضي وقت طويل، تأتي إيزة بمفردها).

أماريك : حسنا، لماذا لم تحضري الطفل؟

إيزة : لقد مات.

(صمت)

أماريك : لنرحل

(ينفخ في المصباح. يخرجان في ضوء القمر دون أن ينظرا إلى ميزا. نسمع ضحكة هيستيرية على الدرج. ظلام كامل. نرى من خلال الفتحات كل نجوم السماء تلمع، ويغمر القمر أنحاء الغرفة بأشعته. يستيقظ ميزا ويظل طويلا في حالة صمت وتأمل).

ترتيلة ميزا

هاأنذا داخل غرفة موتى!

ومن كل الجهات، يمينا ويسارا، أرى غابة من الشموع تحيط بي! ليست هذه شموعا مضاءة، بل نجوم متلألئة، كأنها عذارى هائلة ساطعة النور. أمام وجه الله، على نحو ما نرى مريم في الصور المقدسة تنحني في خشوع!

وأنا الإنسان العاقل راقد على الأرض، متأهب للموت، كأني على تابوت مهيب، في أقصى أعماق العالم وفي قلب فقاعة الكواكب وحشود المتعبدين، أشاهد المجمع المقدس لليل برعاته الروحانيين وبطارقته، فوقي القطب وعلى جانبي الحواف، وخط استواء الحيوانات المتجمهرة في الفضاء الشاسع.

هذا الـذي نسميه الطـريق اللبنـي الشبيه بحـزام منيع!
سـلام ياأخـواتي، مامـن واحـدة منكن أيتهـا الباهـرات الضوء، يمكنها أن تحتمل الروح، لكن الأرض وحدها، في مركز كل شيء، قد خلقـت إنسانها، أنتن مثل مليون حمل أبيـض تدرن رؤوسكـن نحوهـا، وهـي التي تبـدو كالراعي أو كمسيح الأكوان!

سلام أيتها الكواكب! هاأنذا وحدي! مامن كاهن تحوطه جماعته التقية سيحمل لي البركة الأخيرة.

بيد أني أرى أبواب السماء تتحطـم، ويتقدم منها جيش جميـع القـديسين، حاملين الشمعـدانـات في أيـديهم، يتقدمون للقائي، وهم يحيطون بالحمل المخيف!

لم هذا؟ لم هذه المرأة؟ لم صعدت فجأة على الباخرة؟ ماذا جـاءت تفعـل معنا؟ هـل كنـا في حـاجة إليهـا؟ أنـت وحدك! أنـت وحدك كنـت بداخلي مـع ابتداء الحيـاة، كنت بـداخلي الانتصار، والزيارة المقـدسة(*) والعــدد والدهشة والقدرة والمعجزة والصوت!

وهذه الأخـرى، هل كنـا نؤمـن بها؟ وبأن السعـادة بين ذراعيها ويوم تصورت أن أكـون لك وأن أعطيك نفسي، كان عطـائي يائسـا فقيرا، لكنني فعلـت مافي وسعـي، وهبتك نفسي، فلم تقبلني، والأخرى هي التي أخذتنا. وأرجـع إليـك لحظـة قصيرة فيصيبنـي الفـزع، ويتسرب

* إشارة لزيارة مريم العذراء للقديسة اليصابات

الخوف في عظامي! وتأخـذ في سؤالي، وأسألك أنا أيضا! أو لست بإنسان؟ فلماذا تقوم معي بدور الرب؟

لا، لا ياإلهي! أنـا لا أسألـك شيئا! أنـت حاضر وهـذا يكفي وحين تسكت يـاربي، تسمعك مخلوقاتـك. ومن ذاق صمتك، لا يحتـاج إلى شرح وتفسير. لأني أحببتك كما يحب المرء الـذهـب جميـل المنظـر أو كما يحب ثمـرة الفاكهة، فيرغمه الحب على إلقاء نفسه عليها!

إن المجد يرفض السموات، والحب يرفض القرابين المبللة باالـدموع. ربي إننـي أنز غـرورا وكبرياء. لاشـك أنني لم أحبـك كما ينبغي، وإنما أحببتـك لأستـزيـد من علمـي وأضاعـف من لـذتي، ووجدت نفسي أقـف أمامـك كما يقف إنسان يكتشف أنه وحيد. وهكذا تعرفت مرة أخرى على عدمي، واستعدت طعم المادة التي خلقت منها.

تماديــت في الخطيئـة، فنجّنــي الآن يـاربي، لأن هــذا يكفيني! هاأنت ياذا الجلال، وهاأنذا من جديد.

أنـت ربي وأعـرف أنـك تعلــم كـل شيء. أقبّـل يـدك الأبوية، وأضع نفسي بين يديك مثل شيء مسكين يدمى ويسحق مثل إناء تحت الرحي. ولأنني كنت أنانيا فأنت تعاقبني. بالحب المرعب لأحد سواك.

آه! أعرف الآن مـاهو الحب، وأعـرف ماقـد تحملته على صليبك وفي قلبـك إذا كنت قد أحببـت كل واحـد فينا ذلك الحب المخيف كما أحببت تلك المرأة، وقاسيت منه الحشرجة والاختنـاق والضيق! لكننـي أحببتها، يـاربي،

وهي التي فعلت بي ذلك! أحببتها، ولا أخاف أن أقولها لك، فلاشيء يسمو على الحب.

وقد رأيت يـاربي كيف تملكتني، وكم شـدني الظمأ إليها واصطكاك الأسنان، والجفاف، والـرعب، والاعتصار! هـي التي فعلـت بي هـذا! آه! وأنت بهذا أدرى، أنـت ياربي تعلم بنفسك ماهـو الحب الذي تطعنه الخيانة! إن جريمتي كبيرة، وحبي أكبر منهـا، والموت وحده ياأبي، الموت الـذي قسمته لي، هـو جزاء الاثنين! فلنمـت إذن ونخرج من هـذا الجسد البائس! لنخرج ياروحـي وندمر بضربة واحـدة هذا الهيكل الكـريه! الذي يبـدو وهو في ملابسه هذه منهكا وكأنه قطعة لحم معلقة، أو تمرة ملقاة على الأرض بعد قضمها.

أهذا هو أنا؟ إن هذا المحطم من كيد المرأة، فلتحتفظ به لنفسها، أما أنـا فسأذهب في اتجاه آخر. مـن قبل دمرت لي العالم فلم يتبق لي شيء لم تتمثل فيه، وهي الآن تدمرني أنا نفسي. إنها تختصر لي الطريق.

لتكن شـاهدا على أنني لسـت راضيا على نفسي! فـأنت تعلم أن هذا الرضا شيء فوق طاقتي وأنني لا أستطيع أن أستغني عن الحب، في هـذه اللحظة لا في الغد، الحب الدائم للأبد.

إذ لا غنى لي عن الحياة نفسها، والمنبع ذاته، والاختلاف بعينه، فليـس في وسعي بعد اليوم أن أكـون أصمًّا وميتا! إنك تعلـم حق العلم أننـي لا أصلح هنـا لشيء. وأنني

أضـايـق كـل الناس، وأني أصبحـت فضيحـة في نظـر الجميع وعلامة استفهام ولهذا خـذني ياأبتاه، وخبئني في أحضانك!

(ضـوضـاء خفيفـة ناعمـة في الخارج، يفتـح البـاب في هدوء، تدخل إيزة في ثياب بيضـاء وكأنها في حالة تنويم مغنـاطيسي. تتحـرك في أرجـاء الغـرفـة، لا كما تتحـرك الآلة، بل كـالسحاب. تمر أمام المرآة، نراهـا من خلال الناموسية وتدخل الحجرة التي يوجد فيها الطفل الميت، تاركة الباب نصف مفتوح، ونسمعها تبكي بحرقة).

ميزا : (مناديا بصوت خفيض) إيزة، إيزة!

(تعـود للظهـور وتتجـول بدون أي ضـوضـاء في أركـان الغـرفة، تفتـح كـل الأدراج، وتدخـل يـدها فيهـا، في الكومـدينو، والتسريحة. تفتـح الدواليـب والصيدليـة، والدولاب الزجاجي تمرر أصابعهـا فوق الرفوف الفارغة، تشب على قـدميها كأنها تـريد أن ترى شيئـا. ثم تخرج، ونراها في الدور التحتي في غرفة المكتب، وغرفة الطعام، وفي كل مكـان، مثل شخص يفتش ويبحـث، أو مثل ربة بيت مهجور. يسود الصمـت. وفجأة نسمع صرخة منغمة وحادة لامرأة مرعوبة).

ميزا : (ينادي بقوة) إيزة، إيزة، تعالي! تعالي!.

(صمت)

(ثم نراها فجأة، شاحبة تماما بشعرها الطويل المتناثر في الشرفة التي يغمرها ضوء القمر).

ميزا : (مفكرا) هكذا كما رأيت قديما، على سطح الباخرة!

(تجيء وتجلس القرفصاء، تضع ذراعها العاري على ركبتيه. يضع يده ببطء فوق رأسها).

إيزة : ميزا، أنا إيزة. إنها أنا.

ميزا : أنت نفسها؟

كم رأيتك في الحلم! أهو حلم آخر. وهل ستنتهين مثله من جديد؟

إيزة : ليس حلما ياميزا، لقد انتهت الأحلام. لم يبق إلا الحقيقة.

ميزا : إيزة، إيزة ياذات الشعر الطويل، هل هذا صحيح؟

إيزة : كل شيء صار حقيقة.

ميزا : تكلمي، هل تسمعينني الآن؟ هل تشعرين بأنفاسي الحية في صميم أحشائك؟ هل تذعنين لكلمتي إذعان المخلوق لمبدعه؟ آه، كوني حياتي ياإيزة. كوني روحي، وحياتي، وقلبي، وكوني بين ذراعي انتفاضة الوليد ساعة يولد! آه ياإيزة، هذه قسوة فظيعة، يجب ألا تبعديني عنك، لأني أنا الموجود في قلبك.

إيزة : دع يدك على رأسي، وعندئذ أرى كل شيء، وأفهم كل شيء. أنت لا تدرك من أنا، لكنني أرى الآن بوضوح من تكون، وما تعتقد أن تكون. مفعم أنت بالمجد والنور، مخلوق الرب! وأرى أنك تحبني وأنت قد فهمتني، وأنا معك في سكينة لا توصف.

ميزا : هل انتهى كل شيء، ياإيزة؟

إيزة : انتهى كل شيء.

ميزا : ألا يوجد شيء نخاف منه؟

إيزة : لاشيء.

ميزا : ولا شيء، لا شيء ننتظره؟

إيزة : لاشيء سوى الحب الأبدي، لاشيء سوى الخلود معك!

ميزا : إذن فلن أستطيع الاستغناء عن إيزة هذه؟ ولن أستطيع الفكاك من يدي المرأة هاتين على خاصرتي؟

إيزة : لن تستطيع هذا. وحيثما تكون، أكون معك.

ميزا : لماذا تركتني إذن؟

(صمت)

لماذا تلوذين بالصمت كما في الأحلام؟ أخمن أنك تبتسمين بمرارة، وتخفين وجهك عني. هذا شيء لا يحدث في الحلم!

إيزة : أنا التي أنام في هذه المرة.

ميزا : آه، لا تستيقظي أبدا!

إيزة : هاأنذا متجردة كالزيت النقي.

ميزا : لماذا تصرين على عدم الرد عليّ؟

إيزة : أأنا قبيحة إلى هذا الحد؟ لماذا نبذتني في يأس؟

ميزا : لأني أحببتك فوق طاقتي ياحياتي؟

إيزة : لن يقدر أحد أن يبعدني عنك.

ميزا : وهذه هي الفرحة الكبرى التي تبشرينني بها؟

إيزة : واسني لأن قلبي حزين.

ميزا : أي حزن يحق لك، أيتها المتمردة، وأي فرح، ليس هو حزني وفرحي؟

إيزة : لست أنا الفرحة، بل الألم والحزن. هاهي الفريسة المثلى تحت رجليك، أيها المحطم الكسير! أليست شديدة الثقل عليك؟ آه يانوري الباهر، ويارجلي المهاب! إنك تراني تحت رجليك مشتاقة عمياء!

ميزا : أخيرا هزمتك! هاهي الفريسة كلها تستند على قلبي؟ وما من عضو فيها إلا ويستسلم للعضو الأقوى، ولإرادة العصفور الصاعد والنسر العمودي! أشعر بالثقل الذي

يرضخ للجناح، فأحمل هـذا الجسد الثقيل، هذا الجسد الذي هو أمي وأختي وزوجـي وأصلي! هاهو باختصار، انتصار الرجل على المرأة وغلبة الأنانية والغيرة. هل قلت الفرحـة؟ لكن هاهـي الفرحـة التي تسمو على الفـرحة، كالنـار التي تتحول إلى شعلـة، والرغبة التـي تتحول إلى العـدالـة، والحب الـذي يتحول إلى الـرضـى والقبـول. وزواجنا الذي يكتمل في داخلنا، يفعـل فينا فعل النجم ويشبه الكائن الذي يعيش بقلب مزدوج.

إيزة : دعني أقل لـك أيضا، ماأريد أن أقولـه، ضع يدك على جبهتي كي أتذكر. آه كم أحس أنني أتخبط في ليل طويل وفي ألم وعـذاب! لكننـي ممـددة بكـل ثقلي في حنـايـا جسدك، ولـن يمكنك الفرار منـي. دعني أحكـي كل شيء. دعني أحدثك بمرارة.

ميزا : ها أنت تحت يدي، أيتها الرأس الذهبية!

إيزة : ميزا، أخبرك أن طفلنا قد مات.

(تنتحب بصوت مكتوم)

ميزا : هذا أفضل.

إيزة : أنت لم تره أبدا، ياميزا.

ميزا : سوف أراه حالا وسيتعرّف عليّ.

إيزة : يا للمرارة التي لا حد لها! آه ياابن عاري! ياطفلي الأعز الحبيب، ياابن أحشائي، اغفر لأمك البائسة! هل تتذكر ياميزا، كيف عثرت على ملابس الطفل البسيطة هذه، قبل أن أعرف أنني حامل: الجوارب، وغطاء الرأس، وقميص النوم الصغير المشغول بالتريكو، وكيف ضحكت، وبكيت، ووضعتها أمام وجهي، ورحت تسخر مني، وتقول إنني كالبقرة الطيبة التي نقدم لها جلد عجل تلعقه بتلذذ لكي يسهل علينا جرها وراءنا. آه ياميزا، طفل، إنك لا تعرف معنى الطفل. فلا تشعر المرأة بأنها امرأة إلا مع طفلها.

ميزا : اسكتي ياإيزة!

إيزة : آه ياميزا، امنعني من أن أصحو من نومي، فلا أريد هذا! امنعني أن أرجع إيزة القديمة المغرورة، مدام سيز الحسناء...

ميزا : لم تعد هي إيزة القديمة، إنها حبيبتي إيزة التي ستظل معي إلى الأبد.

إيزة : وإيزة القديمة، ألم تحبها قط؟

ميزا : تعرفين الحقيقة أنت أيها اللحم الذي أحسه تحت يدي!

(صمت)

إيزة : لقد تركته. في اللحظة التي تحركت فيها السفينة

الشراعية. كان يظن أنني نائمة في حجرتي.

ميزا : آه كم خنتني!

إيزة : اسكت ياميزا!

ميزا : لماذا تمسكين يدي بهذا التشنج؟

إيزة : آه!

ميزا : ماذا جرى؟ تعب في القلب؟!

إيزة : لا تتركني أبدا، ياميزا! آه ياإلهي أيمكن أن أكون قد نجوت؟ إنني أراه! أرى كل شيء! لقد ارتكبت أشياء مخيفة!

ميزا : ماذا ترين؟

إيزة : كوخ بائس من القش، رجل ميت ذو وجه مخيف، تعلوه خصلة هائلة من الشعر الأسود الكثيف، قضت عليه الكوليرا، مدثر بغطاء مقزز، ولا يبدو عليه الشحوب الذي كنت أكرهه! وبغير انقطاع تتساقط من السقف قطرة ماء فوق حدقة العين المفتوحة، وفي الخارج أمطار لم أر مثيلاً لها من قبل، طوفان، غابة مظلمة إظلام ورقة اللوف السام(*)، وكل خيط من خيوط المطر أشد غلظة من ماسورة الغليون.

ميزا : ماذا ترين أيضا؟

* أو الأروم (Arum) وهو نبات درناته سامة.

إيزة : يالللألم، وياللحزن الممض!

ميزا : ماذا ترين؟

إيزة : آه ياطفليّ! أي أم كنتها لكما! انظر وأنا أرفع عيني، مثلما كانا ينظران عندما كنت أقرأ لهما بصوت عال، وأرى الأم الغالية بعيونهما الواثقة الهادئة! وأحس أنني خدعتهما وتركتهما وقتلتهما! وأحيانا عندما أستيقظ من نومي في الليل، كنت أسمع أنفاسهما متفاوتة الإيقاع، وأسمع قلبيهما ينبضان، وأشعر أنهما طفلاي الحبيبان! تعلم أن جمالهما لم يكن يفوقه جمال، وأنهما لم يسببا لي ألما بالمرة، كان الناس ينظرون إلينا عندما نخرج إلى الطريق، أنا الأم الشابة المنتصرة بين أطفالي، وهما يسيران إلى جانبي، وكل منهما يشد قامته وقبضته كالجندي الصغير. أنا لا أفهم شيئا، لست سوى امرأة تعسة الحظ. كيف حدث كل هذا؟

ميزا : إنه الحب الذي فعل كل شيء. وأي غرابة في هذا؟ هل كف عن أن يكون الشيء الوحيد الطيب الصادق العادل الذي له معنى في حياتنا؟ هل فقدت الكلمات معانيها؟ ألم نعد نصف بالخير مايعيننا على الحب، وبالشر مايضاده ويعارضه؟ تكلمي، إننا نسميه «انتصار الطبيعة والحياة» والموت نفسه لا يقدر على فصم الروابط التي يعقدها. أي شيء لا يهون في سبيل هذا الاتحاد الذي يبلغ الغاية في العدل والنقاء والصفاء؟ نحن يقينا

لم نرحم غيرنا، لكن هل رحمنا أنفسنا؟ هاأنذا بأوصالي المحطمة، أشبه بمجرم على عجلة التعذيب. وأنت بروحك الناقمة المستاءة خارجة من جسدك أشبه بالسيف المستل إلى نصفه!

إيزة : لا تسخر بكل هذه الفظاعة!.

ميزا : وهو السنن الهادي النزيه.

ميزا : الأفضل وحده هو الأفضل، ياإيزة، وهو السنن الهادي النزيه، لكن الشر نفسه ينطوي على الخير الذي لا ينبغي أن نضيعه من بين أيدينا. نحن لا نملك أن نرد الموتى للحياة، لكن حياتنا لاتزال ملكنا. ولهذا نستطيع أن نوجه وجوهنا بشرف وأمانة للمنتقم الأعظم قائلين: «هانحن أولاء، أتراهن سبحانك على مانملك؟». هذا شيء نستطيعه. ومادمت الآن حرة، ومادامت باقية فينا، نحن الذين نقترب من الدمار، تلك القوة الصامدة لكل الأسرار المقدسة، متوحدة في سر واحد كبير هو سر الموافقة المتبادلة(*)، فإنني أوافق عليك ياإيزة، ولتشهد ياإلهي، لأن هذا هو جسدي! إنني أوافق عليك! وفي هذه الكلمة الوحيدة يؤخذ العهد، وفي معانقة الندم يستقر القانون، وفي المصادقة السامية توضع الأسس الأبدية لنظامنا(**).

---

* أي موافقة المرأة والرجل على الزواج والارتباط بالرباط المقدس.
** أي مصادقة الكنيسة على عماد الطفل.

إيزة : أوافق عليك ياميزا.

ميزا : كل شيء قد رتّب ياروحي.

إيزة : إذن لا تخش شيئا.

ميزا : أنا لا أخشى شيئا ياإيزة.

إيزة : حتى في الماضي، ياصغيري ميزا، لم تستطع أن تخفي عني ما تفكر فيه وكنت أرى كل شيء في عينيك. أما الآن فالأمر معك. مثلما نشم رائحة بالأنف، ومثلما نلمس بأصابعنا، (لكن ليتك عرفت أن هذا شيء غريب، ماذا أقول؟ وساذج وبديع ومقدس ومباشر وفريد)، كذلك، ياميزا، أرى روحك من خلال روحي نفسها، وأرى كل الأفكار التي تدورُ فيها، وبنبض حياتي ذاتها، أدرك تلك الحركة التي تحيا بفضلها.

ميزا : وهل ترين أنني خائف من مواجهة الموت؟

إيزة : لا تخجل أبدا، ياميزا الصغير! فأكثر الناس حياة هو أكثرهم خوفا من أن يتوقف عن الحياة! آه! يالقسوة الرجال وانغلاقهم، ويالشدة خوفهم من المعاناة والموت! أما الأنثى، زوجة كانت أو أما للرجل، فهي لا تدهش أبدا، لأنها تعودت على الأيدي العنيدة التي تأخذ وحسب. أرأيت؟ إنه أنا التي تواسيك وتطمئنك.

ميزا : أنت نائمة وعيوني مفتوحة.

إيزة : ليكن هذا. فأنا أرى قلبك ياميزا، وأشعر بأنني راضية. وهاهو ذا الماضي كله بخيره وكل شره، وبينهما الندم كأنه الأسمنت، لا يعدو أن يكون قاعدة وبداية وجسدا واحداً مندمجا فيما هو كائن وماهو حاضر إلى الأبد. كنت غيورة ياميزا، وكنت أراك عبوسا وأعرف أنك تواري عني جزءا من نفسك. لكنني الآن أرى كل شيء، كما أرى بأكملي، وليس بيننا سوى الحب، وأرانا نقيين عريانين، يستمد كل منا حياته من الآخر، ويتغلغل كل منا في الآخر تغلغلا لا يمكن التعبير عنه، في لذة التواصل بين الزوج وزوجه، وكأن الرجل والمرأة حيوانان روحيان كبيران، وحياتهما هي حياة الخفقان المتجاوب فينا لعين الروح، ولقلب القلب الكامن تحت القلب النابض في صدرينا، الذي ينتج اللحم والفكر والشعر والأذرع التي تضم وتحتضن، والرؤية والمعنى، والفم الذي قبل الفم في الماضي! لا تهزأ مني ياميزا!

ميزا : أسمعك تضحكين خفية!

إيزة : آه ياميزا، ليتك تعرف كم يخيف المرأة، أن تنظر إلى نفسها في المرآة وتلاحظ أنها تشيخ، وتلمح هذه النقاط الحمراء الصغيرة المخيفة، وتلمس جسدها بالأصابع، وتشعر بأنها لم تعد هي نفسها، وبأن هذا الجسد قد كان فيما مضى لفتاة وردية وناصعة كسيف الغراب(*) وبأن وجهها قد سمن وجف كالحجر! وياللعروس التي تمنح فمها الذي

* نوع من أنواع الجلاد يولا.

يستنشق الياسمنت(*) ويتذوق الفطر الطازج! لكنني الآن لن أشيخ أبدا! أنا الآن شابة إلى الأبد!

ميزا : أنت التي تعلمينني وأنا أستمع إليك. أخبريني ياامرأة، ياثمرة الكرم كم سيمضي من الوقت قبل أن أرتشفك من جديد في مملكة الرب؟

إيزة : لست أرى هذا ولا أفهمه ياميزا. فكما ينتج كل منا رؤيته وإدراكه، فهو كذلك بحياته الخاصة يشد الإعجاب بالشيء الوحيد الذي هو وقته الخاص. عليك ألا تحاول أن تفهمني.

ميزا : ماذا ترين أيضا وماذا تسمعين؟

إيزة : قلبك وحده.

ميزا : ثم ماذا؟

إيزة : ألا نخاف أبدا. فهذا زماننا ينبض والزمن القديم يكتمل، والآلة التي تحت المنزل لم يبق عليها سوى دقائق قليلة، هي الوقت الذي يستغرقه الانفجار. الذي سيجعل بيت اللحم هذا يتناثر في الهواء. لا تخش شيئا.

ميزا : إن اللحم الكريه يرتعد، أما الروح فيصعب إخمادها. وهكذا تصحو الشمعة الوحيدة في الليل المظلم، ولن تقدر الظلمات المتراكمة على قهر النار الضئيلة. تشجعي

---

* من فصيلة الزنابق (وهو الياسمنت).

ياروحي! ماذا كنت أصلح له في هذه الدنيا؟ أنا لم أعرف قط، ونحن لا نعرف ياإيزة كيف نهب أنفسنا بشكل جزئي. فلنهب أنفسنا إذن مرة واحدة! وهاأنذا أشعر في نفسي، بأن كل القوى القديمة في كياني تنتفض من أجل نظام جديد. ومن وراء القبر أسمع صوت البوق في يوم الحشر الأخير، ووضع ميزان الحساب في الخلاء الشاسع، وفي الجانب الآخر أسمع صوت النفير، وتنشر أحداث حياتي مرة واحدة أمام عيني. مثل الأنغام الخافتة التي تنبعث من مزمار كبير.

(تنهض إيزة وتظل واقفة أمامه مغمضة العينين، تبدو بيضاء تماما تحت أشعة القمر، وهم تضم ذراعيها المتقاطعتين، وتهب ريح عنيفة تطيّر شعرها).

إيزة : انظر الآن إلى وجهي فمازال هناك بعض الوقت، وتطلّع إليّ واقفة وممدودة مثل شجرة زيتون كبيرة في شعاع القمر الأرضي وضوء الليل، وتمثل صورة هذا الوجه القاني لأن وقت تحللنا يقترب ولن تراني أبدا بعين الجسد هذه! وأنا أسمعك ولا أسمعك على الإطلاق! لأني صرت بلا أذنين! لا تصمت أبدا يامحبوبي، فأنت حاضر هنا أمامي! امنحني موافقتك فحسب، وسوف يتفجر الصوت الذهبي ويبدأ في التدفق حتى أذنيك ليغني أغنية نقية بصوت حقيقي، إنه صوت إيزة حبيبتك الأبدية، أفضل من رنين النحاس ومن منظر الشهادة (التي تثبت النجاح). لقد كنت تحتك اللحم الذي

ينثنى، وكنت الحصان بين ركبتيك، مثل حيوان طائش أرعن، مثل حصان يذهب حيثما أدرت رأسه، ويذهب أسرع وأبعد مما تريد! انظر إليها الآن، ياميزا بعدما انبسط لحمها المطوي، امرأة مفعمة بالجمال، يغمرها الجمال الأعظم! ماهذا الذي تقوله عن صوت النفير الحاد! انهض، انهض ياذا الشكل المكسور لتراني كالراقصة المنصتة، ذات القدمين الفرحتين اللتين يلتقطها إيقاع لا يقاوم. اتبعني ولا تتلكأ بعد الآن! ياإلهي العظيم، هاأنا ضاحكة، دوارة، مجتثة من جذوري، وظهري فوق أديم الضوء نفسه كأنه يحلق على الجناح الذ ي يرف تحت الموجة! آه ياميزا! هانحن نقتسم منتصف الليل، وها أنا ذى مستعدة للتحرر والخلاص، علامة أخيرة على الشعر المنطلق في ريح الموت!

ميزا : الوداع لقد رأيتك للمرة الأخيرة! على أي دروب طويلة، مضنية، ومافتئنا بعيدين يسند كل منا الآخر. سنروّض أرواحنا على الكد والعمل؟ تذكري، تذكري العلامة! أما علامتي فليست هي الشعر العقيم في العاصفة، ولا هي المنديل الصغير لحظة الوداع، بل سأكون بعد أن تتمزق كل الحجب، كالشعلة القوية المتوهجة، الرجل العظيم في مجد الرب، الإنسان في روعة إشراق أغسطس، والروح المنتصرة في تحول الظهيرة!

النهاية

صدر من هذه السلسلة

١ـ سمك عسير الهضم	تأليف : مانويل جاليتش
٢ ـ القبرة (جان دارك)	تأليف : جان انوي
٣ـ البرج	تأليف : هال انوي
٤ ـ عاصفة الرعد	تأليف : تساويو
٥ ـ الخادم الأخرس ـ التشكيلة أو عرض الأزياء	تأليف : هارولد بنتر
٦ ـ الشيطانة البيضاء	تأليف : جون ويستر
٧ ـ الاسكندر المقدوني أو قصة مغامرة	تأليف : تبرانس راتيجان
٨ ـ سباق الملوك	تأليف : تبرانس راتيجان
٩ ـ استعدوا لركوب الطائرة وغيرها	تأليف : جون مورتيمر
١٠ ـ النيازك	تأليف : فريدريش دورينهات
١١ ـ دراما اللامعقول	تأليف : يونسكو ـ داموف ـ أرابال البي
١٢ ـ مس جوليا ـ الأب	تأليف : أوجست سترندبرج
١٣ ـ عطيل يعود	تأليف : نيقوس كازندزاكي
١٤ ـ أنشودة أنجولا	تأليف : بيتر فايس
١٥ ـ تواضعت فظفرت	تأليف : أوليفر جولد سميث
١٦ ـ مدرسة الزوجات ـ نقد مدرسة الزوجات ـ ارتجالية فرساي	تأليف : موليير
١٧ ـ عسكر ولصوص أونيد كيللي	تأليف : دوجلاس سيتوارت
١٨ ـ العين بالعين	تأليف : وليم شكسبير
١٩ ـ الطريق إلى دمشق ـ ثلاثية	تأليف : أوجست سترندبرج
٢٠ ـ ١٤ يوليو	تأليف : رومان رولان
٢١ ـ شجرة التوت	تأليف : انجس ويلسون
٢٢ ـ روس أولرانس العرب	تأليف : تيرانس راتجان
٢٣ ـ حلاق أشبيلية	تأليف : كارون دي بومارشيه
٢٤ ـ هاملت	تأليف : وليم شكسبير
٢٥ ـ الحياة الشخصية	تأليف : نويل كوارد
٢٦ ـ نساء تراخيس	تأليف : سوفوكل
٢٧ ـ رجل الله ـ القلوب النهمة	تأليف : جبرييل مارسل
٢٨ ـ ليلة ساهرة من ليالي الربيع	تأليف : انريكي خارديل بونثلا

٢٩ ـ الأقوى ـ الرباط ـ الجرائم ـ موسيقى الشبح — تأليف : أوجست ستريندبرج
٣٠ ـ اصطياد الشمس — تأليف : بيتر شافر
٣١ ـ حكاية فاسكو ـ السيد نويل — تأليف : جورج شحادة
٣٢ ـ انتصار حورس — تأليف : هـ. و. فيرمان
٣٣ ـ بيوت الأرامل ـ العابث — تأليف : جورج برنارد شو
٣٤ ـ ثلاث مسرحيات طليعية ـ قرافة السيارات ـ فاندو وليز ـ الشجرة المقدسة — تأليف : فرناندو أرابال
٣٥ ـ أوديب الملك ـ أوديب في كولون ـ اليكترا — تأليف : سوفوكل
٣٦ ـ اليكترا ـ لن تقع حرب طروادة — تأليف : جان جيرودو
٣٧ ـ المغنية الصلعاء ـ الدرس ـ جاك أو الامتثال ـ المستقبل في البيض ـ الكراسي — تأليف : يوجين يونسكو
٣٨ ـ مسرحيات إذاعية — تأليف : كوبل تشيرشل ـ شارب مانج
٣٩ ـ روما لم تعد في روما ـ المحراب المضيء أو (مصباح النعش) — تأليف : جبرييل مارسل
٤٠ ـ شيطان الغابة ـ الخال فانيا — تأليف : أنطون تشيخوف
٤١ ـ مهاجر بريسبان ـ البنفسج — تأليف : جورج شحادة
٤٢ ـ ديانا والمثال ـ الحياة عطاء ـ لذة الأمانة — تأليف : لويجي بيرندلو
٤٣ ـ ستيفن «د» ـ منفيون — تأليف : جيمس جويس
٤٤ ـ الغرماء ـ الأميرة البيضاء ـ عيد الفصح — تأليف : أوجست ستريندبرج
٤٥ ـ أنتيجونه ـ أجاكس ـ فيلوكتيت — تأليف : سوفوكل
٤٦ ـ سدوم وعمورة ـ مجنونة شايو — تأليف : جان جيرودو
٤٧ ـ ضحايا الواجب ـ مرتجلة الما ـ سفاح بلا كراء — تأليف : يوجين يونسكو
٤٨ ـ طريق القمة ـ العالم المكسور — تأليف : جبرييل مارسل
٤٩ ـ الحلم الأمريكي ـ الطابعان على الآلة — تأليف : البي شيزجال
٥٠ ـ الأرض كروية — تأليف : أرمان سالاكرو
٥١ ـ السلاح والإنسان ـ كانديدا ـ رجل المقادير — تأليف : جورج برنارد شو
٥٢ ـ الحارس — تأليف : هارولد بنتر

٥٣ ـ ابن أمية أو ثورة المورسكيين — تأليف : مارتنيس دي لاروزا
٥٤ ـ مأساة كريولانس — تأليف : وليم شكسبير
٥٥ ـ القصة المزدوجة للدكتور بالمي — تأليف : أنطونيو بويرو باييخو
٥٦ ـ الكترا ـ أورستيس — تأليف : يوربيديس
٥٧ ـ هرناني — تأليف : فيكتور هيجو
٥٨ ـ المستنيرون — تأليف : ليو تولستوي
٥٩ ـ سجاناريل ـ المتحذلقات المضحكات ـ مدرسة الأزواج ـ الطبيب الطائر ـ غيرة الباربوييه — تأليف : موليير
٦٠ ـ الطريق إلى روما — تأليف : روبرت شيروود
٦١ ـ المهرجون ـ قصة فلادلفيا — تأليف : فيليب باري
٦٢ ـ قصة حياة — تأليف : ماكس فريش
٦٣ ـ أوبرا الصعلوك — تأليف : جون جي
٦٤ ـ الابن الطبيعي — تأليف : دنيس ديدرو
٦٥ ـ رقصة الموت ـ الطريق الكبير — تأليف : أوجست سترندبرج
٦٦ ـ أيام العمر ـ سكان الكهف — تأليف : وليم ساروبان
٦٧ ـ العارض ـ بيرينيس المصرية — تأليف : أندريه شديد
٦٨ ـ المعصرة ـ أداء الأدوار ـ أبوزهرة بفمه — تأليف : لويجي بيرندلو
٦٩ ـ حالة طوارىء — تأليف : ألبير كامي
٧٠ ـ حياة جالليو ـ طبول في الليل — تأليف : برتولت برشت
٧١ ـ غرفة المعيشة — تأليف : جراهام جرين
٧٢ ـ المستأجر الجديد ـ اللوحة ـ الخرتيت — تأليف : يوجين يونسكو
٧٣ ـ السفر ـ سهرة الأمثال — تأليف : جورج شحادة
٧٤ ـ نجونا بأعجوبة — تأليف : ثورنتون وايلدو
٧٥ ـ تلميذ الشيطان ـ هداية القبطان براسباوند — تأليف : جورج برنارد شو
٧٦ ـ الملك لير — تأليف : وليم شكسبير
٧٧ ـ الطريق — تأليف : وول شوينكا
٧٨ ـ عزيزي مارات المسكين — تأليف : إلكسي أربورف
٧٩ ـ زفاف زبيدة — تأليف : هوجو فون هومانزتال
٨٠ ـ مياه بابل ـ رقصة العريف — تأليف : جون آردن
٨١ ـ روبسبير — تأليف : رومان رولان
٨٢ ـ أوديب — تأليف : سنكا
٨٣ ـ ظمأ ـ عبودية ـ ضباب ـ مبحرون شرقا إلى كارديف ـ في المنطقة ـ بدر على البحر الكاريبي — تأليف : يوجين اونيل

٨٤ ـ فرسان المائدة المستديرة ـ الآباء الأشقياء — تأليف : جان كوكتو

٨٥ ـ تعلم الفرنسية بلا دموع ـ الممر المضيء — تأليف : تيرانس راتيجان

٨٦ ـ العرس الدموي — تأليف : فديريكو غرسيا لوركا

٨٧ ـ الحياة حلم — كالدرون دي لاباركا

٨٨ ـ يوليوس قيصر — تأليف : وليم شكسبير

٨٩ ـ الفينيقيات ـ المستجيرات — تأليف : يوربيديس

٩٠ ـ لكل عالم هفوة — تأليف : الكسندر استروفسكي

٩١ ـ ظل الوادي ـ الراكبون إلى البحر ـ زفاف السمكري ـ بئر القديسين — تأليف : جون ميلنجتون سنج

٩٢ ـ فتى الغرب المدلل ـ ديردرا فتاة الأحزان ـ عندما غاب القمر — تأليف : جون ميلنجتون سنج

٩٣ ـ كلهم أبنائي ـ الثمن — تأليف : آرثر ميللر

٩٤ ـ أوبرا القروش الثلاثة ـ لوكولوس ـ بعل — تأليف : برتولت برشت

٩٥ ـ تيمون الأثيني — تأليف : وليم شكسبير

٩٦ ـ خادم سيدين — تأليف : كارلو جولدوني

٩٧ ـ رحلة السيد بريشون — تأليف : أوجين لابيش

٩٨ ـ فتاة في سن الزواج ـ مشاجرة رباعية ـ تخريف ثنائي ـ الثغرة ـ لعبة الموت — تأليف : يوجين يونسكو

٩٩ ـ ست شخصيات تبحث عن مؤلف ـ كل شيخ له طريقة ـ الليلة نرتجل — تأليف : لويجي بيرندلو

١٠٠ ـ انتحار الحبيبين في سونيزاكي ـ معارك كوكسينجا — تأليف : تشيكا ماتسبو

١٠١ ـ وراء الأفق ـ أنا كريستي — تأليف : يوجين أونيل

١٠٢ ـ الحرية المغلوبة ـ صعود البطل — تأليف : جون آردن

١٠٣ ـ مأساة عطيل — تأليف : وليم شكسبير

١٠٤ ـ الطلبة المشاغبون ـ قبل يوم الاثنين الموعود ـ الليلة يوم الجمعة — تأليف : جانز كوبر ـ كولين فينيو

١٠٥ ـ حرم سعادة الوزير ـ الدكتور — تأليف : برانيسلاف نوشيتش

١٠٦ ـ القمر في النهر الأصفر — تأليف : دنيسن جونستون

١٠٧ ـ بينما تسطع الشمس ـ المهرجون — تأليف : تيرانس راتيجان

١٠٨ ـ الحصان المغمى عليه ـ الشوكة — تأليف : فرانسواز ساجان

١٠٩ ـ الصنوبرة المجتثة ـ انتحار الحبيبين في اميجيا — تأليف : تشيكاماتسو

١١٠ ـ الأم الشجاعة ـ السيد بنتلا وخادمه ماتي — تأليف : برتولت برشت
١١١ ـ الغضب ـ الملك يموت ـ العطش والجوع — تأليف : يوجين يونسكو
١١٢ ـ العاصفة — تأليف: وليم شكسبير
١١٣ ـ هكذاالدنيا تسير — تأليف: وليم كونجريف
١١٤ ـ الدراما الثورية الإسبانية ـ فصيلة على طريق الموت ـ النطحة ـ الكمامة — تأليف: ألفونسو ساستري
١١٥ ـ مرحلة الواقعية الأولى ـ رغبة تحت شجر الدردار — تأليف : يوجين أونيل
١١٦ ـ الآلة الجهنمية — تأليف: جان كوكتو
١١٧ ـ جيتس فون برلشجن — تأليف: يوهان فلفجلنج جيته
١١٨ ـ مأساة طيبة أو الشقيقان فيدر — تأليف: جان راسين
١١٩ ـ ليوكاديا — تأليف: جان انوي
١٢٠ـ الشر يستطير ـ الصابرون — تأليف: جاك أوديبرتي
١٢١ـ مضيفة النزلاء — تأليف: جاك أوديبرتي
١٢٢ ـ أسطورة دون كيشوت ١٩٦٨ — تأليف: بويرو باييغو
١٢٣ ـ حلم العقل — تأليف: بويرو باييغو
١٢٤ ـ مكبث — تأليف: وليم شكسبير
١٢٥ ـ القيثارة الحديدية — تأليف: جوزيف أوكنرو
١٢٦ ـ عائلتي ـ الأشباح — تأليف: ادواردو دي فيليبو
١٢٧ ـ الزملاء الثلاثة — تأليف: جيمس بروم لين
١٢٨ ـ ممثل الشعب — تأليف: برانيسلاف نوفيتس
١٢٩ ـ الناشزون — تأليف: آرثر ميللر
١٣٠ ـ العائلة ـ خيال مريض — تأليف: إيفان سرجيفتش ـ فوجنيف
١٣١ ـ الكرز المزهر — تأليف: روبرت بولت
١٣٢ ـ توركواتو تاسو — تأليف: يوهان فلفجانج جيته
١٣٣ ـ مشهد في الطريق — تأليف: المررايس
١٣٤ ـ حبا بحب — تأليف: وليم كونجريف
١٣٥ ـ تحيا الملكة — تأليف: روبرت بولت
١٣٦ ـ لورانز الشو — تأليف: الفريد دي موسيه
١٣٧ ـ الإمبراطور جونز ـ الغوريلا — تأليف : يوجين أونيل
١٣٨ ـ هرقل فوق جبل أويتا — تأليف: سينيكا

١٣٩ ـ دنيا زوال	تأليف: مورس هارت ـ جورج كوفمان
١٤٠ ـ ميليت ـ السيد	تأليف: لير كورني
١٤١ ـ قفزة في الخلاء أو ـ العجوز المراهق	تأليف: دونا ماكونا
١٤٢ ـ المستر دولار	تأليف: برانسيلاف نوشيتس
١٤٣ ـ زوجة كريح	تأليف: جورج كيلي
١٤٤ ـ التطلع إلى المصيف ـ مغامرات المصيف ـ العودة من المصيف	تأليف: كارلو جولدوني
١٤٥ ـ اللصوص	تأليف: فريدرش شلر
١٤٦ ـ ثلاث قبعات كوبا	تأليف: ميجيل ميورا
١٤٧ ـ القلب المحطم	تأليف: جون فورد
١٤٨ ـ جريمة قتل في الكاتدرائية	تأليف: ت. س. إليوت
١٤٩ ـ حفل كوكتيل	تأليف: ت. س. إليوت
١٥٠ ـ نقيب كوبينيك	تأليف: كارل توكماير
١٥١ ـ الآلة الكبير براون	تأليف: يوجين أونيل
١٥٢ ـ مختارات من المسرح الافريقي	
ـ الخادم	تأليف: فرديناند أويونو
ـ الزنزانة	تأليف: هارولد كمل
١٥٣ ـ شهر في القرية	تأليف: إيفان تورجينيف
١٥٤ ـ الجدة الأولى	تأليف: فرانس جريليا وتسر
١٥٥ ـ المرحوم	تأليف: برانيسلاف نوشيتس
١٥٦ ـ النمر والحصان	تأليف: روبرت بولت
١٥٧ ـ حملة الدكتوراه	تأليف: موريل سبارك
١٥٨ ـ فلهلم تل ١٨٠٤	تأليف: فريدرش شلر
١٥٩ ـ عيد الميلاد في بيت كوبيللو	تأليف: ادواردو دي فيليبو
١٦٠ ـ إنسان روسوم الآلي	تأليف: كاريل تشابيك
١٦١ ـ أول من صنع الخمر ـ ليلة تبكي الملائكة	تأليف: تولستوي
١٦٢ ـ زواج لوترو هاديك	تأليف: بيتر ليرسوف
١٦٣ ـ سلطان الظلام	تأليف: جول رومان
١٦٤ ـ الأعزب	تأليف: إيفان تورجينيف
١٦٥ ـ الآنسة روزيتا العانس أو لغة الزهور	تأليف: فديريكو غريسيه لوركا
١٦٦ ـ افيجينيا في أوليس ـ افيجينيافي تاوريس	تأليف: يوربيديس
١٦٧ ـ أندرو ماخي ـ الطرواديات	تأليف: يوربيديس

١٦٨ـ سابفو	تأليف : فرانس جزيليارتسر
١٦٩ ـ أصوات الأعماق	تأليف : إدواردو دي فيليبو
١٧٠ ـ أبوالهول الحي	تأليف : رجب تشوسيا
١٧١ ـ الريفية	تأليف : إيفان تورجينيف
١٧٢ ـ الآلة الحاسبة	تأليف : المرل . رايس
١٧٣ ـ الناسك الأسود	تأليف : جيمس نجوجي
ـ ولد للموت	تأليف : سام توليا موهيكا
ـ الخروج	تأليف : توم أومارا
١٧٤ ـ مصرع كاسبر هاوزر	تأليف : ديتر فورته
١٧٥ ـ الغابة	تأليف : الكسندر استروفسكي
١٧٦ ـ الدكتاتور	تأليف : جول رومان
١٧٧ ـ خاتمان من أجل سيدة	تأليف : أنطونيو جالا
١٧٨ ـ انحراف في قصر العدالة	تأليف : أوجويتي
١٧٩ ـ أغسطس من أجل الشعب	تأليف : نيجل دنيس
١٨٠ ـ عابدات باخوس	تأليف : يوربيديس
١٨١ ـ ايون	تأليف : يوربيديس
١٨٢ ـ هيبوليتوس	تأليف : يوربيديس
١٨٣ ـ مارسيل بانيول	تأليف : طوباز
١٨٤ ـ عمود النار ـ الكلايدوسكوب ـ نفير الضباب	تأليف : راي برادبوري
١٨٥ ـ جريمة في جزيرة الماعز	تأليف : أوجويتي
١٨٦ ـ ميديا	تأليف : بيير كورني
١٨٧ ـ الفتى المذهب	تأليف : كليفوره أوديتس
١٨٨ ـ عصر الجليد	تأليف : تانكرد دورست
١٨٩ ـ الكذاب	تأليف : بيير كورني
١٩٠ ـ العدالة	تأليف : جون جولزود ذي
١٩١ ـ أوبو ملكا	تأليف : الفريد جاري
١٩٢ ـ أوبو عبدا	تأليف : الفريد جاري
١٩٣ ـ أوبو فوق التل ـ أوبو زوجا مخدوعا	تأليف : الفريد جاري
١٩٤ ـ ما ثمن المجد	تأليف : ماكسويل أندرسون
١٩٥ ـ نجمة أشبيلية	تأليف : لوبي دي بيجا
١٩٦ ـ وحش طوروس	تأليف : عزيز نسين
١٩٧ ـ افعل شيئا يامت	تأليف : عزيز نسين
١٩٨ ـ المتعاملون	تأليف : كوبيناسكي

١٩٩ ـ هرج ومرج في المنزل — تأليف: كويسي كادي
٢٠٠ ـ الجزء الأول من حكاية الملك هنري الرابع — تأليف: وليم شكسبير
٢٠١ ـ الأشباح — هنريك إبسن
٢٠٢ ـ البطة البرية — تأليف: هنريك إبسن
٢٠٣ ـ أعمدة المجتمع — تأليف: هنريك أبسن
٢٠٤ ـ نابولي مليونيرة — تأليف: ادواردو دي فيليبو
٢٠٥ ـ عطلة الإسكافي — تأليف: توماس دكر
٢٠٦ ـ الحبل المتهدل أو أغنية القطار الشبح — تأليف: فرناندو أرابال
٢٠٧ ـ ماريوس — تأليف: مارسيل نانيول
٢٠٨ ـ جثة حية — تأليف: تولستوي
٢٠٩ ـ السكين الكبير — تأليف: كيلفورد أودتيس
٢١٠ ـ الأرض الحرام — تأليف: هارولد بنتر
٢١١ ـ مذنبون بلا ذنب — تأليف: الكسندر استروفسكي
٢١٢ ـ رحلة النهار الطويلة خلال الليل — تأليف: يوجين أونيل
٢١٣ ـ سيدات متقاعدات — تأليف: ادوارد بيرسي وريجينالد دنهام
٢١٤ ـ الهارب — تأليف: جون جولزورذي
٢١٥ ـ السحب ـ ١ — تأليف: اريستوفانيس
٢١٦ ـ السحب ـ ٢ — تأليف: اريستوفانيس
٢١٧ ـ مجانين واختصاصيون — تأليف: وول سوينكا
٢١٨ ـ الموت وفارس الملك — تأليف: وول سوينكا
٢١٩ ـ لون بشرتنا — تأليف: ثيلستينو جورستيثا
٢٢٠ ـ توركاريه — تأليف: آلان رينيه لوساج
٢٢١ ـ السيد دي ساد — تأليف: يوكيو ميشيما
٢٢٢ ـ الأيام الخوالي — تأليف: هارولد بنتر
٢٢٣ ـ الآلية — تأليف: صوفي تريدويل
٢٢٤ ـ شروق الشمس — تأليف: تساويوي
٢٢٥ ـ الحياة المديدة للملك أوزوالد ـ المؤامرة — تأليف: فيليمير لوكيتش
٢٢٦ ـ العاصفة الرعدية — تأليف: الكسندر استروفسكي
٢٢٧ ـ الضوء يسطع في الظلام — تأليف: ليون تولستوي
٢٢٨ ـ سيدة الفجر — تأليف: اليخاندرو كاسونا
٢٢٩ ـ منحنى خطر — تأليف: ج. ب. بريستلي
٢٣٠ ـ توراندوت — تأليف: فريدريك شيلر
٢٣١ ـ الجمعية الأدبية — تأليف: هنري أفوري

- جواهر المعبد	تأليف: جيمس اين هنشو
٢٣٢ - فاوست - الجزء الأول - المقدمة	تأليف: جيته
٢٣٣ - فاوست - الجزء الثاني - نص مسرحي	تأليف: جيته
٢٣٤ - فاوست - الجزء الثالث - نص مسرحي	تأليف: جيته
٢٣٥ - القفص - الانتحار	تأليف: ماريو فراتي
٢٣٦ - ملكة الليل في بحر حجري	تأليف: يان سولوفيتش
٢٣٧ - افتتاحية الهادىء	تأليف: جون ويدمان
٢٣٨ - كازانوفا	تأليف: جييوم أبولينير
٢٣٩ - نهدا تريزياس - لون الزمن	تأليف: جييوم أبولينير
٢٤٠ - وظيفة مريحة	تأليف: السكندر استروفسكي
٢٤١ - مطعم القردة الحية	تأليف: غونكور ديلمان
٢٤٢ - الخزان العظيم	تأليف: بيتر ترسون
٢٤٣ - كنت هنا من قبل	تأليف: ج. ب. بريستلي
٢٤٤ - بيت آل روزمر	تأليف: هنريك إبسن
٢٤٥ - حورية من البحر	تأليف: هنريك إبسن
٢٤٦ - أيولف الصغير	تأليف: هنريك إبسن
٢٤٧ - بيركليس	تأليف: وليم شكسبير
٢٤٨ - حرية المدينة	تأليف: براين فرايل
٢٤٩ - بنات تراخيس	تأليف: سوفوكليس
٢٥٠ - المرأة - اليقظ دائما	تأليف: جواد فهمي باشكوت
٢٥١ - البيت الذي شيده سويفت	تأليف: غريغوري غورين
٢٥٢ - ميدان بيركلي	تأليف: جون بولدرستون
٢٥٣ - مؤامرة الإمبراطورة	تأليف: إلكسي تالستوي
٢٥٤ - قضية روبرت أوبينهايمو	تأليف: هاينز كيبهارت
٢٥٥ - نساء لهن ماض	تأليف: ديميتر ديموف
٢٥٦ - هيكابي	تأليف: يوربيديس
٢٥٧ - الناووس أو التابوت الحجري	تأليف: فلاجيمير جوبريف
٢٥٨ - نهاية اللعبة	تأليف: صمويل بيكيت
٢٥٩ - سيمبلين	تأليف: وليم شكسبير
٢٦٠ - وداع في يونيو	تأليف: الكسندر فامبيلوف
٢٦١ - النبي المقنع	تأليف: عبدالكريم الخطابي
٢٦٢ - بلا لبس - دماء آل بامبيرغ	تأليف: جون أوزبورن
٢٦٣ - الرجل المنسي	تأليف: ناظم حكمت
٢٦٤ - باولو وفرانتشيسكا	تأليف: ستيفن فيليبس

٢٦٥ ـ ليالي الغضب	تأليف: أرمان مالاكرد
٢٦٦ ـ لا	تأليف: ماكس أوب
٢٦٧ ـ حمام روماني	تأليف: ستانسلان ستراتييف
٢٦٨ ـ المفتش	تأليف: نيقولاي غوغول
٢٦٩ ـ الرجل الأحزن	تأليف: بيرج زيتونتيان
٢٧٠/ ٢٧١ـ في انتظار جودو	تأليف : صمويل بيكيت
ـ الرحلة الجانبية	تأليف : مارتن فالسر
٢٧٢/ ٢٧٣ـ في سبيل الحرية	تأليف : جوهر مراد
ـ صحيفة الشيخ شرزين	تأليف : بهرام بيضائي
٢٧٤/ ٢٧٥ـ عندما نبعث نحن الموتى	تأليف : هنريك إبسن
ـ غرائب عندليب	تأليف : تينسي ويليامز
٢٧٦/ ٢٧٧ـ الجزيرة القرمزية	تأليف : ميخائيل بولغاكوف
ـ بوريس جودونوف	تأليف : ألكسندر بوشكين
٢٧٨/ ٢٧٩ـ المؤامرة والحب	تأليف : فريدريش فون شلر
ـ لا مزاح في الحب	تأليف : ألفريد دي موسيه
٢٨٠/ ٢٨١ـ سترة من المخملين	تأليف : ستانيسلاف ستراتييف
ـ شارلوتا ـ عائشة	تأليف : شحابلوق عيسى

قسيمة اشتراك

البيان	سلسلة المسرح العالمي		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	دك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت	١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك [ ] تجديد اشتراك [ ]

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقداً / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ١٩م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

طبع في مطابع دار السياسة